

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

الإلمام
بخلاصة تاريخ أرض المغارب
قبل الإسلام

تأليف
الدكتور محمد التازي سَعود

1427هـ - 2006م

أكاديمية المملكة المغربية

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062
الرمز البريدي 10100
الرباط – المملكة المغربية

تليفون 75.51.46 (037) / 75.51.99 (037)

البريد الإلكتروني : **E-mail** : alacademia@iam.net.ma

فـاكْس 75.51.01 (037)

الكتاب : «الإلمام بخلاصة تاريخ أرض المغارب قبل الإسلام»

تأليف : محمد التازي سعود

التصفيف : أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2006/250

ردمك : 9981-46-041-9

تقديم

هذا التاريخ العريض الطويل غير المكتوب، الذي نبحث عنه فيما كتبه الغرباء القدماء والمحدثون، يلوح لمن عنى نفسه بقراءته متنوعاً وذا ألوان. فهو مضطرب تكثر فيه الاحتمالات والافتراضات.

وإن الشيء الثابت الوحيد فيه، ولو من غير وضوح، هو اتصال هذه الأرض وأهلها بالأمم والشعوب التي تحيط بهم. لقد كانوا في عماء التاريخ حتى فتح أعينهم عليه الواردون الساميون الذين هم الفينيقيون، في اتصال دام نحو 400 سنة قبل قرطاجة، كما دام نحواً من ستّة قرون معها، أي من 814 إلى 146 ق.م.

فهل اصطبغت الأرض والناس بصبغة هؤلاء الساميين ؟ هل أثّروا في النفوس والعقول، في حياة الناس ومعاشهم ؟ نعم ! ولكن على قلة. أما الأكثرية فاستمرت تعيش حياتها الأولى.

ثم كان الاتصال بِرومة ذات الحول والطول، سيدة البحر الأبيض المتوسط، مدة تقرب من خمسمائة وخمسين سنة، أي من 146 ق.م إلى 430م، فحاربتهم وحاربوها، وتجاوروا في المسكن والعمل، وانخرطوا في جيوشها محاربين مساعدين. فهل اصطبغت الأرض والناس بصبغة هؤلاء

الرومانيين ؟ هل أثّروا في النفوس والعقول، في حياة الناس ومعاشهم ؟ الجواب أيضا نعم ! ولكن على قلة. أما أكثرية الناس فاستمرت – كما قلتُ آنفاً – تعيش حياتها الأولى، فكان هناك الرومانيون، (والروماني Romani) أي المتَروْمنون، وعلى قيد خطوة منهم، كان الأَفْري Afri والموري Mauri والجيتولي Gaetuli يحيون وكأنهم لا علم لهم بالرومانيين إلا إذا زحفوا على السهول أو أراد الرحّل منهم أن يخترقوا خط اللّيمِس أي الحدود طلباً للمرعى والكلأ، فتصدّهم رومة، ويكون ذلك مدعاة لثورة تطول أو تقصر، ولكنها على كل ثورة، بما فيها من قسوة وجموح.

ثم كان الجرْمانيون الونْداليون. ولكن هؤلاء انغمسوا في متاهات الحضارة الرومانية بعد انتصارهم واستيلائهم على الأرض التي توزّعوها فيما بينهم. ولم يمر غير قليل حتى فشا فيهم داء الحضارة، فخنعوا واتضعوا، وشاع فيهم التخنّث والتأنث. ولم يكن لديهم ما يعطونه للناس، لم تكن لهم حضارة أصيلة يتشبثون بها، سوى هذه الأريانية (الأريوسية) التي اتخذوها مذهباً يتعصبون له ويقيمونه كمذهب للدولة. فكانت سبباً في الفرقة والظلم والاضطهاد، الأمر الذي سهل على البيزنطيين مهمة استرجاعهم للأرض.

وجاء البيزنطيون بحلم يوسْتِنْيانوس الذي كان يحلم وكأنه مفوّض من قِبَل السماء، من لدن الرب ليسترجع للإمبراطورية أرض إفريقيا. ولكن برغم جهوده وجهود الذين جاؤوا من بعده لم تسترجع بيزَنْطة سوى مقاطعة (أفريكا) وتْريبوليتانْيا أحياناً، وشرق نوميدْياً. وغرقَت بيزنطة بسبب المتاهات الدينية التي تلفت فيها، وبسبب ظلم حكامها وقسوة جُباة ضرائبها في سلسلة من الثورات التي مهدت البلاد لسيطرة العرب والإسلام. ولهذه السيطرة قصة أخرى، اكتفيتُ بذكر توطئة بسيطة وسريعة ومختصرة عنها.

هذا باختصار هو تاريخ شمال إفريقيا قبل الإسلام. وهو تاريخ مجهول في اللغة العربية تماماً، ومجهول عند الأكثرية البالغة والغالبة من أبناء هذه الأرض.

لذلك قمت بترجمة أهمّ كتبه عن اللغة الفرنسية إلى العربية. وهكذا ترجمتُ «تاريخ شمال إفريقيا القديم» لأصْطِفانْ گسْيلْ Stephan Gsell، وهو في ثمانية أجزاء. أتبعتُها بكتاب «الونداليون في إفريقيا» بقلم كريسْتيان كورْتْوا Christian Courtois، وهو في العربية في مجلدين اثنين. ثم أتبعته بكتاب «إفريقيا البيزنطية» بقلم شارل ديهلْ Charles Diehl، وهو أيضا في العربية في مجلدين اثنين. ومن قبل كنت قد قمت بترجمة «حرب يوغَرْطة» للكاتب اللاّتاني سالوسْتيوس، وأتبعته بترجمة «إفريقيا الرومانية». وهو عبارة عن مجموع ضممت بين دفتيه بحثاً خاصاً عن إفريقيا في عهد الرومان بقلم الكاتب المؤرخ الألماني مومْسِنْ Mommsen. كما يضم بين دفّتيه بحثاً في ستّ محاضرات للمؤرخ الفرنسي أوجين ألبيرتيني Eugène Albertini بعنوان «إفريقيا الرومانية»، كما ضم المجموع بين دفّتيه بحثا مطوّلاً كالسابقين عن نفس الموضوع لفيكتور شاپو V. Chapot. أما أنا فقد ألّفت كتابا بعنوان : «موريطانيا الطنْجية» (التنْجيتان) في عهد ملكها يوبا الثاني وابنه بَطْليموس (من 23 ق.م إلى 40م). وبهذا يكون مجهودي قد انصب على موضوع تاريخ أرض المغارب قبل الإسلام في خمسة عشر مجلداً يمتد النظر فيها مما قبل التاريخ إلى وصول الإسلام لهذه الأرض السعيدة.

على أنني عدت فانتبهت إلى أن سائر الناس قد لا يعنون بموسوعة من خمسة عشر جزء، ولذلك عدت فلخصتُها في هذا الجزء المفرد الذي يسهل تناوله وقراءته والنظر فيه سواء على الأستاذ المدرّس، وعلى الطالب المراجع لدرروسه، وحتى على المتأدب الذي يهمه الاطلاع على ماضي هذه

الأرض في نظرة عجلى. وقد سمّيتُه «الإلمام في خلاصة تاريخ أرض المغارب قبل الإسلام»، وقسّمته على خمسة كتب، كل كتاب يتناول عصراً من عصور تاريخ ما قبل الإسلام في إفريقيا الشمالية.

فهل أكون قد أحسنت فيما فعلته ؟ إني متيقّن من ذلك خصوصاً وأنني زودتُ الخزانة العربية بأداة مهمة للعمل.

الدكتور محمّد التازي سَعود(*)

فاس 1427هـ/2006م

(*) ترجمته بخطّ يده : محمّد بن محمّد التازي المعروف بلقب سَعود. المولود بفاس سنة 1920. تربّى فيها ودخل الكتّاب القرآني، ثم نُقل سنة 1927 إلى المدرسة الفرنسية العربية، حيث قضى سنتين قرّر بعدهما جدّه المرحوم عبد الرحمن أن يعيده إلى الكتّاب القرآني لعدم رضاه عن تلك «البلبلة» التي سمع حفيده يلغو بها وهو يحفظ أحد دروس المحادثة باللّغة الفرنسية. بعد ذلك تعدّدت للطفل مسالكه التعليمية من المدرسة الحرّة بالْمَخْفِية في فاس، ثم بالقرويّين حيث كان طالباً مستمعاً فحسب، فاختار الحضور بدروس الجِلة من علماء النحو والبلاغة، وخلال كل ذلك لم يكن يهمل بداياته الأولى في اللغة الفرنسية فنمّاها بدروس خاصّة ثم انتسب إلى معهد الدروس المغربية العليا، فأقبل على الترجمة حتى نال دبلوم المعهد. واتضحت المسيرة أمامه في كلية الآداب فنال الإجازة في الأدب العربي ودبلوم الدراسات العليا والدكتوراه في التاريخ القديم.

عمل معلّماً في الابتدائي، ثم مدرّساً في الثانوي ثم أستاذاً جامعاً بكلية آداب الرباط من 1964 إلى 1973، وبفاس – ظهر المَهْراز – حيث كان رئيساً لشعبة التاريخ – ومديراً لشعبة تكوين المكوّنين – فزوّد الكليات الجديدة بأساتذة التاريخ.

وللأستاذ محمد التازي سعود، زيادة على عنايته بتاريخ أرض المغارب، مَلْحمة شعرية عن بعض الجوانب من حياة الجاهلية العربية إلى ظهور الإسلام بعنوان : «الملحمة العربية... قال الراوي» في نحو 15.000 بيت شعري. وهي مطبوعة. كما له مجموعات شعرية تبلغ 12 دفتراً شعرياً لم يطبع منها شيء حتى اليوم. وكذلك فإن محاضراته في التاريخ تنتظر منه أن يوليها العناية لتهذيبها وإخراجها للوجود.

الكتاب الأول

أرض المغرب الكبير عريقة في القدم، مرت بأطوار حضارية متعددة ومتنوعة، يشهد لذلك هذه الآثار الكثيرة المختلفة المنبتّة على طول هذه الأرض وعرضها.

وقد انكبت جماعات العلماء الأوربيين على التنقيب عن هذه الآثار ودراستها، واستنطاقها لمعرفة ماضي هذه الأرض. وكان لعلماء المدرستين الفرنسية والإسبانية اليد الطّولى في هذه الدراسات نظراً للسهولات الإدارية وللاعتمادات المالية التي كانت الإدارات تغدقها عليهم تشجيعاً لهم في هذا الميدان. ولذلك فإنهم دخلوا الكهوف والمغارات ونبشوا القبور وكشفوا التراب عند الأنهار ومنابع المياه، وفي سواحل البحار، وفي السهول والنجود والجبال، باحثين متبصّرين في الأدوات التي يعثرون عليها، سواء كانت هذه الأدوات من حجر أو عظام أو خشب أو معدن. وكل ذلك ساعدهم على معرفة الخطوات التي قطعتها هذه البلاد وسكانها الأولون في سيْرهم للخروج من عهد الوحشية إلى عهد الإنسية ومنها إلى عهد الإنسانية.

فَهُم لحدّ الآن عثروا على كثير من هذه المخلّفات أي (المصنوعات Industries) التي مجموعها يمثل ثقافة Culture تلك

العصور الغابرة. وطبعاً فإن هذه المصنوعات أو الثقافة تسلك في السياق العام للثقافة الإنسانية في عصور ما قبل التاريخ.

ومعنى هذا أن الأرض وأهلها هنا قد مروا بجميع الأطوار التي مرت بها الإنسانية جمعاء في بحر حضارتها، فعرفت العهد الحجري القديم Paléolithique، والعهد الحجري الوسيط Mésolithique، والعهد الحجري الجديد Néolithique، مع ما يميز كل عصر من هذه العصور من مميزات وخواصّ تطبعه وتجعله مرحلة هامة في تاريخ التطور البشري العام.

إن ما قبل التاريخ، وخصوصاً في الحجري القديم الأسفل، قد مرّ على نحو مماثل ثقافياً في كل من إفريقيا وآسيا وأوربا، ولكن – ومع الزمن – أخذت الأدوات تتميز ببعض الخاصيات الجهوية التي بدأت تطبعها. كما أن هناك أمراً يكاد يكون الآن مسلّماً أيضا وهو أن إفريقيا هي الأصلي للجنس الإنساني.

الحجري القديم

ويجب أن نتصور أرض المغرب ومناخها ونباتاتها وحيوانها قبل أن نتكلم على سكانها وثقافتهم.

لم يكن شمال إفريقيا يتمتع إذ ذاك بمثل طبيعته الحالية، فلقد كان الطقس حاراً رطباً يساعد على النباتات الكثة والغابات الكثيفة، وهذه بدورها هي البيئة المناسبة للحيوانات الضخمة التي وجد كثير من

عظامـها مثل الفيل والخرْتيت Rhinocéros وفرس النـهرHippopotame وحمار الزرد Zèbre والجاموس Buffle والزرافة والغزلان.

في هـذه البيـئة النباتـية والحيوانـية عـاش البِتـيكَنْطروب Pithécanthrope (القرِدنْسـينيات) وهي قـرود كبرى تشبـه الإنسـان أو على الأصح هي إنسـان – وحش يقـتـات بالنبـات والصـيد، وقـد يأكل الأسماك والقوقعيات إذا استطاع الوصول إليها.

ويستـعمل العصا والحجر في حاجياته، أي أنه اكتـشف آلته أو أداته الكبرى التي هي يده، فاستـعملها، فامـتاز عن بقيـة الحيـوانات الأخرى بأنه صـار قادراً، وقـدرته أتته من يده التي تحررت من المشي باسـتخدم الحجارة التي أخذ يسـتصلحـها لأغراضـه كمـا اسـتـخدم العصـا، فانتصبـت قامتـه فعُرِف باسـم Pithécanthrope erectus أي البِتيكَنْطروبي المنْتَصِب. وإن كان G.Clark لا يقول بأن التـطور الخلـقي قد حدث في الغابة، بل على العكس يرى أن : «... الإنْسِيِّين Hominidés قـد تطوروا في المناطق العـارية وأنهم من عـهـد مـبكر اتخـذوا عـادة انتصاب القامة والسير على القدمين». وقبل هذا قـال[1] : «... يظهر أن القرود الضـخمة المتكيفة بحيـاة الغابة قد استـعملت – نظرا لذلك – طريقة السير على الأطراف العليا» ولا شك أنه يقصد اليدين.

وعلى كل حال فقد اكتشفت بالجزائر بقايا لهذا الإنْسي Hominidé، في ترنفين قريباً من بالِكاوْ Palikao. وهذه البقايا عبارة عن فكّيْن وقطعة من عظم الجمجمة لمخلوق حديث السنّ، وهذه البقايا تـنـتمي للعصر

(1) G. Clark : *Préhistoire de l’humanité*. P. 19.

الحجري الأسفل. وقد دُعيت الفصيلة التي ينتمي لها هذا المخلوق باسم علمي هو : الأطْلانْطروپي المـوريطاني أي الإنسـان الأطْلانْطرُوبي المـوريطاني Atlanthropus Mauritanicus وهـي ترتبط خلفياً وحضارياً بـ«إنسـان جاوَة القديم» Paléojavanensis، وبـ«إنسان پكِينْ في الصين» Sinathropus، أما في المغرب فقد عُثِر سنة 1955 بمحجرة سيدي عبد الرحمن بالقرب من الدار البيضاء على فكّ سفلي وقطعة عظم من الجدار الأيمن للجمجمة لمخلوق مماثل للذي عثر عليه في ترْنفين بالجزائر، ومثل ذلك يقال عن «إنسان الرباط» الذي اكتشف سنة 1933. فقد انفجرت مفرقعة أثناء القيام ببعض الخدمات العامة، فطارت الشظايا ومعها ما تكسّر من جمجمة هذا المخلوق، فهبّ العلماء للبحث، وفعلاً جمعوا نحواً من 20 قطعة من الجمجمة وجمعوا معها فكّاً سفلياً، وبالدراسة تأكدوا أن كل ذلك لمخلوف من الفصيلة السابقة.

أما في كهف المغارة العالية قرب طنجة على ساحل المحيط فقد عثروا على بقايا إنسانية غير مهمة منها نابٌ وقطع فكّ علوي ليس تام النمو، وبالدراسة أرجع العلماء هذه البقايا لمخلوق من فصيلة الأطْلانْطُربوس ولكن للعصر الحجري القديم الأوسط لا الأسفل.

وكذلك يقال عن إنسان إيغُودْ الذي اكتُشِف مؤخراً في سنة 1963 في الجنوب الشرقي لمدينة آسفي. وقد درس جمجمتَه الأستاذُ إينوشي ورأى فيه إنسانا من فصيلة النّيانْدرِطال.

أما الإنسان العاقل أو العالم أو الواعي Homo Sapiens، فقد عثر على بقاياه في بعض المراكز منها كهف دار السلطان القريب من الرباط

ومشتى العربي، وأفلوبو الرمل وكلا الموقعين الأخيرين بالجزائر، والموقع الأخير منهما ذو أهمية عظمى إذ عثر فيه على أربعين من الجماجم البشرية وكلها حفظت على حالة جيدة.

والمهم في هذه المكتشفات ليس فحسب المخلوق الذي درس العلماء تطوره الخلقي والتكويني، بل إن الأهم – زيادة على ذلك – هو الأدوات التي يكشف عنها في المواقع التي أسعفتنا لحد الآن بهذه الآثار التي كانت تستعمل أدوات وأسلحة دفاع وهجوم، وهي لهذا تكشف لنا عن الجانب الحضاري لتلك العهود الغابرة.

فأولها الفُهور (جمع الفهر). وهي حجارة مستصلحة galets aménagés واشتهرت أيضا باسم Pebble Culture، وقد فصّل الحديث عنها الأستاذ بِبِرْسون Biberson في كتابه القيّم : Le Paléolithique inférieur du Maroc atlantique. فتحدث عن هذه الحجارة وكيف استنكف الناس في أول الأمر من اعتبارها صناعة إنسانية. فقالوا إنها طبيعية ولا أثر للإنسان فيها، وكيف احتدم النقاش وانتهى أخيراً إلى اعتبارها صناعة إنسانية. لأن طريقة القطع والتصليح فيها واضحة، سواء فيما اكتشف منها في كافْوين بأوغَنْدا، وفي أَلْدفَاي بالطّنْجَنيقا، أو في عين الحَنْش بالجزائر. وفي المغرب اكتشفت بعدة أمكنة قصر الأستاذ ببرسون فيها النظر على ما عثر عليه بالجهات الغربية منه، وهي السهول المحيطية، وذكر منها أربعة أمكنة هي عَرْباوة، وادي مْدا، دُوار الدّوم، وتغديگة الرحلة بالمعمورة، وقد درسها الأستاذ ببرسون من الوجهة التقنية Téchnique، فقال : «... قبل كل شيء نلحظ

بوضوح في هذا المركب الذي يكون حضارة الحجارة المستصلحة، مجموعتين من الصناعات اللتين اسميهما على الترتيب: الفهور العتيقة، والفهور المتطورة، وكل واحدة من هاتين المجموعتين تقسم إلى مرحلتين...»

1- الفهور العتيقة :	أ-	المرحلة العتيقة	Stade archaïque
	ب-	المرحلة القديمة	Stade ancien
2- الفهور المتطورة	أ-	المرحلة الوسطى	Stade moye
	ب-	المرحلة النهائية	Stade final

وتتقدم الصناعة خطوة أخرى إلى الأمام بظهور الفؤوس، وتُسمّى أيضا الأدوات ذات الوجهين Bifaces. ذلك أن صناعة الفهور لم تكن تتخذ لها شكلاً خاصاً، وإنما تخضع على العموم للشكل الأصلي للحجرة التي تصلح شيئا ما بتشظيتها من هنا وهناك، ليصح استعمالها. أما الآن فقد صار الصانع يتصور في ذهنه شكلا ويعمل لتحقيقه. فهذه المرحلة تخبرنا عن التطور الفعلي للصانع والتطور التقني في الصناعة. ويمتاز هذا الشكل بكونه واسعا من الأسفل بعض الشيء مقطوعا عند الأعلى من جانبيه الأيمن والأيسر مما يجعله ذا شكل خاص. على أن هذه الصناعة نفسها –وكذلك كل الصناعات الحجرية التي عرفت من بعد – لم يقع الوصول إليها إلا بعد مرور مراحل طويلة من التجارب والتدريبات، أعطت في الأول أدوات غير متقنة الصنع، يظهر عليها أثر العناء في العمل، ولكنه عمل تدرّج إلى أن أصبح من بعد

دقيقاً، ولذلك قسمت بدورها إلى عتيقة وحديثة، وأطلقت عليها أسماء مختلفة للتمييز بينها.

وأظهر ما تمتاز به هذه الصناعة عدا الشكل، أنها استعملت السنْدان، أي عند الصنع كانت تثبت حجرة كبرى على الأرض ويوضع فوقها غيرها الذي يصكّ بحجرة ثالثة تحملها اليد اليمنى، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للفهور التي كانت اليدان تحمل كل واحدة منهما في أول الأمر فهراً يصكّ الآخر. واستعمال السنْدان يؤكده ما قاله الأستاذان نوڤيل وَ روهلْمان Neuville et Ruhlmann [2] اللذان درسا الشظايا التي وُجدت بكثرة مع هذه الفؤوس، فقد قالا : «... فهنا وهناك نجد أنفسنا أمام شظايا اقتطعت على سندان...» ولاشك أن استعمال السندان خطوة هامة في التقدم الفني والتقني لذلك العهد، الأمر الذي دفع خطوة أخرى إلى الأمام، نحو صناعات الشظايا التي تدخل في العصر الحجري القديم الأوسط.

الشظايا

ولسنا ندري السبب الذي دفع الصانع إلى اختيارها، وإن كان التأمل يغرينا باتخاذ رأي لا مانع الآن منه، وهو أن الصانع صار ذا نباهة أكثر وأنه صار يميل إلى الإتقان وأنه تبعاً لذلك كله أصبح يفضل

(2) Neuville et Ruhlmann : *la Place du paléolithique ancien dans le quaternaire marocain*. PP. 52-56. Collection Hesperis, n° VIII. 1941

الأدوات الصغيرة الحجم كما سيتجلى بوضوح في العهود الموالية التي عُرفت صناعاتها باسم : الصناعات الحجرية الدقيقة الميكروليثية (Microlithiques). فعلى هذا الرأي يصح القول بالتدرج من الفأس الغليظة الصنع إلى ذات الوجهين المتقنة إلى الشظية ثم إلى الميكروليث.

وصناعة الشظايا هذه يعمّها عندنا اسم الحضارة العاطرية أو العطرية Atérien نسبة إلى بِئْر العطر قريبا من تبسّة حيث وُجدت لأول مرة عدة أدوات، منها أزْميلات ومكشطات وأسنّة لها سيلان صغير يوحي بأنها كانت تشدّ على العصي وتستعمل كالحراب. والملاحظ أن الأسنة نفسها مسنّنة. وقد عُثر على هذه الأدوات من غرب النيل إلى ساحل المحيط كما يقول G.Clark[3]. أما في المغرب بالخصوص فقد عثر عليها بعدة أماكن منها تْمارَة، وكهف دار السلطان، والمغارة العالية قرب طنجة.

وفيما يتعلق بهذه الحضارة نجد لأول مرة أثراً يشير إلى المشاغل أو الوساوس الميتافِزيقِية لإنسان ذلك العهد. هذا الأثر هو ما يعرف باسم التيملوس Timulus وهو عبارة عن الرجام الحجرية التي أقيمت في أغلب الأحيان على شكل شبه هَرَمي، أقيمت وسط الموقع الذي عثر فيه على الآثار. ولاشك أن الحيرة تعتري المرء عند محاولته فهم المدلول أو القصد من هذه الركامات الحجرية، ولكن يغلب على الظن أن إنسان ذلك العهد قد بلغ إلى مرحلة ثقافية مهمة تتمثل في الدين أي في تقديس

(3) G.Clark : *Préhistoire de l'humanité*. P. 63

القوى التي ظن أنها تهيمن على الأشياء والكائنات، فأقام لها هذه البيوت يترضاها عسى أن تبتعد عنه أو تعفُوَ عنه أو تساعده.

الحجري القديم الأعلى

وبالحجري القديم الأعلى تؤكّد الخطى السابقة وتتسع، لأن هذا العصر هو عصر الدقّة في الصنع، عصر الميكروليث الذي انتشر على طول أرض المغارب من ليبْيا إلى الساحل المحيطي. وامتاز هذا العصر بصفة أخص باشتماله على حضارتين متباينتين لعنصرين إنسانيين مختلفين، هما الحضارة الإيبْروموروسية (الإيبيرية المورية) أو (المويلية Mouilah) (الوهرانية) وصاحبها هو إنسان «مشتى العربي» ويعتبره العلماء من أصل غربي، والحضارة القفصية Capsienne وصاحبها يقال إنه من أصل يرجع لشرق البحر الأبيض المتوسط. والأولى سُمّيت إيبْروموروسية لأنها وجدت مشتركة بين السواحل الوهرانية وشمال المغرب الأقصى وإيبيريا. أما الحضارة القفصية فتقسم إلى سفلى وعليا وتمتاز بظهور ركامات القواقع الحلزونية الممتزجة بالرماد مما يدل على أن الإنسان إذ ذاك عرف الطبخ زيادة على الأدوات الحجرية. وقد انتشرت أول الأمر بكل القطر التونسي وبشرق الجزائر. ويرى بعض العلماء أن الإنسان الذي قام بها كان قصير القامة، حادّ الطبع ميّالاً إلى الحرب، على عكس إنسان الحضارة الإيبيرية المروسية الذي يظهر أنه كان أطول من الأول وكان مسالما أو ثقيل الحركة، ولذلك أخضعه أو طرده الأول عن السهول والسواحل إلى الجبال الداخلية.

ولا يمتاز العصر بهذا فحسب، بل يمتاز أيضا بالنقوش التي تركها لنا معبّراً فيها عن أفكاره كما في الموقع المعروف بالمقطع في جنوب تونس. كما أنه حاول محاولاته الأولى في النحت على الحجر الجيري فترك لنا أشكالا معيّنة تمثل أقنعة إنسانية أو حيوانية لاشك أنها ترمز لأشياء يغيب عنا الآن مدلولها ولكننا نتصور أنه كان يتقنّع بها لتقيه الشرّ أو لتخْفيه عن القوى الخارقة للعادة التي كان يخافها أو يتعبد لها. فإن صح هذا ففكرة الدين قد زادت وضوحاً عما كانت عليه من قبل.

الحجري الجديد

ولعل أعظم العصور أثرا وأكثر إيضاحا للخطوات التي سلكها الإنسان القديم، هو العصر الحجري الجديد (النِّيوليثي Néolithique). في هذا العصر تطور الإنسان تطوراً حاسماً في ثقافته وصناعته وحياته الاجتماعية. وأول ما يبادهنا هو أن الإنسان أدخل على صناعته الحجرية تحسينا عظيما بالصقل، ولذلك سُمّي هذا العصر بعصر الحجارة المصقولة Pierre polie تمييزاً له عن العصور السابقة التي عرفت بعصور الحجارة المقطوعة Pierre taillée. فبالصقل صارت الحجارة المستعملة ملساء السطح حادّة الجوانب تساعد على القطع بسهولة.

وتطوّر الإنسان اقتصادياً كذلك، فقد كان من قبل يجمع طعامه من الأرض أو يقطفه من الأشجار ويصيده من الماء واليابسة، فصار اليوم يؤنس الماشية ويدجّن الطيور أي يربيها ويستولدها كما أقبل على

الأرض يحرثها ويزرع فيها البذور، وبهذا تظهر فكرة الملكية في هذا العصر، الملكية العقارية بما تشتمل عليه من تملّك للأرض وما يتبعها من حيوانات وأدوات للعمل كالمحراث والمنجل (وإن كان بعض العلماء ينكرون هذا الرأي ويقول بفكرة العمل الجماعي في الأرض المشاعة)، كما ظهر النسيج والخزف. وهذا التطور الاقتصادي صاحبه تطوّر اجتماعي وسياسي عميق لأن الإنسان الذي أصبح ينتج طعامه صار مستقراً فأنشأ القرى التي لا نعرف عنها شيئا بالطبع، ولكننا – طبقا لمقتضيات الأحوال – نفرض أنها عرفت أول نظام سياسي بدائي على نحو ما، ولكنه على كل حال أساس لهذه الأنظمة المختلفة المتعددة التي عرفها الإنسان فيما بعد.

وقد قيل إن ظهور هذا العصر بالمغرب كان متأخراً عن ظهوره بالمشرق بنحو ألف سنة، وسبب ذلك على ما يظهر الظروف المناخية التي استمرت بالمغرب أطول مما حدث بالمشرق. فبينما كان الإنسان بالمشرق ينشئ القرى ويبني، ويدجّن الطيور ويؤنس الماشية ويتحكم في القوى المائية فيسقي غروسه، كان الإنسان هنا أمْيَل للرعي وللترحّل، وعلى كل فإن هذا العصر بدأ بالمشرق في أوائل الألف 6 ق.م، ولم يبدأ بالمغرب إلا في أواسط الألف 5، وكذلك فإن نهايته حدثت بالمشرق في منتصف الألف 4 ولم تحدث بالمغرب إلا في الأعصر التاريخية القريبة نسبياً أي حوالي 1200ق.م، والأهم من كل هذا هو أن حضارة العهد النّيوليثي بالمغرب جزء لا يتجزأ من مجموع الثقافة التي عرفها الإنسان على ضفاف البحر الأبيض المتوسط. وفي هذا يقول الأستاذ الإسباني طرْديل متحدثا عن مخلفات هذا العصر : «... فكل

هذه المخلّفات من المواد التي استُعملت كالخزف وغيره تساعدنا على اعتبار الجماعة المغربية إحدى هذه الجماعات الأخرى التي ظهرت حول البحر الأبيض المتوسط... إذ يوجد تشابه وتماثل مع ما نعرفه على طول الخط الساحلي الإسباني (في الأندلس، ومُرْسية، ومقاطعة بَلَنسية، وقَطَلونيا، وكذلك في قسم كبير من إيطاليا أي من ليغوريا شمالاً حتى جزيرة صقلّية جنوباً، كما يظهر هذا التشابه في جنوب فرنسا (في لانْگدوكْ وبْروفَنْصا)». هذا رأي، وهناك رأي آخر، وهو أن حضارة ذلك العهد في أرض المغارب تتصل بصفة واضحة بالمكونات الحضارية التي عرفتها الصحراء الكبرى الممتدة من المحيط إلى البحر الأحمر، وعلى هذا فهي متصلة حتما بحضارة منطقة البحيرات أي شرق وجنوب شرق إفريقيا التي تعتبر الآن المهد الأولي للإنسان، ولكن الجفاف الذي طرأ على الصحراء الكبرى في أواخر الحجري القديم الأعلى وأوائل الحديث أزعج الإنسان عن مساكنه هناك فاتّجه نحو الشمال باحثاً عن أراض أصلح وألْيق لحياته، فوصل إلى ليبيا وانتشر فيما يجاورها من أرض المغارب، أو سلك طريقاً ثانية أدت به إلى الشمال الغربي (المغرب) حيث الجبال فاستقر وأنتج هذه الحضارة.

ومع ذلك فهذا الرأي ليس مسلّما كلياً بحيث إذا صحّ وصول عناصر بشرية جديدة تحمل معها أشكال حضارتها، فلا يمكن بحال نفيُ وجود عنصر محلّي. وقد سبق أن رأيناه، كما لا يصح بحال نفي وجود تطوّر طبيعي لهذه الأقوام المحلية الساكنة بأرض المغارب. ولهذا فالأحسن إن يقال أن تفاعلا قد حدث بين العناصر المحلية والعناصر الوافدة.

بدء التاريخ

ونحن لا نستطيع أن نذكر بالضبط متى انتهى ما قبل التاريخ، ومتى كان بدء التاريخ Protohistoire.

وأيا ما كان الأمر، فإن هناك عهداً طويلاً نسبيا يمتد من نهاية النيوليثي (الحجري الجديد) إلى قدوم الموجة الأولى من الساميّين الذين جاءوا من المشرق. هذا العصر هو الذي نُجمله ونطلق عليه تجوّزاً اسم بدء التاريخ أو أوائل التاريخ، ولا شك أنه يشمل أعصراً أخرى تندرج تحته، أو على الأصح أنه يتفرع إلى حِقب لا محلّ لذكرها الآن، خصوصا وأن هذا العهد يداخله غموض كبير.

وأهم ما يلفت النظر في هذا العهد، هو أن المغاربة عرفوا حضارة المعادن، وإن كانت معرفتهم بها قد حدثت على أغلب الظن في أواخر العهد الذي نتحدث عنه. وهناك سؤال : هل المغاربة اهتدوا كغيرهم من الأمم للمعادن، أو إنهم جلبوها أو اقتبسوها من جيرانهم ؟ لقد عثر على رأس حربة من البُرُنْز بالقرب من طنجة في المريس، وعلى آخر مماثل له في سيدي مسعود بناحية الدار البيضاء، وعلى مقدْة بوادي عَكْراش بناحية الرباط، وعلى عدة أدوات نحاسية أخرى بالصحراء قرب أقْجوجة بموريطانية. وكانت هذه الكشوف مثاراً للخلاف بين من ينكرون أنها من صنع محلي، فهي مستجلبة حسب رأيهم، وبين من يرون العكس. وقد ساعد على هذا الخلاف أن الأدوات المكتشفة ضئيلة العدد، وأن ما اكتشف منها قرب طنجة والدار البيضاء شبيه بالأدوات الإيبيرية[4].

(4) انظر: *L'âge du bronze au Maroc*، بقلم A. Jodin، في الجزء الخامس من النشرة الأثرية المغربية، ص 11 وما يليها، لسنة 1964.

ويظهر الشبه مع الأدوات الإسبانية أو الاقتباس عنها، خصوصا في رسوم الأسلحة المنقوشة على صخور جبال الأطلس الكبير، قرب مراكش في الياگور Yagour، وأوكميّدن Oukaïmeden وتيزي نْتيْرليست Tizi Nterlist[5].

أما الأستاذ جودان فمن رأيه أن المغرب لم يكتف بالاقتباس، بل كانت له مشاركة فعّالة. يقول : «لقد صار اليوم من المتأكد أن المغرب لم تتجاهله حضارات عصر البرنز، بل الأكثر من ذلك أنه ساهم فيها بنشاط»[6].

على أن قيمة هذه النقوش التي عثر عليها في علوّ 2700 متر، لا تنحصر فيما تقدمه لنا من رسوم للأسلحة المعدنية، بل تتعدى ذلك إلى رسوم الإنسان والحيوانات والأبقار منها على الخصوص. الأمر الذي يشير إلى أن طوائف من المربّين للأبقار ومن الرعاة، قد أقاموا طويلا على هذه المرتفعات في جبال الأطلس الكبير حيث الماء والكلأ يساعدان كثيرا على تربية المواشي. ولعل هؤلاء المربّين للأبقار ورعاتها قد اقتحموا هذه الجبال آتين من الصحراء بعد ما تم جفافها في أواسط الألف الثالث ق.م.

---

(5) انظر : *Corpus des gravures rupestres du grand Atlas* بقلم J. Malhomme في جزأين، وانظر التعليق عليهما بقلم A. Jodin في عدد 5 من النشرة الأثرية المغربية وعدد 6 ص 29 لسنة 1966.

(6) *Les gisemments de cuivre au Maroc et l'archéologie des métaux*، بقلم A. Jodin في النشرة الأثرية المغربية ج 6، ص 11 وما بعدها سنة 1966.

ومما يلفت النظر بهذه النقوش، إنها توحي بأن ملابس الإنسان بهذه المواطن قد كانت من جلد، وتتدلى منها سُيور جلدية لاشك[7].

وفي حقب متأخرة من هذا العهد كان المغرب على اتصال بالصحراء وبإفريقيا السوداء على ما يظهر من رسوم العربات الكثيرة المنقوشة على الصخور من زناگة قرب فيگيگْ إلى إيشْت وفم الحصن قرب نهر درعة، ثم تنزل هذه النقوش بعدة أماكن في موريطانية الحالية على طول الطريق المؤدية إلى أمَزْماز شمالي نهر السينغال، ومن هناك تنزل مائلة إلى الجنوب الشرقي حتى طونْديا قريباً من غانة حيث سوق الذهب. وهذه العربات عريقة في القدم، رسومها عديمة القيمة من الناحية الفنية، وإنما قيمتها فيما تشير إليه من وجود علاقات عريقة في القدم بين المغرب والصحراء وإفريقيا السوداء، وهذا وحده كافٍ ليجعلها ذات قيمة كبيرة. ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه العربات لم ترسم أبداً مربوطة إلى الحيوانات التي لابد أنها كانت تجرها. (فنستطيع إذن أن نفرض أن عربات أوائل التاريخ في هذه الناحية كانت تجرها الثيران أو الغزلان الكبيرة المتأنسة...[8])

(7) يشير هيرودوث إلى أن بعض أهل شمال إفريقيا كانوا يلبسون ملابس من جلد تتدلى منها سيور جلد. انظر تاريخ هيرودوث ج 4 الفقرة 189.

(8) انظر عن هذه العربات : *Au Sahara occidental, Une route de chars à bœufs* بقلم O. Du Puigaudeau في العدد 9 من مجلة Archéologie مارس–أبريل 1966.

السكان الأولون

لا نعلم شيئا دقيقا عن طوائف السكان الأولين بشمال إفريقيا في هذا العهد الممتد – كما ذكرنا سابقا – من نهاية النيوليثي إلى قدوم الساميّين الأولين. ولكن نظراً لوقوع شمال إفريقيا في قلب العالم القديم، فإن هذه الأرض لاشك قد تلقت أمواج المهاجرين الذين وفدوا عليها من آفاق مختلفة.

ولا عبرة بالرأي الذي يجعل هذه الأرض منعزلة عن العالم بالبحار والصحراء. فقد رأينا من قبل طريق العربات التي تصل المغرب بإفريقيا السوداء. ونشير الآن إلى أن هناك طرقاً أخرى أسهل وأوصل من هذه، وهي طريق الساحل المحيطي التي تنزل من طنجة، ويمكن أن تعبر نهر السينغال لتتوغل فيما خَلْفه من الأرض. وهناك طريق ثالثة تخترق موسطة الصحراء، وكانت تنزل من أوتيكا الفينيقية أو من أويا Oea (طرابلس)، إلى الهگّار، ثم إلى أدْرار إفوراس لتصل إلى گاوْ Gao على نهر النّيجِر. وعلى طول هذه الطريق الثالثة نقشت أيضا رسوم العربات التي تشير إلى أن الإنسان مر بها على عربات تجرها الخيول منذ أواخر الألف الثاني (1200ق.م)[9]. ولا شك أن العربات إنما مرت بطريق معروفة ومسلوكة قبل هذا العهد بكثير. ولاشك أيضا أن هذه الطرق هي التي سلكها من قبل (بألف سنة على التقريب) أصحاب المواشي ورعاة الأبقار في طريقهم إلى الشمال عندما جفّت الصحراء، متجهين إلى

---

(9) انظر: *La route des chars de guerre libyens*, Tripoli-Gao بقلم H. Lhote في Archeologia ص 28 وما بعدها، العدد 9 سنة 1966.

المرتفعات، ومنها جبال الأطلس كما أشرنا من قبل. وبهذا يكونون إحدى الموجات البشرية العتيقة التي وفدت على شمال إفريقيا في هذا العهد الموغل في القدم.

أما من ناحية الشرق فإن شمال إفريقيا يتصل براً بآسيا عن طريق مصر وسيناء. فالأغلب على الظن أن موجة بشرية أولى متمثلة في أصحاب الحضارة القفصية قد وصلت إلى شمال إفريقيا قادمة من الشرق، ومن فلسطين أو سورية على أرجح الرأي نظراً للتشابه الموجود بين صناعات هذه الأقوام هنا وهناك. على أن ڤوفري R. Vaufrey. قد احتار بين أن يرجعها لأصل شرقي، وبين أن يرجعها لأصل أوربي وصل عبر مضيق جبل طارق. قال[10] : «وإذا أنفنا من قبول هذا الرأي ذأي نظرية الأصل الأوربي ذ فليس لنا أن نلتفت إلا إلى سورية، مع عدم وجود أية حجة لدينا، لا أنتربولوجية ولا أثرية». ولكنه يعود بعد ذلك فيشير إلى إمكان وجود فكرة دينية ترتبط بمثلها في مصر ما قبل الأسر[11].. وكذلك تشير أليمِن H. Alimen[12] إلى أن الصناعة القفصية (لها مشابهات مع الصناعة المصرية) وكذلك فإن نفس هذه الصلات الحضارية يؤكد الدكتور الناضور[13] وجودها مع مصر وشرق البحر الأبيض المتوسط وفلسطين منه بالخصوص.

فإذا سلّمنا بأن وسائل الحضارة ومنتجاتها الصناعية لم تكن في تلك العهود الغابرة تنتقل بمفردها كما هي الحال اليوم، بل ينقلها

---

(10) *Préhistoire de l'Afrique* ج 1 ص 410-411 بقلم R. Vaufrey.

(11) نفس المصدر ص 414.

(12) الجزء الثاني الخاص بإفريقيا في *Préhistoire de l'Afrique* ص 80 بقلم H. Alimen.

(13) المغرب الكبير ج 1 ص 112-111 بقلم الدكتور رشيد الناضوري.

أصحابها معهم حينما ينتقلون من مسكن إلى مسكن، أمكننا التسليم بأن طوائف بشرية قد هاجرت من الشرق – من أماكن مختلفة به – إلى شمال إفريقيا في عهود موغلة في القدم، وأنها هي التي حملت معها صناعاتها وثقافتها العتيقة إلى هذه الأرض. ولعلنا نجد مصداقا لهذه الهجرة من الشرق فيما يرويه پيتار E.Pittard عن 25 جمجمة جلبها بوفّارْ Buffard من مدافن عتيقة بعدن، وقاسها ودرسها كل من بيرْثُلْون Berthelon وشنتر Chantre، فقال[14] : «بعدما لاحظ هذان العالمان المشابهات، (الخلقية الموجودة)، بين جماجم عَدَن والجماجم الإفريقية... تساءلا إلى أيٍّ من المجموعتين الجغرافيتين يرجعان لِيَفْهما أيّهما طبعت الأخرى بمميزاتها السلالية ؟ فهل العربي العَدَنِي هاجر إلى إفريقيا، أو هي هجرات إفريقية امتدت حتى وصلت إلى بلاد العرب ؟

وإذا أمكن ان تفد على شمال إفريقيا أفواج بشرية من بابيه الجنوبي والشرقي كما رأينا، فلاشك أن أفواجاً أخرى قد وفدت عليه من بابه الشمالي، أي من ساحل هذا البحر الأبيض المتوسط الذي ينفتح على جزر الأرخبيل الإيجي وعلى الهضبتين الإغريقية والإيطالية في مواجهة ليبيا وتونس كما ينفتح على الهضبة الإيبيرية في مواجهة المغرب، خصوصاً وأن شمال إفريقيا لا تزال إلى اليوم تسكنه طوائف متعددة ومتأصلة من الشقر ذوي الشعر الأشقر والعيون الزرق. الأمر الذي دعا بعضاً من علماء الأَنْثُرپولوجيا الطبيعية إلى بحث هذا الموضوع علميا ومنهم بِرْثُلون Berthelon الذي درس هياكل عظمية

(14) انظر: ص 438 من *Les races et l'Histoire* من سلسلة *l'Evolution de l'humanité* بقلم E.Pittard نشر Albin Michel. باريس 1932.

استخرجها من مقابر سوسة وصفاقس، واستنتج أن هذه المنطقة كان يسكنها قبائل تنتمي إلى الجنس الكبير الأوربي الشمالي[15]. ونفس الاستنتاج وصل إليه پيتار Pittard الذي أضاف أن ذريتهم لا تزال إلى اليوم كثيرة العدد خصوصا في منطقة قُسنطينة[16]. وعلى هذا المعنى يكون أهل الريف من الشقر فرعاً ثالثاً من هؤلاء.

البربر

إذا تقدمنا في الزمان وجدنا البربر (الأمازغة) أقدم شعب يقيم بهذه الأرض ويلقى الزاحفين على شمال إفريقيا من عهد الفينيقيين الأولين إلى العرب. وقد اختلف الباحثون في أصولهم، فجعلهم المؤرخون العرب كنعانيين. فابن خلدون يعتبرهم «من ولَد كنعان بن حام بن نوح»، فهم إذن من أهل السواحل الشامية على رأيه. كما أن المؤرخ البيزنطي پْروكوبْ Procope يعتبرهم من فلسطين. فرأيه إذن قريب من رأي ابن خلدون. وكلا الرأيين يجعلهم من الوافدين على المغرب. وهذا ما يؤكده بوسْكي G-H.Bousquet في كتابه «البربر»، إذ يقول[17] : «... فبأيّة حال من الأحوال، لم يكن البربر هم السكان الأولين بالمناطق التي كانوا يسكنونها حينما برز شمال إفريقيا إلى التاريخ». ثم يتابع بوسكي بعد هذا فيقول : «... وقد وقع الظن بأن

---

(15) Berthelon : *La race nordique européenne en Afrique du Nord*

وانظر أيضا Berthelon : *Recherches antropologiques sur la Berbérie orientale*.

وانظر : Chantre : *Bulletin de la Société de géographie d'Alger*, 4° Trim., 1913.

(16) *Les races et l'historie* ص 439 بقلم E. Pittard.

(17) انظر : *Les Berbères* بقلم G. H. Bousquet ص 22 من سلسلة *Que sais-je ?* رقم 718.

فاتحين من البربر – لعلهم أتوا من الشرق – قد فرضوا بعد ذلك وعلى ما يحتمل لغتهم وحضارتهم على قبائل متأخرة. فماذا يمكننا الآن أن نقوله تدعيما للأصل الشرقي، العربي على ما يحتمل، لهؤلاء الفاتحين لشمال إفريقيا ؟ [18]» إن الشبه موجود ولا شك فيه بين الحرف الليبي وحرف الصحراء العربية. كما اكتشفت كتابات لاشك في أنها بربرية بصحراء سيناء، وفي دَلْتا نهر النيل، الأمر الذي يؤكد أن هذه هي الطريق التي مر بها هؤلاء الأسيويون في طريقهم إلى شمال إفريقيا. ونضيف أن البربر عرفوا في الوثائق المصرية المنقوشة أو المكتوبة بأسماء منها «تاحومو»، فهل يكونون من تهامة اليمن التي سمّاها العبرانيون تهوم أو تحوم ؟...[19].

إن البربر لا يعرفون أنفسهم بهذا الاسم، وهم يسمّون أنفسهم إيمازيغَن أي السادة، والمقبول عقلاً أنهم لم يطلقوا على أنفسهم هذه التسمية إلا بعد وصولهم لهذه الأرض وتغلبهم على من وجدوهم بها من (قبائل متأخرة). وبذلك أحرزوا السيادة على الأرض وسكانها.

ولكن من هم الأمازغة الأصلاء في هذه الطوائف الباقية إلى اليوم ممن نسميهم بربراً بشمال إفريقيا ؟ أما من ناحية التكوين الخلقي فالمتأكد هو أن البربر اليوم أجناس وشعوب لا يشبه بعضها بعضاً في الخلقة، ومعنى ذلك أن الوحدة الجنسية السلالية منعدمة انعداماً كلياً بين مجموعة الطوائف التي تحمل اليوم هذه التسمية، بل إن انعدام هذه

---

(18) نفس المصدر ص 25.

(19) العرب قبل الإسلام. ج 1، ص 133، بقلم الدكتور جواد علي.

الوحدة السلالية ثابت حتى في الجماجم وفي الهياكل العظمية التي استخرجها العلماء بعناية من مدافنها العتيقة، ودرسوها دراسة أنتربولوجية، وقالوا[20] : «... ليس هناك من جنس بربري. وإن مدلول «جنس بربري» لا يتناسب مع أي واقع سلالي».

تصنيف طوائف البربر

اتصل البربر خلال التاريخ بكثير من الأمم والشعوب القديمة وكان من بين هذه الشعوب كتّاب سجلوا بعض الحديث عن شمال إفريقيا وأهل هذه الأرض حسب ما شاهدوا أو حسب ما بلغهم. ومن هؤلاء الإغريق الذين سمّوا شمال إفريقيا ليبيا كما سموا السكان بالليبيين. وفي مقدمة هؤلاء طبعاً يأتي هيرودوت الذي يطلق هذا الاسم على جميع سكان الجهات الشمالية من حدود مصر إلى ساحل المحيط[21]. وكذلك الأمر مع هيكاتي الميليتي H. de Milet وهو من أهل القرن 5 ق.م، يذكر ثْرينْكي Thrinké بأنها مدينة قرب أعمدة هرقل، ثم يذكر تِنْجي Thingé، ومِليسّا Mélissa بأنهما مدينتان ليبيتان[22] ومثلهما سيلاكْس Scylax من أهل القرن 4 ق.م، يذكر في رحلته أن أعمدة هرقل في ليبيا[23]. بينما الشاعر الإغريقي بَنْدار Pindare هو من أهل القرن 5 ق.م، ويظهر أنه زار مدينة قورينة Cyrène، يطلق لفظ ليبيا على قسم خاص من ليبيا

(20) Berthelon- la race nordique européenne en Afrique du nord, B.S.G. d'Alger. 4° trim. 1913.

أيضا ... ص 11 من les Berberes بقلم Bousquet. رقم 718 من سلسلة Que sais-je ?.

أيضا ص 110 وما بعدها من Berberes et Arabes بقلم Bremond نشر Payot.

(21) هيردوت، الكتاب الرابع، فصل 168-170-181-191-193.

(22) ص 16 من le Maroc chez les auteurs anciens بقلم R. Roger.

(23) نفس المصدر، ص 18، الفقرة 111 من رحلة سيلاكس.

الحالية هو سرنيكا، كما يذكر أهلها بأنهم ليبيون[24] وقريب من هذا ما ذكــره پوليبُ Polybe[25]، وديودور الصــقلّي Diodore de Sicile[26]، اللذان جعلا الليبيين هم الأهالي الذين يعيشون في المنطقة القرطاجية. ونعود إلى هيرودوت في وصفه لشمال إفريقيا (ليبيا) فنجده لا يقف عند اسم الأرض وسكانها، بل يذكر أسماء كثير من القبائل التي كانت على عهده من حدود مصر إلى بُحيرة تْريتون التي يغلب على الظن أنها هي شط الجريد. ويتحدث عن أحوالها ومساكنها وعن الكثير من عاداتها. ويبدأ أولاً بذكر القبائل التي كانت مساكنها بساحل البحر أو قريباً منه، ثم يعود فيذكر سكان الداخل من الرحّل وأهل الجبال. ويذكر من هذه القبائل قبيلة مَكْسوس Maxus التي يظهر أن اسمها محرف عن «مازيغ». ومن غريب ما يذكره عن هذه القبيلة أن أهلها كانوا يعدّون أنفسهم من الإغريق، قدموا من مدينة طَروادة Troie، المدينة المشهورة في التاريخ والأساطير[27]. وكلمة «مازيغ» قد حُرفت قديما على عدة صِيغ، منها مازاك Mazaces[28]، مازيك Mazices[29]، مازو Mazues[30]، وغير ذلك.

أما الرومانيون فقد قسموا البربر إلى أربع طوائف هي على العموم الأفري Afri وهم سكان ولاية أفريكا الرومانية الأولى، وهي منطقة

(24) Pythique النشيد التاسع، 105 و 107.
(25)بوليب. الكتاب 1، فصل 65 فقرة 3 – فصل 74، فقرة 7 – الكتاب 3، فصل 33، فقرة 15.
(26) ديودور الصقلي، كتاب 20، فصل 55.
(27) هيرودوت الكتاب الرابع من فصل 168 إلى فصل 205.
(28) Néron بقلم Suétone فصل 30.
(29) Ptolémée الكتاب الرابع فصل 1 فقرة 5.
(30) St. De Byzance, S.V.Mazues.

النفوذ القرطاجي بتونس خصوصا، يتلوهم من الجنوب والغرب النوميديون Numides، وأرضهم هي نوميديا، وهؤلاء يتلوهم بدورهم الموريون Maures وأرضهم هي موريطانية. ومن خلف هؤلاء جميعا يأتي الجيتوليون Gétules الرحّل من أهل المناطق الداخلية الصحراوية أو المتصلة بالصحراء. وداخل كل طائفة ذكر الرومانيون أسماء عدد من القبائل التي تكونها، والتي لا داعي الآن لذكرها هنا.

ومع العرب يتغير التقسيم، فقد اعتبروهم في أول الأمر طائفتين كبيرتين هما البتْر والبرانِس. وتجتمع الشعبتان في جد أعلى هو «بر». على أن ابن خلدون يشير إلى أنهما لا تجتمعان مطلقا حسب رأي بعض علماء الأنساب. فبر جد البرانس ينحدر من مازيغ ابن كنعان، بينما بر جد البتر ينحدر من قيس ابن كهلان. ولا يعنينا الآن مناقشة هذا الرأي وإنما نذكره لنشير إلى أن بعض نسّابي العرب تنبهوا بدورهم إلى أن البربر ليسوا أمة واحدة. على أن هناك تصنيفا عربيا ثانياً للبربر وهو تقسيمهم إلى ثلاث طوائف : المصموديين، الصنهاجيين، والزناتيين. ولسنا ندري أصل هذا التقسيم الذي تتفرع فيه كل طائفة إلى ما لا يحصى من القبائل. وقد صار هذا التصنيف الثلاثي هو المشهور اليوم.

فمن المصامدة بالمغرب : غُمارة، وبرغُواطة، ودكّالة، وحاحة، وهَسْكورة، وهَرْغة، ورَجْراجة، وجَزولة، وهَزْميرة.

ومن الصنهاجيين : زناگة، ولمتونة، ومسوفة، وگدالة، ولَمْطة، وتَرْغة.

ومن زناتة : جراوة، ومَغْراوة، وبنو يَفْرن، ومَكْناسة، وبنو مَرين، وبنو وطّاس.

وقد أصبح هذا التصنيف الثلاثي هو المشهور اليوم. وربما كانت اللغة أساسه الأول.

ولكننا نطرح سؤالاً : إذا لم تكن لدى البربر وحدة عنصرية سلالية، فهل هناك وحدة ثقافية وحضارية أساسها اللغة ؟ وما هي هذه اللغة ؟ لقد قيل إن اللغة البربرية متحدّرة من لغة أمٍّ عريقة في القدم، هي الليبية التي كان القوم يتكلمونها منذ نحو ألفين من السنين أو أكثر. ولكن هذا القول يرده باصّي (Basset) بقوله : «... هذه اللغة الأصلية ليس لها أي أثر في لهجات اليوم... فهل يجب أن نفرض – فرضاً عجيباً – أن اللغة البربرية قد تغيرت جداً منذ ألفين من السنين إلى حد أننا لا نجد في اللغة الحالية حتى أصول الكلمات القديمة ؟»[31] والحق أن مشلكة أصل البربرية قد جعلت الباحثين يتجهون اتجاهات مختلفة في بحوثهم. فقد أتعب دُشَرانْسي De Charencey نفسه، وأخيراً جعلها ذات قرابة بلغة البسك Basque التي استعصت هي أيضا – ولا تزال – على الباحثين. وجعلها برثولون إغريقية من الفصيلة التراقية البلسجية Thraco-pélasgique. وجعلها بْرِنْتون Brinton الأمريكي أتْرورية Etrusque، وجعلها رِينْ Rinn طورانية، كما قال غيرهم بأنها سودانية[32]. وكل هذه الأقوال قد رفضت لأنها لم تسندها حجة قاطعة، كما أسندت قولاً آخر كاد الباحثون المتأخرون يجمعون عليه. ومؤدّاه أن[33] «... البربرية في حالتها الراهنة، ذات نسب بمجموعة

(31) ص 10 من Essai sur la littérature des Berbères بقلم H. Basset

(32) نفس المصدر، ص 11.

(33) ص 31 من J. Bourrilly في كتابه Eléments d'éthnographie marocaine.

اللغات التي تدعى حامية أو سامية أولى Protosémitique، والتي نجد آثارها في اللغة المصرية القديمة، وفي القبطية الحالية المتفرعة عنها». فهي بهذا الاعتبار من هذه اللغات التي كان مجالها الصومال والحبشة والزاوية الجنوبية الغربية للبلاد العربية (اليمن). ذلك أن اللغات الحامية، أو السامية الأولى، وكذلك السامية تجمع بينها وحدة بنيوية عميقة وكذلك في النحو وتأليف الجمل. كما أن هناك عدداً كثيراً من الأصول الفعلية المشتركة بينها، خصوصاً في لغة الطوارق التي هي أقل من غيرها تأثراً باللغة العربية. وليس ذلك راجعاً إلى الاقتباس من العربية، لأن كثيراً من أصول الكلمات المشتركة وُجد في النقوش البربرية التي ترجع إلى سنة 200 ق.م، أي إلى نحو ثمانية قرون قبل وصول العرب إلى أرض المغارب[34].

ولكننا نتحدث عن البربرية كما لو كانت لغة واحدة تنطق بها ألسنة القوم في جميع شمال إفريقيا!! والواقع أن الأمر بعكس ذلك. فالمشاهد اليوم – كما كان من قبل – هو أن هناك على الأقل ثلاث مجموعات لغوية كبرى تابعة للتقسيم القَبَلي الثلاثي الذي تحدثنا عنه آنفاً. هذه المجموعات هي المجموعة الصنهاجية، والمجموعة المصمودية، والمجموعة الزناتية. وتتكون كل مجموعة من عدة لهجات صغرى، والكل يجل عن الحصر، وإن كان باصّي (Basset) استطاع أن يحصي ويصنّف ألفاً ومأتين 1200 من هذه اللهجات[35].

(34) بوسكي ص 22-21. وانظر 51 من *Essai sur la littérature berbère* بقلم H. Basset.

(35) A. Basset بقلم *La langue Berbère*

وعلى العموم يتحدث بالصنهاجية قبائلية الجزائر، والأطلس المتوسط بالمغرب، وأهل مَلْوِية العليا، وتافيلالتْ، وموسّطة الأطلس الأعلى، وقسم من التخوم الجزائرية المغربية، وطوارق الصحراء.

كما يتحدث بالمصمودية سكان غرب الأطلس الأعلى، وأهل الأطلس الصغير، وتخومه الصحراوية وجلّ أهل سوس، كما يتكلمها بعض الغُماريين بغرب الريف.

أما الزناتية فيتحدث بها أهل ليبيا وتونس وقسم صغير من أهل الجزائر، وبعض أهل الريف، والأطلس المتوسط الشمالي وجبال بني يزناتن. وبالصحراء يتكلمها أهل مْزاب، ووارگلة، وتوگورت. على أن الأمر ليس من البساطة إلى هذا الحد، بحيث يعسر معه وضع خريطة لغوية للمجموعة الواحدة، ويعسر معه العثور على الخط الكبير الذي يمكن اعتباره أساسا في وحدة اللهجة بَلْه المجموعة اللهجية. وذلك هو ما جعل الناس لا يستطيعون التفاهم فيما بينهم بمجرد ما تبتعد مجموعة بشرية عن مجموعة أخرى.

الكتاب الثاني
بداية التاريخ الإفريقي(*)

1

هل يكون قدوم الفينيقيين لأرض المغارب بداية لتاريخها ؟ وهل حقيقة إن قدومهم كان على دفعتين ظاهرتين في التاريخ ؟

الحق أن معلوماتنا في الموضوع تبتدئ من أوتيكا على قول، ومن ليكسوس على قول آخر. أما ما فوق ذلك فمطوي في ظلمات الأيام لا يعلمه أحد ولا يدعي أحد أنه يعلمه.

وعلى كل فالنصوص شحيحة، وهي فوق ذلك متأخرة في الزمان لا يمكن الاطمئنان الكلي إليها. فهناك منشآت سابقة في الزمان على گَادِس Gadès الأسبانية. وفي هذا المجال فَسْترابون Strabon [36] المولود حوالي سنة 50 ق.م يقول عن الفينيقيين إنهم «توصلوا وراء أعمدة هِرَقْل وأسسوا مدناً في هذه الجهات، وكذلك في موسطة ساحل ليبيا، بزمن قليل بعد حرب طَرْوادة Troie» كما أن ڤِيلْيوس

(*) ملخص عن گسيل بترجمتنا العربية.
(36) سترابون : كـ 1، 3، 2.

باتْرِكلوس Velleus Patreculus وهو من أهل القرن الأول يجعل عودة الهيركليين إلى البيلوبُنيزْ Péloponnèse بعد السيطرة على طَرْوادة بنحو ثمانين سنة أي حول 1110 ق.م. ويقول : «في هذا التاريخ كان أسطول صُور... أنشأ گَادس... وأوتيكا أيضا أسسها الصوريون بعد ذلك ببضع سنين[37]». أما بْلين العالم، (22-79) فيقول : «كان في عهده لا تزال ترى في معبد أپولون بأوتيكا العوارض من خشب أَرْزِ نوميدْيا على الحالة التي وضعت عليها عند تأسيس مدينة أوتيكا قبل ذلك بـ 1178 سنة[38]». وجل الكتاب القدماء يقولون عنها إنها مدينة صورية. وعلى ساحل المحيط بالقرب من ليكسوس كان يوجد معبد لهِرْكول Hercule، وكان هذا أقدم من مثيله بگَادس، الأمر الذي يفضي بنا إلى القول بأن ليكسوس كانت مدينة بالغة في القِدم[39] أما سالوسْت فيذكر مدناً أخرى أنشأها الفينيقيون... على ساحل البحر كهيپّون Hippone وهَدْروميت Hadrumète ولِبْتيس Leptis وغيرها[40]. وأياً ما كان الأمر، فيظهر أن أرض المغارب قد عرفت حركة تمدينية عظيمة على يد هؤلاء الفينيقيين الساميين. وحسب إرَتُسْتين Eratosthène (من أواخر القرن الثالث ق.م)، فإن الساحل المحيطي المغربي قد قامت به ثلاثمائة مستوطنة صورية، وأنها تحطمت بعد ذلك على يد الأهالي. ولكننا نتساءل أين ومتى وكيف قامت ثلاثمائة مستوطنة ؟ وأين آثارها وبقاياها حتى، ولو لم تكن سوى قرى لا مدن، وحتى لو لم تكن سوى محطّات لإقامة مستعجلة.

---

(37) فيليوس باتركلوس كـ 1، 2، 4.

(38) بلين كـ XVI، 216.

(39) بلين العالم كـ XIX، 36.

(40) سالوست : يوغرطة XIX، 1.

وعلى كل فنحن ملزمون بالتسليم بأن الفينيقيين قد عرفوا شواطئ الشمال الإفريقي قبل نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ونسلّم أن المواقع التي كانوا يزورونها أو يقيمون بها كانت عديدة. ونسلم مع ديودور الصقلّي (مؤرخ معاصر لأوغست)[41] أن الفينيقيين قد زادوا من قُوتهم إلى حد أنهم بعثوا بمستوطنين إلى جهات مختلفة ومن بينها ليبيا.

ونسلّم بالجواب على السؤال، وهو أن إفريقيا قد خرجت من الظلمات إلى وضح التاريخ مع هؤلاء الساميين القادمين من المشرق وعلى أيديهم.

وفي أي شيء كان يتم تعاملهم ؟ إن المستوطنات لم تكن في الأصل سوى مستراحات، أو مواقف أو مواقع لعرض السِّلع والمبادلات، ثم تحولت هذه المواقع إلى مستوطنات دائمة مع الزمان. وفي أي شيء كان يتم التبادل التجاري، إننا لا ندري بالضبط، ولكن لا مانع من أن نفهم أو أن نتصور أن المواد التي كان يتم فيها التعامل هي : الماشية والجلود والصوف والعاج وريش النعام والعبيد.

وبخصوص العبيد يُلقى سؤال هام، وهو من أين كان يؤتى لهم بالعبيد ؟ هل كانوا يشترونهم من أهل البلاد أو كانوا يقتنصونهم ؟ وفي هذه الحالة هل كانوا من القوة بحيث يستطيعون أن ينزلوا للبر ويصطادوا العبيد ؟

وبعد، ما هي القيمة الفعلية للمستوطنات ؟ إننا إذا دققنا النظر نجدها ذات قيمة «ستراتيجية» كبيرة، وفي جهات مختارة، بحيث إن

(41) ديودور الصقلي : 5، 35.

أوتيكا قد أقيمت على الساحل البحري الذي يربط حوضَيِ البحر الأبيض المتوسط الشرقي والغربي، ثم تأتي هيبو Hippo (أي بِنْزَرت اليوم) الواقعة مثل أوتيكا على الساحل البحري في موقع على ضفة البحيرة الواسعة أمامها، أما هَدْروميت فكانت ميناء يمكن منه جلب المنتجات لمنطقة أصبح غناها فيما بعد عظيماً، ولِبْتيس قامت بالسدْرتين على مصبّ نهر استخدمته لها ميناء، أما على ساحل المحيط، فإن ليكسوس قد قامت على نهر اللّكوس في منطقة صالحة لتربية الماشية.

وكان من الضروري أن يتعامل الفينيقيون بالحسنى مع الأهالي الذين كانوا يتعاملون معهم في ربحهم وتجارتهم، وكانوا هم الأيدي العاملة في المنشآت الفينيقية. ولذلك استطاع الفينيقيون أن يدخلوا لداخل الأراضي زائرين وباحثين عن أسباب الاستثمار والاستغلال، أو للتجارة فحسب مع أهل الداخل.

2

تأسيس قرطاجة

إن المدينة الفينيقية الوحيدة التي لعبت دوراً تاريخياً عظيماً في شمال إفريقيا، هي كَ أوتيكا وهيبون قامت أيضا على ضفة البحر في خليج ينتهي إليه نهر مجردة ووادي مليان Miliane. وكرطاج هي الصيغة اللاّتينية للاسم الإغريقي Karchdwn واسمها الصحيح في

الفينيقية هو «قرت حداشت» أي القرية الحديثة أي المدينة الجديدة بالنسبة لأوتيكا التي هي القرية أو المدينة «العوتيق» أي العتيقة. وعلى هذا فقرطاجة أنشئت لاشك في موقع غير مجهول للفينيقيين الصوريين، ولكنها على كل حال لم تنشأ في موقع كان به غيرها من قبل. وإذا كانت «قرت حداشت» مدينة جديدة، فإنها جديدة بالنسبة لعوتيقة أي لأوتيكا.

وما هي أصول قرطاجة ؟ وكيف تأسست ؟ الحق أننا نجهل ذلك على وجه الحقيقة، ولكن لدينا قصة يختلط فيها الصواب بالخيال والحقيقة بالأوهام. تقول هذه القصة[42] «كان موتو Mutto مَلِك صور قد نصّب لولاية عهده ابنه پِگْماليون Pygmalion الطفل وابنته أليسّا Elissa العذراء الجميلة. ولكن الشعب مكّن پِگماليون من الملك. وتزوجت أليسّا من عمها أشرِبْاس Acherbas كاهِن هِرْكول، الذي كان نظراً لمقامه في المنزلة الأولى بعد الملك، وكان أشرباس هذا ذا ثروة طائلة، أودعها الأرض خوفاً عليها من الملِك، وفعلاً فقد أراد الملك الاستيلاء على هذه الثروة، فأعدم أشرباس الذي كان في نفس الحين عمّه وصهره. فحقدت أليسّا على الملِك حقداً لم تمحه الأيام، وأخفت حقدها، ونظمت فرارها سراً، بالاشتراك مع بعض الكبراء الذين كانوا يحقدون على الملك مثلها. ثم احتالت فعبّرت لأخيها بأنها تود القدوم إليه والسكنى معه لأن حزنها على زوجها يضايقها، فاستحسن أخوها الملك الفكرة ظنا منه أنها ستأتيه بالثروة التي يتطلع إليها ويتمنى الحصول عليها. وحملت أليسّا

(42) جوستان Justin XVIII، 4، 6.

معها إلى السفن جميع الثروة التي كان يملكها أشرباس، وعِوضاً عن أن تأتي للقصر فإنها انطلقت في عرض البحر هاربة، ومعها أكياس مملوءة بالرمال مشدودة بعناية، كما لو كانت تحتوي على الفضة. وبصوت يملأه الحزن، نادت على أشرباس طالبة من روحه أن تتقبل الهدايا الجنائزية، وهي الثروات التي سببت موته، ثم توجهت إلى الخدّام قائلة لهم إنهم الآن مهددون بأسوإ أنواع العذاب، لأنهم أضاعوا على الملك الثروات التي يودّ الحصول عليها، وكان هذا الإنذار كافيا لجعلهم يصحبونها. ولم تلبث أن جاءها بعض الكبراء الذين أبَوا إلا أن يصحبوها في فرارها، وذهبوا جميعا يبحثون عن مستقر جديد لهم. فأرسوا في جزيرة قبرص. وهنا جاء كاهِن يونون Junon مع زوجته وأبنائه ليصحب أليسّا، واشترط أن منصب الكهانة يخلد دائما في ذريته. وكان من عادة القُبْرصيين أن يبعثوا في مواعيد معلومة ببناتهم العذارى إلى ساحل البحر لعرض بكارتهن على ڤِينوس بقصد جمع بعض الأموال لزواجهن. فألقت أليسّا القبض على ثمانين منهن وساقتهن قسراً معها في هجرتها ليكنّ زوجات للشبان الذين يصحبونها. وقد أراد پِگْماليون أن يتبعها مطاردا لها في البحر، ولكن الكهّان خوفوه من ذلك فأقلع عن المطاردة».

«وحطت أليسّا رحالها في خليج بالأرض الإفريقية، فاحتفى بها الأهالي الذين شرعوا يتاجرون مع الواصلين. واشترت من الأرض مقدار جلد ثور ليستريح بها القادمون، ثم أخذت تقطع جلد الثور إلى قطع دقيقة تنسقها على الأرض، فاتسع بذلك جلد الثور وشمل قطعة واسعة من الأرض آوتْها هي والقادمين معها. ثم اكترت الأرض التي أقامت بها مدينتَها قرطاجة».

«وهنا يظهر هيَرْباس Hiarbas ملك المكْستانيين Maxitani أصحاب الأرض، الذي ودّ التزوج بأليسّا، ولكنها طلبت مهلة ثلاثة أشهر تودع فيها ذكرى زوجها أشرباس... وأقامت ناراً مهولة والناس ينظرون ثم نادت إني ذاهبة للقاء الزوج ثم ارتمت في النار».

هذه قصة طويلة اختصرتُها، وفيها كثير من الخيال أو من التزيد الذي لحقها مع الأيام، ولكنها مع ذلك تفصح عن بعض الحقائق التي لم يستطع الخيال أو التزيد أن يطمسها.

فما هي هذه الحقائق ؟ إنها تتضح في أهمية عبادة هِرْكول أي ملْقارت الذي كان أشرباس كاهناً له. وفي وجود البغاء المقدّس في جزيرة قُبْرص، وفي تأكيد قدَم أوتيكا التي جاء منها بعض أهلها للترحيب بأليسّا ومن معها، وفي وجود بعض الأرستقراطيين الفينيقيين في قرطاجة من هذا العهد المبكر، وفي الكراء الذي كانت قرطاجة تؤديه لأصحاب الأرض التي أقيمت عليها المدينة. وأياً ما كان الأمر، فإن ميناندر الأفْسوسي Ménandre d'Ephèse، هو الوحيد من بين المؤرخين القدماء الذي جاءنا بحديث منسق ومقبول عقلاً، لأنه ذكر ملوك صور لمدة قرن ونصف، وأعطى عنهم معلومات كرنولوجية دقيقة وذكر بعض الأحداث عن عهود ملوكهم، وقال على الخصوص إن : «بِگْماليون عاش ستاً وخمسين سنة، وملَك مدة سبع وأربعين عاماً، وفي السنة السابعة من ملكه، فإن أخته قد فرت إلى ليبيا، وأسست مدينة قرطاجة[43]».

(43) contre Apion, I, 18 (116), conf.Antiq, jud, VIII, 5,3 (144).

(44) Antiq, Rom, 1, P.74.

وعلى كل فيجب أن نسلّم بأن قرطاجة كانت مستوطنة صورية، وأنها تأسست حسب قول دونيسْ الهَليكَرْناسي Denys[44] d'Halicarnasse بثمان وثلاثين سنة قبل الأولمبياد الأولى، وهذا التاريخ يتطابق مع 814 ق.م. وهناك أقوال بأن سنة التأسيس هي 813 ولكن الخلاف حول سنة واحدة أمر غير ذي بال. والمهم أنها تأسست في آخر القرن التاسع قبل الميلاد، وهذا يكفينا.

3

قرطاجة في مركز القيادة

لا شيء يؤكد أن الفينيقيين قد أنشأوا لأنفسهم مستوطنات على السواحل الإيطالية والگالية. وكل ما يمكن أن يقال هو أنهم ربما يكونون قد أسسوا بعض المتاجر التي نجهل أسماءها ومواقعها. أما في أسبانيا فيقول ديودور الصقلّي[45] : «بلاد الإيبيريين تشتمل على الأكثر عددا وعلى أجمل مناجم الفضة التي نعرفها... والأهالي يجهلون استعمالها، ولكن الفينيقيين الذين أتوا للتجارة اشتروا هذه الفضة مقابل عدد ضئيل من البضائع... وبهذه التجارة ازدادت قوتهم واستطاعوا أن يبعثوا بمستوطنات عديدة، إما في صقلية والجزر المجاورة لها، وإما في ليبيا وسَرْدانية وفي إيبيريا».

(45) Diodore de Sicile : V, 35.

وأكبر مستوطناتهم في إيبيريا هي قادس (گدير Gadir) التي أقيمت على جزيرة قريبة من مصب الوادي الكبير. والمؤكد هو أن قادس هذه كانت مستوطنة أو مستعمرة لمدينة صور. ونحن نجهل ظروف إقامتها، ولكن كل الدلائل تتفق على أن هذا الإنشاء قد تم في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وكانت قادِس تحتل موقعاً أهّلها لأن تصبح ذات أهمية بالقرب من البحر المحيط وعلى مقربة من المضيق، الأمر الذي أهلها لأن تكون مع مقابلتها ليكْسوس الحارستين للمضيق وللمرور به ولتجاراته.

وزيادة على هذا فإن صِقلّية جذبت اهتمام الفينيقيين، فأنشأوا فيها المستوطنات التي عرفت في عهدهم ازدهاراً. وهي موتْية Motyé وبانِرْموس Panermos وسولويِس Soloeis، كما استقروا في مالْطة وجزيرة گوزو Gozzo، وفي بِنْتِلارية Pentelleria. وكلها جزر منتشرة بين صقلية وإفريقيا، كما أنهم استقروا في جنوب جزيرة سردانية Sardaigne وفي البالِيار وعلى الخصوص منها بجزيرة يابِسة Ibiça.

ولسنا ندري هل كانت قرطاجة أثناء هذه المدة كلها من الزمن تابعة وخاضعة بالفعل لصور، أو إنما كانت تَبَعيتها لها روحية ومعنوية. بحيث إننا نعلم أن قرطاجة كانت تبعث بالولاء للربّ ملْقارت وفي كل سنة كانت ترسل بالهدايا، بل تبعث بالأتاوة للرب ملقارت. ولكن هل كانت هذه التبعية للرب تعتبر تبعية سياسية لصور، أم كانت قرطاجة نِدّاً لصور بالديار الغربية ؟ لا ندري على وجه التحقيق.

والذي ندريه هو أن صوراً لما انحطّت منزلتها السياسية بالمشرق وصارت تابعة للآشوريين وللفُرس بعد ذلك، انقطعت عن صور وتزعمت

قرطاجة العالم الصُّوري والصّيْدَوي، وظهرت كقوة في الغرب تناوئ الإغريق الذين أخذوا على أنفسهم مناوأتها في التوسع والتجارة في البحر الأبيض المتوسط الغربي. وتزعمت قانونيا أو فعلياً المدن الفينيقية الأخرى المنضودة على سواحل هذا البحر.

فكيف تكونت لها عظمتها هذه ؟ إننا مع جهلنا للأحداث والوقائع نستطيع إدراك الأسباب وتفهمها. ولعل أهم الأسباب هي أن الوحدة الفينيقية كانت لا تزال حية في النفوس، فكانت المستوطنات الموكولة إلى نفسها بحاجة إلى قائد وإلى قيادة تتسلم أزمة الأمور. وكان بعد هذا أو قبله للموقع الجغرافي لقرطاجة اليد الطولى فيما اكتسبته من زعامة لوقوعها كالقفل على حوضَيِ البحر الأبيض المتوسط، وللمواجهة مع الهضبة الإيطالية التي كان جنوبها يدعى باسم بلاد الإغريق الكبرى، بل ولمواجهتها للسواحل الأوربية حيث الإغريق يتربصون، ثم إن إنشاء قرطاجة كان فيما مضى قد تم على يد تلك المجموعة من الأرستقراطيين الذين اتبعوا إليسّا ومن لَحِق بهم من الفينيقيين من بعد، الأمر الذي جعل قرطاجة في المنصب الثاني بعد مدن فينيقيا نفسها. وإن دُرّية هؤلاء القادمين والداخلين من بعدهم، هم الذين أخذوا على عاتقهم البلوغ بقرطاجة إلى منصب الزعامة على مدن الغرب ومستوطناته كلها.

ومن بين بناة العظمة القرطاجية نذكر اسم مَلْكوس Malchus الذي قاد الحروب في صقلّية وسَرْدانية وإفريقيا ثم قام بانقلاب أنهى به عهد من سبقوه في الحكم فتولى هو شؤون البلاد. ثم أسرة آل ماگون Magon التي تداولت الحكم لمدة ثلاثة أجيال في أطوار من التجارة والسياسة والحروب التي كانت تستعمل المرتزقة.

وعلى كل حال نجد القرطاجيين يملكون جميع المراكز التي على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين قرطاجة وأعمدة هرِقْل، حيث ركزوا هيمنتهم منذ القرن الخامس. وإذا كان الإغريق بعيدين عن هذه الجهات، فلاشك أن قرطاجة التي خاضت هنا حروبا ضارية حول سنة 475 و450 ق.م، قد كانت مضطرة لحماية مواقعها ضد الأهالي هذه المرة أي لحماية طريق أسبانيا الجنوبية وطريق أعمدة هرقل، بحيث تكون هنا مطلقة الأيدي. ولذلك أمرت الأخوين حَملكون بالرحلة وراء الأعمدة شمالا، وحنّون وراءها جنوباً سيرا مع الساحل المحيطي المغربي ليؤسس مراكز الدعم للوجود القرطاجي بهذه الجهات.

لقد كان من نتائج رحلة حنّون أنه أسس ستّ مستوطنات على الساحل المغربي للمحيط، كما أسس أخرى على مصب الساقية الحمراء.

ومن المحتمل أن الفينيقيين الذين أسسوا ليكْسوس على الساحل المحيطي المغربي في أواخر القرن الثاني عشر ق.م، يكونون قد غامروا بعيدا إلى الجنوب، ويحتمل أنهم أنشأوا هناك مراكز ومواقع، غير أن هذا ضرب من ضروب الافتراضات التي يمكن قبولها أو رفضها بسرعة. والمتأكد هو أن قرطاجة بعد رحلة حنّون أو بسبب رحلة حنّون قد أنشأت في هذه النواحي وعلى الساحل المحيطي للمغرب ثِمْياطيرْيون Thymiaterion أي المهْدِية، كما تأسست المستوطنة المعروفة باسم الجِدار الكاري Le mur Carien المعروفة أيضا باسم Caricon teicos، وجيتي Gytte وأگرا Acra ومِليتا Melitta وأرَمْبيس Arambys. وكلها

ضاربة في القدم ومجهولة المواقع، بحيث يستحيل التعرف على مواقعها بالضبط.

4

رحلة حنّون

وسنعدي النظر عن رحلة حملكون التي انطلقت بالمحيط شمالي الشواطئ الإيبيرية والفرنسية واقتحمت بحر المانش قاصدة الجزر القصْديرية Iles Cassetérides، لتتعامل مع أهل هذه المناطق رأسا، من أجل تزويد المصانع القرطاجية والمشرقية بالقصدير الذي كان يدخل مع النحاس في صناعة البرنْز. فهذا كل ما نعلمه عن هذه الرحلة.

أما رحلة حنّون فكانت مثبتة في أعلى معبد كْرونوس بقرطاجة، ولدينا عنها ترجمة إغريقية، هي موضع للكثير التساؤلات، ولكن نظراً لكونها هي الترجمة الوحيدة الباقية لنا من الأصل الفينيقي أو البونيقي، فإنني أوردها كما أوردها گْسيل في الجزء الأول من تاريخه بالصفحة 476وما يليها. وسأوردها بترجمتي أنا إلى العربية. وإليك النص : «رواية حنّون، مَلِك القرطاجيين، عن المناطق الليبية فيما وراء أعمدة هِرَقل، التي قدمها في معبد كرونوس والتي هذا نصها :

1)– استحسن القرطاجيون أن حنّون يبحر خارج أعمدة هيرَكْليس، وينشئ مُدناً لليبيين الفينيقيين. فأبحر إذن، وصحب معه ستين سفينة

بخمسين مجدافاً، وعدداً كبيراً من الرجال والنساء عددهم تقريباً ثلاثون ألفاً، وأطعمة وأشياء أخرى ضرورية. وبالطبع فإن حنّون لم يذهب للمغامرة، فمواقع المدن المنوي إنشاؤها لابد أنها اختيرت من قبل، ولم يبق عليه إلا إنزال المعمّرين المستوطنين». ونتابع الترجمة :

«(2) – بعدما مررنا بالأعمدة كلها، وسرنا بعدها في البحر مدة يومين، أنشأنا مدينة أولى أطلقنا عليها اسم : ثِمْياطيرْيون Thymiaterion. وكان تحتها سهل كبير».

«(3) – ثم اتجهنا نحو الغرب، فوصلنا للمكان المعروف باسم سولُويْس Soloeis، وهو مرتفع ليبي مغطّى بالأشجار».

«(4) – بعدما أقمنا هناك معبداً لِبوسَيْدون Poseidon سرنا في البحر في اتجاه شروق الشمس مدة نصف يوم، بعد ذلك وصلنا لمستنقع يقع غير بعيد عن البحر، يغطّيه قصب كثير عال، وكانت الفِيَلة وغيرها من الحيوانات الكثيرة ترعى هناك».

«(5) – بعدما اجتزنا هذا المستنقع وسرنا مع البحر طيلة يوم، أسسنا على البحر مستعمرات تسمى الجدار الكاري Le mur Carien وجيتي Gytte وأكرا Acra، ومِليتا Melitta وأرَمْبيس Arambys». ونتابع الترجمة :

«(6) – وبعد ذهابنا من هنا وصلنا للنهر الكبير ليكْسوس Lixos الذي يأتي من ليبيا. وعلى ضفافه كان الرحّل اللِّكْسِيون Lixites يرعون قطْعانهم. فبقينا بعض الوقت عند هؤلاء الناس الذين صرنا أصدقاءهم».

«7) – فوقهم، كان يعيش الأثيوبيون الذين لا يكرمون الضيف، ويعيشون بأرض مليئة بالوحوش الضارية، وتخترقها جبال عظيمة يخرج منها – على ما يقال – الليكْسوس. ويقال أيضا : حول هذه الجبال يعيش رجال لهم مظهر خاص، هم سكان الكهوف Troglodytes، ويدَّعي اللكسيون أنهم في العدو أسرع من الخيول».

«8) – بعدما أخذنا المترجمين من عند اللّكْسِيين... فيتحقق عموما أن لُكْسوس أي النهر الكبير الذي يأتي من جبال عالية والذي سار من بعده حنّون بمحاذاة الصحراء، هو نهر دَرْعَة الذي سماه كتّاب آخرون من القدماء باسم دَرات Darat»... ونتابع الترجمة :

«8) – تابع... سِرنا بمحاذاة الصحراء في اتجاه الجنوب مدة يومين، ثم في اتجاه شروق الشمس مدة يوم واحد، إذ ذاك في جوف خليج جزيرة صغيرة لها محيط من خمسة اسْطادات Stades، فسميناها باسم قيرْني Cerné وتركنا به المعمّرين. وحسب رحلتنا قدّرنا أنها تقع قبالة قرطاجة، إذ كان لابد من السير بالبحر من قرطاجة إلى الأعمدة بمقدار السير من الأعمدة إلى قيرْني Cerné».

«وصل حنّون إلى قيرني بعدما سار على طول الصحراء، فيمكن إذن أن نبحث عن هذه الجزيرة بسواحل المغرب في مواجهة الأطلس الصغير أو الأطلس الكبير. فبعدما ذهب حنّون من مصب لكْسوس أو نهر دَرْعَة وصل لهذه الجزيرة بعد مسيرة ثلاثة أيام فحسب بالبحر، فهي إذن كانت تقع في اتجاه شمال الساحل الصحراوي، وليست – كما أكدوا – في وادي الذهب Rio de Oro أو فيما وراء الرأس الأبيض

بجون أرْكَين Arguine. وعلى كل فإن الموقع غير واضح، مع أن جزيرة قيرني كان لها ذكر كبير في التاريخ لأنها جذبت الفينيقيين والقرطاجيين، إذ كانت سوقا للذهب أو مخزنا له». ونتابع الترجمة :

«(9) – من هنا مررنا في نهر كبير، هو نهر كْريتيس Chrétès، فوصلنا إلى بحيرة تضم ثلاث جزر أكبر من قيرني. ولما ذهبنا من هذه الجزر قضينا يوما واحدا في السير على الماء، ووصلنا لنهاية البحيرة التي كان يشرف عليها جبال عالية جدا، مليئة بأقوام متوحشين تكسوهم جلود الحيوانات. وقد رمونا بالحجارة، فمنعونا من النزول للأرض».

«(10) – من هنا دخلنا في نهر آخر كبير وعريض، مليء بالتماسيح وأفراس النهر، ثم رجعنا مع طريقنا وعُدنا إلى قيرني».

«(11) – وسرنا من هناك على الماء في اتجاه الجنوب... ومن هنا لاشك أن حنّون قد كان يقوم برحلة للاستكشاف، لأن الرحلة تتحدث عن جولة استطلاعية لحنّون مع عدد قليل من السفن بعدما ترك أسطوله في قيرني». ونتابع الترجمة :

«(12) – سرنا بحراً من هنا نحو الجنوب مدة اثني عشر يوماً في محاذاة الساحل الذي كان كله معموراً بالأثيوبيين الذين كانوا يفرون عند اقترابنا. وكانوا يتكلمون لغة لا يفهمها حتى اللكْسِيون الذين كانوا معنا».

«(13) – وفي اليوم الأخير رسَونا عند جبال عالية مكسوة بأشجار خشبها طيب الرائحة وله ألوان مختلفة».

«14) – بعدما درنا حول هذه الجبال في مدة يومين، وصلنا إلى خليج مترامي الأطراف، ويوجد على جانبه الآخر سهل. هناك رأينا في الليل نيرانا تعلو من كل جهة بتواتر وبشدة متفاوتة».

«15) – بعدما تزودنا من الماء، تابعنا سيرنا بالبحر طوال الساحل مدة خمسة أيام، وصلنا في آخرها إلى خليج كبير قال لنا التراجمة إنه يسمى قرن الغرب. في هذا الخليج كانت توجد جزيرة كبيرة، وفي الجزيرة مستنقع به جزيرة أخرى. فلما نزلنا هناك لم نشاهد نهاراً سوى غابة. لكن في الليل ظهر لنا كثير من النيران، وسمعنا أصوات المزامير وضجيج الصنوج والطبول وضجة كبيرة، فتملَّكنا الرعب وأمرنا الكهّان بمغادرة الجزيرة».

«16) – غادرنا إذن هذا المكان على عجل، وسرنا بجانب منطقة ملتهبة مليئة بالعطور، وتخرج منها جداول من اللهب كانت تأتي لترتمي في البحر، ولم يكن بالمستطاع الوصول إلى الأرض بسبب الحرارة».

17)– تملّكَنا الخوف فابتعدنا مسرعين، وطيلة أربعة أيام من السير البحري، كنا بالليل نرى الأرض مغطاة باللهب، وفي الوسط ترتفع نار أضخم من الأخريات وكأنها تلامس النجوم، لكن كنا نرى في النهار أن ذلك جبل عظيم جداً اسمه عربة الآلهة».

«18) – ابتداء من هنا سرنا لمدة ثلاثة أيام بجانب جداول اللهب ووصلنا إلى الخليج المعروف باسم قرن الجنوب».

«19) – في الداخل كانت توجد جزيرة مماثلة للأولى، تضم بحيرة بداخلها جزيرة أخرى مليئة بأقوام متوحشين. وكان النساء هن الكثيرات

جدا. كانت أجسامهن مكسوة بالشعر، وكان المترجمون يسمّونهن بالغوريلات. فطاردْنا بعض الذكور، من غير أن نستطيع قنص أيّ واحد، لأنها كانت تحسن التسلق وتدافع عن نفسها... لكننا قنصنا ثلاث إناث، فعضضْنَ وخدشْن كل الذين كانوا يجبرونهن، وأَبَيْن أن يتبعنهم. فقتلناهُن وانتزعنا جلودهن التي حملناها إلى قرطاجة. لأننا لم نذهب إلى أبعد من ذلك بسبب فقدان الزاد».

هذه هي قصة رحلة حنّون التي كانت نتائجها هي تأسيس المستعمرات أو المستوطنات على طول سواحل المغرب. وقرطاجة لما أصبحت مهيمنة على مدخل المحيط قصَرت، على ما يظهر، همّها على منع المزاحمين عن الوصول إلى هذه المنطقة. ومع ذلك فلا يظهر أنها كانت منسية.

5

مدينة قرطاجة وأنظمتها

ونحاول الآن أن نتصور المدينة، وأن نتعرف عليها من خلال بعض ما ذكره عنها بعض الكتّاب القدماء.

بين الرأس الطيب ورأس سيدي علي المكي الذي يعرف أيضا باسم رأس الصرفة ينفتح الشاطئ الإفريقي عريضا. ذلك هو الخليج

الذي شاهد – ولمدة ثلاثين قرناً – حظوظ أوتيكا وقرطاجة وتونس. ولكن قرطاجة قامت في أول الأمر على هضبة صغيرة تحميها الطبيعة من جميع الجهات. ولكنها مع الأيام اتسعت واكتسبت دوافع العظمة والقوة مع توسع إمبراطوريتها. فكانت محاطة بالأسوار التي تحميها من كل اعتداء، بحيث إن السور القديم كان في القرن الثالث يقطع البرزخ، وكان يساير الساحل، والتحصين الثلاثي كان يمتد على البرزخ كله.

وللمدينة ميناءان، أو ميناء مزدوج، أحدهما داخلي هو المعروف باسم الكوثون، والحوض المستدير كان هو الميناء الحربي، بينما المستطيل كان هو الميناء التجاري.

وكان للمدينة ساحة عمومية على غرار الساحات العمومية في بلاد الإغريق (Agora)، أو في البلدان اللاّتينية المعروفة بالْفوروم. غير أن هذه المدن كان لها مِنصّة حجرية يعلوها الخطباء في المناسبات العامة ليخاطبوا الجمهور، بينما هذه العادة السياسية لم تكن تجري في قرطاجة على المنوال الأوربي في ذلك العهد. وعلى كل حال لم يصلنا خبر عن تجمعات شعبية في الساحة العامة للنظر في الأمور والأحوال السياسية والاقتصادية. وبهذا فالساحة العامة لابد أنها لم تكن في قرطاجة تؤدي نفس الوظيفة التي كانت لها على الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط.

ولكن كان بها طبعا معابدُ وهياكل للعبادة، بحيث كان بها معبدُ لأبُولّون Apollon ومعبد لإسْكُلاب – أشمون، والمعبد المزدوج لعَشْتارْتي (Astarte)، وتانيت ليبانون، ومعبد لتانيت بني بعل، ولبعل حمّون اللذين

رأى فيهما الإغريق هيرا وكرنوس، ورأى فيهما اللاتينيون يونو وساتُرْنوس.

ويبدو أن الأرض بداخل المدينة كانت قليلة، فهي لذلك كانت ثمينة. والطرق كانت قليلة الاتساع، ويبدو أن المنازل على جوانب هذه الطرق كانت مرتفعة، ولربما أن بحيّ ميگارا كانت المنازل بديعة وفسيحة، لأنها كانت على ملك النبلاء والأرستقراطيين من أهل قرطاجة. أما بحيّ دَرْماش فيظهر أن به كانت معامل الخزافين وأفرانهم. وبهذه المؤسسات كانت تصنع الأواني والدُّمى.

وحيث إن التزود بالماء كان ذا أهمية للمدينة العظيمة، فإن القدماء قد حفروا الآبار، أما مياه الأمطار فكانت تُجمع ويحافظ عليها في المخفيات، بحيث كان لكل منزل مخفية، وكذلك الصهاريج العمومية التي يظهر أنها قد وُجدت حيث تكثر المساكن الشعبية. ويمكن أن الأحوال الصحية لم تكن دائما مناسبة، لأن النصوص تذكر العديد من الأوبئة القاسية التي عرفتها المدينة أو المنطقة وخلّفت العديد من الضحايا.

أما عن عدد السكان بقرطاجة فليس لنا سوى ما ذكره سْترابون من أنهم كانوا يَصِلون إلى 700.000 شخص في بداية الحرب البونيقية الثالثة، ولكن هذا العدد يبدو مبالغا فيه. ومع جهلنا لحقيقة الأمر، فإنها لا يمكن أن تكون تعدّت 250 هكتارا.

تأسست الإمبراطورية على يد أسْرة الماگونيين الذين تولى الحكم منهم ماگون نفسه، ثم ابناه حَسْدَرِبَعْل Hasdrubal وأخوه عَملْكار Amilcar، ومن بعده أبناء ثلاثة من درية حَسْدَرْبَعْل وهم حَنِيبَعْل

Hannibal وحَسْدَرْبَعْل وسافو Sapho، كما تولاه أبناء عَملْكار الثلاثة، وهم حِمِلْكون Himilcon وحنّون Hannon وجيسْكون. وكلهم كانوا قادة عسكريين.

فهل تولوا الحكم بالاعتماد على جيوشهم ؟ وكيف انتصبوا للحكم ؟ كيف حكم ابنا ماگون، وأبناء حَسدَربَعْل الثلاثة ؟ إلى آخر السلسلة من ذرية ماگون ؟ لسنا ندري. وإنما نعلم أن المدينة بفضل انتصاراتهم قد فتحت لها أبواب التجارات المفيدة، وفتحت الأسواق لصناعاتها، وأتاحت للنبلاء والأرستقراطيين سبل تملك المزارع بالتراب الإفريقي.

ولكن سيطرتهم قد تحطمت في ظروف تغيب عنها أسبابها حول أواسط القرن الخامس. وكل ما نعلمه هو ما ذكره جسْتان بقوله : «حيث إن هذه الأسرة القوية جداً قد كان ثقلها فادحاً على الحرية العامة، إذ كانت تتصرف في الحكم والعدالة، فقد تقرر إنشاء محكمة بمائة قاض يؤخذون من بين أعضاء مجلس الشيوخ. وهكذا فالقادة ملزمون بعرض أعمالهم على هذه المحكمة بعد كل حرب، فتحثّهم خشية الأحكام والقوانين المطبّقة عليهم بقرطاجة على أن يحترموا سلطة الدولة أثناء مزاولتهم للقيادة».

إذن فقد كان هناك مجلس للشيوخ له سلطة على الحكومة، فهل سبق للماگونيين أن سلبوا هذا المجلس سلطته، ثم استعادها المجلس بعد ذلك ؟ لسنا ندري. ولكن عندنا إشارة من سابلوس حنّونSabellus Hannonالذي مدحه الكاتب دِيون كْريزوسْتوم Dion chrysostome بقوله : «لقد غيّر القرطاجيين، إذ صيّرهم ليبيين بعد أن كانوا صوريين.

فبفضله سكنوا ليبيا عوضاً عن فينيقيا، ونالوا الثروات الواسعة والأسواق العديدة، والموانئ والسفن ذات الصفوف الثلاثة، وسيطروا بعيدا في الأرض والبحر». فمن هو حنّون هذا ؟ وما معنى سابلوس Sabellus الذي يوصف به ؟ هل هو الذي كان الرئيس الحقيقي لأسرة الماگونيين حول سنة 470-450 ق.م. وهل كان ملكاً حقاً ؟ وما معنى الملَكية وما صفاتها في قرطاجة ؟

إن النصوص كثيراً ما تذكر الملوك Basileus- Rex وهو اللفظ الذي نلقاه حيثما يجري الحديث بصفة عامة على الحكومة القرطاجية، كما نجده في روايات عن الأحداث التاريخية التي امتدت من القرن الخامس إلى الثاني.

ويكثر لدى الكتّاب اللاتينيين ذكر شخص باسم Sufes في المفرد وSufetes في الجمع، وهو في الفينيقية شوفيط Shofet في المفرد وشوفطيم Shofetim في الجمع، كما أن عدةً من المدن الإفريقية كان يطلق بها هذا الإسم على ذوي الأولوية من وُلاة هذه المدن. وعن قرطاجة فإن الشوفطيم بها كانت سلطتهم تعادل سلطة القناصل عند الرومانيين، كما وقعت مقابلة سلطتهم بسلطة الملوك، الأمر الذي يبرهن على المرادفة الموجودة بين باسيلْيوس وبين ريكْس وسوفِسْ، أي بين Basilius, Rex, Sufes. وكانوا اثنين، وهو قول مقبول يتأكد بمقابلة الشوفطيم القرطاجيين بملوك إسْبَرْطة الاثنين، وبقناصل الرومانيين. وكانوا يزاولون مهامهم لمدة سنة. ويُحتمل أن مجلس الشعب هو الذي كان ينتخبهم.

وقــد ورد أيضــا اسم القَــسْطور Quaestor، الذي كــانت له اختصاصات مالية. مع أننا نجهل الاسم الفينيقي أو البونيقي لهذا الرجل ولوظيفته، إذ إنه ذُكر عند الكتّاب القدماء باسمه اللاّتيني الذي هو القَسْطور Quaestor. ولكن هل كانوا – كما عند اللاتينيين – يُنتخبون لسنة واحدة ويدخلون بعدها في طائفة القضاة ؟ يغلب على الظن أن الأمر كان كذلك، وإلا لما كان الكتاب اللاتينيون قد شبهوهم بالقساطرة اللاتينيين.

وختاماً فَلِقَرطاجة مجلس شيوخ. وهذا المجلس لم يكن لسلطته حدود على ما يبدو. فكان الولاة يستشيرونه فيما يجدّ من الأحداث والوقائع والقضايا السياسية والإدارية، وعلى الخصوص في السياسة الخارجية. ومجلس الشيوخ يتداول في شؤون السلام والحرب، ويتلقى الكتابات من الدول الأجنبية ومن القادة الأصدقاء والحلفاء أو الأعداء على السواء. ويعقد الاجتماع مع مبعوثيهم، وله أن يقبل طلباتهم أو أن يرفضها، وهو بدوره يرسل المبعوثين عنه، وهو الذي يصدر المراسيم لتكوين الجيوش وللتعاقد مع المرتزقة، وعند الخطر يأمر بتجنيد العبيد، ويعلن تحريرهم، ويتلقى تقارير العسكريين ويبعث لهم بالتعليمات، ويصدر قانون النفقات، بل يتدخل حتى في بعض الشؤون الخاصة بالناس، لأننا نجده يصدر قانوناً بيّن فيه الحدّ الأقصى لنفقات الزواج التي يظهر أنها كانت في ذلك العهد ترهق الشباب أو الأسَر المقبلة على حفلات الزواج. ومن ذلك القانون الذي أصدره بمنع تعلم اللغة الإغريقية على القرطاجيين. وختاما كان من حق المجلس البتّ في الضرائب

وتوزيعها وكيفيات تحصيلها. ومن حقه مراقبة إدارة المالية العامة، وغير ذلك من الجوانب التي تجعل الإدارة الحكومية تقف مكتوفة الأيدي أو كالمكتوفة أمام هذه السلطة الواسعة لمجلس الشيوخ.

هذا عن الحكومة والمجلس، فكيف كانت أحوال الشعب من الوجهة السياسية ؟

لقد كان بقرطاجة ثلاثة أحزاب سياسية لها اتجاهات متخالفة في الحكم والإدارة. أولها الحزب الذي كان على رأسه حنّون الكبير (ولا ندري من هو في الأرستقراطية السياسية للبلاد)، ولكننا نعلم أنه كان يميل إلى الرومانيين، لكي ينعم القرطاجيون بخيراتهم في أمان. ولابد أنه كان يضم عدداً كبيراً من الوجهاء والنبلاء وذوي المصالح الذين لم تكن الحرب في مصلحتهم. وكانت لهم علاقات فيها بعض المودة للأرستقراطيين الرومانيين.

وكان هناك حزب ثان هو الحزب الديمقراطي الذي كان على رأسه كَرْثَلون Carthalon وعَمِلْكار السمْنَاتي Amilcar le samnite، وكان يضم الجماهير العنيفة التي كان ينقصها الوعي بحقيقة الوضع السياسي لقرطاجة. وكانت وطنيتهم الجامحة تكره أعداء الأمس واليوم أي رومة ومَسِنيسا.

وثالث الأحزاب كان على رأسه حَنيبَعْل الزرْزور، وهذا كان يحابي مَسِنيسا. فكان الذين على رأس هذا الحزب يعلمون أن مَيْل مَسِنِيسا للحضارة البونيقية أمر لاشك فيه، ويعلمون أنه اتخذ اللغة البونيقية – لا

الرومانية – لغة رسمية لدولته. كما كانوا يعلمون أن قرطاجة لن تستطيع حماية نفسها في آن واحد ضد رومة وضد مَسِنيسا، وهي تجاهره بالعداء. لذلك فالحكمة تقتضي موالاة أو محاباة مَسِنيسا على الأصح. والحق أن الأحزاب الثلاثة كانت تتحرك بوازع لمصلحة قرطاجة، المصلحة التي يراها كل حزب من زاويته الخاصة. ولكن أنصار مَسِنيسا كانوا خَونةً في أنظار الذين يعتبرون أنفسهم وطنيين حقيقيين.

غير أن الحرب التعيسة التي أثيرت ضد مَسِنيسا اعتبرتها رومة انتهاكا لمعاهدة الصلح، فتجهزت للحرب. وفي سنة 149 ق.م نزل بأوتيكا القنصلان الرومانيان، ومعهما الجيوش، وأعلنا أن قرطاجة يجب أن تُخلَى من السكان وأن تهدم. فأحدث هذا الأمر الرعب في النفوس، فكانت فتنة عنيفة، ذبح فيها الشعبُ الشيوخ الذين كانوا قد أوصوا بالخضوع لما تريده رومة.

ولم يكن مَسِنيسا يتمنى تهديم المدينة والقضاء عليها قضاء نهائيا، بل لم يكن يرضيه استقرار الرومانيين بشمال إفريقيا، لكنه لم يجرؤ على مشافهتهم بالمعارضة، كما لم يجرؤ أبناؤه من بعده بمصارحتهم بذلك. حتى إن أحدهم وهو گُلوسّا Gulussa قد جاء مع جنوده لمناصرة الفيالق الرومانية.

6

سياسة قرطاجة في مستعمراتها

لعل أوضح تعريف لسياسة قرطاجة مع المستعمرات والمستوطنات، وباختصار مع المدن التابعة لها يمكن تلخيصه في سياسة «فرّقْ تَسدْ». ذلك أنها حسب ما نعلم لم تسمح بقيام أي تجمع بين المدن التابعة لها. ولا يوجد أي دليل يبرهن على قيام معاهدات تجمع بين مدن هذه الجهة أو تلك من المدن التابعة لقرطاجة. وكذلك لم يكن للمدن الحق ولا الوسيلة في تكوين جيش لحمايتها عند حدوث خطر يهددها. وإنما كان لها الحق في تكوين نوع من الشرطة الداخلية لحفظ الأمن والنظام بها. بينما جيش الدفاع فهو مما يخص قرطاجة التي تكونه حسب الحاجة في البر أو البحر لحماية المنطقة بأسرها. بل كانت تخص نفسها بتجنيد من تراهم صالحين عند حدوث أي حادث يدعو لذلك. من ذلك أن حَنيبَعل قد جند أربعة آلاف من المشاة من المدن الميتاگونية، ومن الليبيين الفينيقيين. وهذا زيادةً على المرتزقة الذين كانت قرطاجة تجندهم، وتتقاضى لهم رسوماً معلومة من الجمارك والضرائب المفروضة على الأسواق والناس في المدن لاشك.

لم يكن الفينيقيون الغربيون يتمتعون بالحرية التي خصت قرطاجة بها نفسها. بل كانوا يرتبطون بها برباط الدين واللغة ووحدة الأصل، وبالخوف من هياج الأهالي أو من التدخل الإغريقي. لذلك كانت تَبعِيتُهم لها تبعية الخائف الضعيف من سيّد قوي، وهي التي ربطتهم بها لعدة قرون.

ومن ناحية أخرى، ليس هناك برهان على أن الأهالي (الأمازِغة) قد نالوا بسهولة الحقوق المدنية كما للمواطنين الفينيقيين أو البونيقيين. ولكننا نجد عددا من هؤلاء الأهالي – خصوصا في الجيش – قد تعلموا لغة السادة وعرفوا عباداتهم، كما مسّتهم جوانب من حضارة ساداتهم فاستعملوها في الغالب، فكانوا هم الذين صاروا يُعرَفون باسم الليبيين الفينيقيين Libyphéniciens. على أن أكثرية الأهالي كانت تكره الوجود الفينيقي والقرطاجي بسبب عنف الحكم، والقسوة في معاملة الناس، وبسبب فداحة الأتاوات والضرائب المفروضة على الناس، وبسبب الابتزازات التي يفرضها محصّلوا الضرائب.

7

الأهالي خارج المنطقة البونيقية

كان المجتمع الأهلي يتكون من قبائل وعشائر وحتى من دول على رأسها من كانوا يُعرفون أحيانا بكونهم أمراء أو ملوكاً، أي (دونَسْتاي Dynastai، وبازيليس Basiles، وريگولي Reguli وريجِس Reges). ومن بين هؤلاء الرؤساء أو الملوك من كانوا حلفاء لقرطاجة، فكانوا يرتبطون مع الجمهورية بروابط متفاوتة في نوعها ومتانتها، وكان بعضهم لا يرضى أن يكون تابعاً كَسيِفكْس الذي أراد من قرطاجة أن تعامله على قدم المساواة.

وعلى النقيض من ذلك النوميديون الذين كانوا يجاورون المنطقة البونيقية، فإنهم كانوا يعامَلون كأتباع. وكانوا إذا خرجوا من الحلف يُنظر إليهم كعصاة. وللتأكد منهم كانت قرطاجة تضع في مدنهم حاميات وتطالبهم بالرهائن. بحيث إن مدينة ثوفَيسْت مثلاً قد سلّمت من هؤلاء الرهائن ثلاثة آلاف إلى حنّون سنة 247، وإن كان يحق لنا أن نتساءل عن القيمة الحقيقية لهذا العدد، وأن نتسائل كم كان عدد سكان ثوفيسْت. على أن هؤلاء النوميديين كانوا حقيقة لا يضمرون ودّاً لقرطاجة، بحيث كلما حدثت لها أزمة فإنهم كانوا ينضمون لأعدائها ويقتحمون منطقتها مهاجمين لينهَبوها.

8
التجارة والعُملة

والعجب أن قرطاجة برغم تجاراتها الواسعة قد تأخرت في سكّ النقود وضرب العملة تأخراً كبيراً عن الإغريق، وعن صُور نفسها وعن المستعمرات الفينيقية بصقلّية. وكانت على ما يلوح تفضل المعادن التي كان التبادل يقع بها، على شكل سبائك مختلفة الشكل والوزن. ويرجع تاريخ أولَى العملات البونيقية لنهاية القرن الخامس. وقد ضُربت في صقلية لأداء أجور المرتزقة، ولتسهيل المعاملات في وقت السلام مع المدن الإغريقية. وقد كتب عليها بالفينيقية العبارات الآتية : َمهَنَتْ Mahanat، أو

عَمْ مَـهَنَتْ Am Mahanat، أو عَمْ هَا مَـهَنَتْ Am hamahanat، أو شَمْ هَا مَـهَنَتْ Sham hamahanat، ويظهـر أن مـعناها «المـعـسكر» أو «شـعب المـعـسكر» أو «لشـعب المـعـسكر». وبهـذا يمكن أن تكون قـد ضُـربت لتستـعملها الجيوش. أمـا العملة المضروبة في قرطاجة نفسـهـا فـيمكن التـأريخ لأقدمـها بموسطة القرن الرابع. وتوجـد منها قطع ذهبـية وأخـرى فضّية.

9

قرطاجة والمستعمرات

حـافظت قـرطاجـة على مناطق نفـوذها بإدارة هذه الإمـبـراطورية بالتدابير اللازمة لحفظ سيطرتها، ولضمان مداخيل الجمارك والضرائب، ولتجنيد الفرق العسكرية حين يدعو لذلك دا ع. وبذلك كانت تتبعـها مـدن وشـعـوب، وحـتى بعض الحلفـاء الذين كـانـوا لا يخـتلفـون في شيء عن المحكومين.

وفي الغـرب فـإن المسـتعـمـرات الفينيـقية القـديمة كانت مـضطرة للاعـتـراف بالسـيـادة القـرطاجيـة عليـهـا طوعاً أو كـرهاً، بل إن منهـا مـا اضطُرت لقبـول بعض عناصـر السكان من القرطاجيين الذين قدموا إمـا لتـفـويتـهـا وإمـا لإسكات أصـوات المـعـارضـين. ونعلم أن جـمـيـع هذه المستـعمـرات كانت على السـاحل. وبرغم أسـوارها فـإنها لم تكن مـراكز عسكرية حصينة، وإنما كانت مخازن للسِّلع والمؤن.

والمراكز كانت مقسّمة إلى قسمين، إلى أمْبوريات Emporia وهي مجموعة مدن على طول الساحل الإفريقي بالسدرة الصغرى وبين السدرتين، والمدن الميتاگونية Métagonienne بين رأس بوقَرْعون Cap Bougaronn والمحيط الأطلسي. وكان يُعمر هذه المناطق من كانوا يدعون باسم الليبيين الفينيقيين Libypheniciens، الذين يظهر أنهم المعمّرون الذين كانت لهم نفس الحقوق المتشابهة في جميع جهات الغرب، ومن ذلك فإن الليبيين الفينيقيين الذين ذُكر وجودهم بأسبانيا قد كانوا على الأرجح من فينيقيي ليبيا، الذين نقلتهم قرطاجة للسكنى بالهضبة الأسبانية. أما المستعمرات التي كلف بإنشائها حنّون في رحلته على الساحل المغربي للمحيط فلابدّ أنها اقتبلت طوائف السكان من هؤلاء الليبيين الفينيقيين.

ويضاف لهذا أن الجمهورية قد عمدت في أحوال متعددة إلى جلب سكان جدد من أصول متخالفة – والأفارقة منهم على الخصوص – للسكنى بهذه المناطق. وبالطبع لم يكن لهؤلاء – في أول الأمر على الأقل – نفس الحقوق كما لمدنٍ ذكرتُها من قبل.

ولابد أن عدد الرجال الأحرار قد كان كثيرا، يحيون في المنطقة حياة الأحرار السادة، وكان عددهم كثيراً بحيث إنهم يشكّلون فيالق هامة من الجنود في الجيش الذي لم يكن يُقبل فيه العبيد بحكم القانون، بينما الأهالي الذين سمّاهم الإغريق باسم الليبيين وسمّاهم اللاّتينيون باسم الأفْري Afri فإنهم لم يكونوا يُجنّدون إلا كمرتزقة أو كمساعدين، ولا حقوق لهم مطلقا.

10

قرطاجة بصقلّية :

الإمبراطورية القرطاجية

في القرن الخامس استولت قرطاجة على مدن هِيمِرا Himère وعلى سِلْنونة Sélinonte وأگـريجِنْت Agrigente وجِـيـلا Gela وكـامَـرين Camarine. وهذه المدن الثلاث الأخيرة سرعان ما تخلت عنها لِدُونيس القديم بمقتضى معاهدتها معه سنة 376، وهي المعاهدة التي وقع تجديدها في سنوات 367، و338، و313 و306. وكلها معاهدات ضمنت لها تملّك غرب الجزيرة إلى نهر هيمِراسْ Himéras شمالاً ونهر هاليكوس Halycos جنوباً. هذه المنطقة بزيادة مدينة هيرَكْلِيا مينُوا Heracléa minoa التي بشرق مصبّ نهر هاليكوس التي استمرت تحت أيديها طوال القرن الرابع، هي التي كونت المنطقة القرطاجية، كما كونت المنطقة التي كانت تسكنها الشعوب الأهلية للصقليين وهم السِّكانيون Sicanes والإيليمّيون Elymes، ومدينتهم إريكْس Eryx التي كان التأثير الفينيقي بها واضحاً. أما الإغريق الذين صاروا من رعايا قرطاجة فقد حافظوا على قوانينهم، وربما حتى على نظمهم البلدية. على أن هؤلاء الإغريق قد ثاروا سنة 398 استجابة لنداء دونيس المتأمّر Tyran على سرقوسة، وذلك برغم أن قرطاجة احترمت لغتهم وعاداتهم.

وكذلك الشأن مع السَّردانيين، فسكان المناطق الجبلية مكثوا على استقلالهم، بينما استولت قرطاجة على السهول الجنوبية والغربية التي

كان يقوم الأهالي باستثمارها، وربما معهم بعض الأفارقة الذين قيل إن قرطاجة قد نقلتهم إلى هناك. ولاشك أن الدولة كانت تتقاضى ضريبة على الإنتاج هي عبارة عن قسط يُقدّر بالعشر من الإنتاج في الأوقات العادية لتموين العاصمة قرطاجة ولإطعام الجنود. ولم تعامل قرطاجة السردانيين بما عاملت به الصِّقلّيين من المراعاة، لأن الجبليين كان مِراسُهم صعباً، وكانت تعاني من غزواتهم للنهب والسلب الشيء الكثير. لذلك خصت نفسها بأحسن الأراضي ومنعت التجار الأجانب من مزاولة الأعمال بالجزيرة، بل إنها على ما يقال قد منعت على السردانيين في حقولهم وأراضيهم غرس الأشجار لسبب لا ندريه، ولا يكون إلا لتخصيص الأرض، على ما يظهر، للقمح أو لمنع المزاحمة في الإنتاج القرطاجي. وكان الجيش القرطاجي هو الذي يقوم بعمليات الشرطة في المنطقة الخاضعة لقرطاجة، ولقد ذُكر أن سَرْدانية عرفت ثورة حدثت سنة 376 قضت عليها قرطاجة بقمع شديد.

وبعد ذلك بقليل، أي في النصف الثاني من القرن الثالث قام البَرْكيون Barcides بإخضاع قسم كبير من الأراضي الإسبانية، فربطوها بهم برباطات سياسة مختلفة، وفي نفس الحين لا نجد دليلا على أنهم كانوا يريدون السيطرة الكاملة عليها. فقد ذكرت النصوص أن هؤلاء الأسبان كانوا تحت حكم رجال منهم، ذكروا بأنهم دونِسْتاي Dynistai، وبازيلْيوس Basileus وبْرِنْسِيبْس Princeps، وأدواق Duces، وريگولي Rigoli. وقد بلغت الليونة السياسية بالبَرْكيين إلى حد أن حَسَدْرَبَعْل قد تزوج ببنت أحد كبرائهم، وكذلك فعل حَنيبَعْل. وقد برهن هؤلاء الأهالي الأسبان على حسن نواياهم بتسليم الرؤساء لأقرب

أهاليهم رهائنَ برهاناً على حسن وفائهم. ويقال إن سبِْيون لما استولى على قَرْطَجَنّة Cartagène سنة 209 قد وجد بها أكثر من ثلاثمائة من هؤلاء الرهائن فأطلق سراحهم.

لقد كان يطلب من الأسبان الجنود والمال. ولم يكن الأمر انخراطا طوعياً في الجيش كما هو الشأن في البلاد المستقلة، بل كانت قرطاجة تكتفي بأن تذكر للحاكمين العدد الذي تريده من هؤلاء الجنود من غير أن تهتم بالطريقة التي يستعملونها في حشدهم.

وقد ذكر أن هذه الطريقة في التجنيد قد أغضبت عشيرة الكَرْبِتَانيين Carpetains وعشيرة الأوريتانيين Orétains حتى همّوا سنة 219 بالثورة، فمدوا اليد إلى القائمين بأمر التجنيد فاعتقلوهم. وكذلك الأمر في المال، فقد كان ضريبة، يحدد مقدارها مسبقاً لاشك على كل قبيلة. وكان الرؤساء مسؤولين على المقادير المفروضة، ومسؤولين على جمع تلك المقادير.

ولاشك أن سياسة التجنيد وفرض الضرائب كان فيها الكثير من الظلم والتعسف اللذين أثقلا كاهل الناس، زيادة على كبرياء القرطاجيين وقسوتهم.

– الحروب البونيقية الإغريقية.

– حرب المرتزقة.

– الحروب البونيقية الرومانية.

– نهاية قرطاجة.

11

الحروب البونيقية الإغريقية

كان لابد من الصدام بين قرطاجة والإغريق. ذلك أن البونيقيين القرطاجيين الذين استولوا في صقلية على غربها وجنوبها كانوا يجدون أمامهم اليونانيين الذين كانوا يملكون شرق الجزيرة وبلاد الإغريق الكبرى La Grande Grèce التي هي جنوب إيطاليا، وبين هاتين مضيق مِسّينا Détroit de Messine. والإغريق يتطلعون إلى الخروج لعرض البحر غربي صقِلّية فيجدونه مقفلا في وجههم بالوجود القرطاجي الذي ملك مع ذلك جزر گوزو، وبنتلارية، وسَردانية، وكُرْسيكا، والبالِيار، والجنوب الأسباني. وكلها مراكز كانت قرطاجة تقف فيها موقف العسس المتربص بسفن الإغريق وبمراكزهم التي على الضفة الشمالية لهذا البحر.

وقصة هذا الصدام طويلة ومملة، تعاور فيها النصر والهزيمة كلا الغريمين في ساحات صقلية والسدرتين في إفريقيا. ولعل أجلى وأوضح مظهر لهذا الصراع يتجلى أولاً في مشاركة قرطاجة في الصراع الإغريقي الفارسي، وذلك في معركة هيميرا سنة 480 ق.م، التي ظنت قرطاجة أنها في آن واحد تؤدي خدمة لخِرْشيش Xerxès ملك الفرس بشغلها لإغريق الغرب عنه، كما أنها تنتهز هي فرصة انشغال الإغريق بالحرب التي كانت تظن النصر فيها سيحالف الفرس، وبذلك ستنتصر

هي انتصاراً يُجلي الإغريق عن الجزيرة كلها، وتأمن هي على غربها، بل حتى على غرب إفريقيا حتى المضيق. ولكننا نعلم نتيجة الحرب الفارسية الإغريقية التي اندحر فيها الفرس، واندحر حتى البونيقيون في هيمرا. ويتقلب النصر والهزيمة بين حَمِلكون ودونيس Denys صاحب سِرقوسَة Syracuse. ولكن الوباء هو الذي انتصر على جيش حمِلْكون، إذ صرع ما يناهز نصف جيشه فاضطر إلى التفاوض مع دونيس. وأخيراً اعترف حملكون لدونيس بالسيادة على صقلية الغربية وعلى أراضي الأهالي السيكانيين Sicanes والإيلْميين Elymes. وبذلك اطمأنت – ولو مؤقتا – على مناطق نفوذها بالجزيرة.

ولكن دونيس عاد ثانية إلى الحرب بعد أن جدد قوته وصنع الأسلحة وجند المرتزقة ما بين سنة 405 و398، خصوصا لأن الوباء كان منتشرا في إفريقيا يحصد الأرواح، وقام إغريق صقلية بمناصرة دونيس، بحيث إنه لما وصل إلى موتية Motyé كان جيشه يبلغ 80.000 جندي، يناصرهم أسطول حربي من 200 سفينة و500 من سفن النقل المحمّلة بعدد كبير من آلات الحصار.

ولكن قرطاجة لم تقف مكتوفة الأيدي فبعثت بحَمِلْكون على رأس أسطول من 100 سفينة حربية، محملة بالجنود والعتاد. ولكنه بعد مناوشات رأى أنه لن يتمكن من دونيس فعاد إلى إفريقيا. فزادت بذلك شدة دونيس الذي أصدر الإذن لجنوده ولمرتزقته بالنهب والسلب، ولكنه أمر بالاعتدال وبالتخفيف من عمليات التذبيح لأنه كان يريد الحصول على الأموال من فداء الأسرى أو من بيعهم عبيدا. ولكن حَمِلْكون عاد سنة

396 فركّز بعد معارك طاحنة سيادة قرطاجة على الغرب الصقلي، فلم يخنس دونيس وعاد للحرب سنة 383، فأجابت قرطاجة بجيش عتيد بقيادة ماگون الذي توفى في معركة كَبالا Cabala مع كثير من رجاله، كما وقع في الأسر عدة آلاف من رجاله وفرّ الباقون.

وفي 367 توفى دونيس، وخلفه ابنه الذي لم يكن كأبيه، فعقد صلحاً يؤكد المعاهدات السابقة. وقد نُحّي عن الحكم لأسباب لا داعي لذكرها هنا. ولكنه عاد للحكم سنة 346 وركز سيطرته على الطغيان والرعب، فاتخذ ضده هيستاس Hicétas طاغية مدينة ليونْتِنْوي Leontinoi ومعه تيموليون Timoléon القائد الكوَرْنثي، وكان هذان الإثنان يريد كل منهما تنحية الآخر بعد القضاء على دونيس الصغير.

وبالفعل تم لهما القضاء عليه فانضم هيستاس إلى ماگون القرطاجي الذي كان على رأس جيش مكوّن من 50.000 رجل على ما قيل (؟)، غير أن تيموليون استطاع الانتصار عليهما ففر الماگوني القرطاجي وانتحر وشتت جيشه وأسر الكثير من رجاله. ومرة أخرى تدعو قرطاجة الجيوش للحاق بصقلية، ورضيت بالعفو على جسْكون ابن حنّون الذي كان منفيا، وقلدته قيادة الجيش في صقلية لمواجهة تيموليون، وتم له النصر في عدة معارك انتهت بعقد للصلح من جديد سنة 338، طُبقت فيه بنود المعاهدة الأولى المعقودة مع دونيس الكبير سنة 405، وهي نهر هيمراس في الشمال ونهر هليكوس في الجنوب. وما عدا ذلك فمدن حرة في اتحاد بقيادة تيموليون.

ولمدة طويلة أمنت صقلية القرطاجية الإغريق، كما أمنت المدن الإغريقية المتحدة شرور قرطاجة وجيشها، حتى ظهر للوجود القائدُ

الإغرقي أگـاتُكْليس Agathocles الذي غـيّر أو كـاد موازين القـوى ليس في صقلية وحدها بل حتى في الضـفة الإفـريقية بجوار قرطاجـة التي ارتعدت من فعله.

12

أكاتُكْليس

ولد أگـاتُكليس سنة 360 ق. م بمـدينة ثِرْمـاي Thermaï من أسـرة مـتـواضـعـة إذ كـان أبوه خـزّافـاً، وتعـاطى هو صـنـاعـة أبيـه في مـدينة سرَقُوسة Syracuse التي دخلها في صغره.

كان أگـاتكليس ذكياً، شبّ في سـرقوسـة التي كانت تعج بالأفكار والمذاهب، فـاسـتـفـاد هو من ذلك كله، وارتفع صيتـه، فـاتـخـذ الأنصـار وصار بهم زعيما سياسيا داخل الحزب الديمقراطي. وخشيته المدينة، فأرغمته على تركها متهمة إياه بمحاولة التآمر والطغيان. فخرج محنقا وألف من أنصاره جيشا جعل يغير به على المنطقة القرطاجية. وفي سنة 318وصل إلى سرقوسة، فأجريت مفاوضات بينه وبين عَمِلْكار القائد القرطاجي الذي توسط له في الدخول للمدينة بشرط أن يحترم الدستور. ولكن في سنة 316 أعمل التقتيل في خصومه الذين كانوا قد نفوه، وفي الأرستقراطيين والنبلاء، معتمدا على جيش من المرتزقة قوامه 5000 جندي، هيأهم له عَمِلْكار الذي قيل عنه إنه كان يتربص بقرطاجة أن يستولي عليها بمساعدة حليفه أگـاتكليس.

ولكن شيئا ما حدث، لم تحدثنا عنه المراجع والمصادر القديمة، أفضى إلى القطيعة بين عَملْكار وأگاتُكليس. إذ يظهر أن عملكار صار يحذر قوة حليفة الذي انطلق في الجزيرة يستولي على المواقع والمدن الإغريقية واحدة تلو الأخرى، كما أن أگاتكليس يظهر أنه سئم من محاولة عملكار في السيطرة السياسية عليه ومحاولة تسييره. وعلى كل فقد فسدت العلاقة بين الرجلين وأخذ أگاتكليس يهاجم المواقع القرطاجية. أما عملكار فقد حاكمته قرطاجة التي تأكدت على ما يبدو من أهدافه، وأصدرت في شأنه حكما قاسيا، ولكنه مات قبل أن تستطيع قرطاجة تنفيذ حكمها عليه.

13

أكاتُكليس يهاجم قرطاجة نفسها

استولى أگاتكليس على العديد من المدن والمواقع في صقلية إغريقية كانت أو قرطاجية.

ولكنه خوفا من الرد عليه بجيوش قد لا يستطيع مقاومتها، فإنه سبق الأحداث وقرر هو أن يهاجم قرطاجة في عقر دارها. فجنّد الجنود وحشد الجيوش صامتا لا يبدي رأيه لأحد، وإنما كان يعمل جاهداً في السر، حتى إذا أتم تحضيراته ركب أسطوله المكوّن من 60 سفينة ومعه 14.000 محارب، وقصد الساحل الإفريقي سنة 310 وكانت سنّه 50 سنة.

كانت المفاجأة عظيمة لقرطاجة والقرطاجيين الذين لم يَدْر بخَلدهم أن أحداً يمكن أن يقصدهم بهجوم في عقر ديارهم. وعلم القائد أوفِلاسْ Ophelas بقدوم أگاتكليس فقام مع جيش من الأهالي وسار مع ساحل السدرتين لملاقاته والاتصال به.

وكان أول عمل قام به أگاتكليس هو أنه جمع جيوشه وخطب فيهم يحثهم على الثبات إلى النصر أو الموت، ثم صاح قائلا إنه يهب للآلهة سفنه التي أمر بإحراقها لينزع منهم كل أمل في الفرار. ولما خمدت النيران بعد ما أحرق الأسطول هاجم مدينة ميگالوبوليس Mégalopolice التي كانت على ملك قرطاجة فاستولى عليها عنوة، وأذن لجنوده بالنهب فتباروا فيه، ثم استولى بعدها على تونس البيضاء Tynès la Blanche وهدم المدينتين بعد الاستيلاء عليهما ونهبهما.

فجيّشت له قرطاجة جيشاً جعلت على رأسه حنّون وبوملكار اللذين كانا يتباغضان، ظناً منها أن بغضهما سيحثّ كُلا منهما على العمل بجد ليظهر إخلاصه أكثر من الآخر. وقد صدق حدسُها لأن حنّون ارتمى في المعركة بتهور سقط فيه صريعا، الأمر الذي دعا القائد عَمِلكار إلى إصدار الأمر للصفوف الأولى بالتراجع، ولم يلبث هذا التراجع أن تحول بفعل ضغط العدوّ إلى فرار. أما أگاتكليس فإنه بعد ما طارد الأعداء قليلا عاد أدراجه فنهب معسكر القرطاجيين. وكانت الخسائر فادحة على القرطاجيين، تقدم بعدها أگاتكليس للاستيلاء على المدن ومنها هَدْروميت وثابسوس وغيرهما من المدن التي دخلها طوعا أو كرها، كأوتيكا وهيبو أكْرا Hippo Acra.

ولكن انتصاراته لم تُفض به إلى شيء، أولاً لأن قرطاجة راسخة الأقدام في أرضها خلف أسوارها، وهي إن فقدت بعض المدن أو المواقع فلن تلبث أن تستعيدها حينما تنظم نفسها وتجرد جيوشها بأبنائها وبالمرتزقة معهم. ثم إن قرطاجة تستطيع أن تشتري المناصرين حتى من الإغريق أنفسهم.

وعلى ذكر الإغريق في صقلية خصوصا، فإنهم كانوا منقسمين على أنفسهم. فانتصاراته لم يكن لها الصدى المراد لديهم، وهم لم يجمعوا الرأي على طرد قرطاجة من الجزيرة، حيث كانت لا تزال لها مواقعها تحت أيديها.

فقرر أگاتكليس أن يقوم بعمل لعله يوحد به إغريق صقلية ويدفعهم لمحاربة العدوّ بها، الأمر الذي سيسهل عليه مأموريته بإفريقيا حين يعود إليها. لذلك قرر العودة مع ثلة من جيشه إلى صقلية. ولكن عودته لم تكن ذات نتيجة مرضية، وتصادف أن أنباء إفريقيا قد تواردت عليه مخبرة باندحارات لقيتها جيوشه من جرّاء الهجوم القرطاجي، وتَوقّفِ النوميديين عن مناصرته، لذلك عاد فقرر العودة على جناح السرعة إلى إفريقيا، فوصلها ووجد أن الأحوال سيئة للغاية بحيث إن الجيوش قتلت ابنيه القائدين هيَركْليد Heraclid وأرْگاثوس Argathus على قول، ودخلت في مفاوضات مع البونيقيين انتهت بالاتفاق على أن الإغريق يعيدون جميع المدن التي استولوا عليها، وأن يأخذوا من قرطاجة 300 تالان، وأن من يريدون منهم الخدمة في العسكرية القرطاجية فيُقْبَلون باعتبارهم مرتزقة ينالون الجراية المعتادة لأمثالهم. ولكنّ هناك قولاً آخر مفاده أنه ترك جيشه وفرّ مع ابنيه، فطارده جيشه، ولكن نقيب النوميديين أمرهم

بالتوقف، لأنهم اعتقلوا ابنه أركاگثوس، بينما وصل أگاتكليس إلى صقلية، وفيها لم يجد بداً من التنازل للاتفاق مع القرطاجيين ليعيد إليهم المدن التي سبق أن استولى عليها مقابل مقدار من الفضة و200.000 مدّ Medimnes من القمح. فهل كانت قرطاجة تستدرجه سياسيا في لعبة هيأتها للقضاء عليه نهائيا ؟ ممكن، وهل كان هو يقصد بالاتفاق مع قرطاجة أن يستدرجها إلى أن يجدد قواته لمنازلتها من جديد ؟ ممكن أيضا. ولكن الموت فاجأه سنة 289 ق.م، وبذلك فقد أراح واستراح.

غاب أگاتكليس والإغريق في صقلية على خلافاتهم وانشقاقهم. وابتليت قرطاجة في صقلية بزعيم طاغية جديد هو بيرْهوس Pyrrhus، وإن كان هذا الزعيم لم يكتب له القضاء على الممتلكات القرطاجية في صقلية، بل لم يكتب للإغريق أن يكون من حظهم القضاء على قرطاجة في صقلية.

14
الحروب البونيقية الرومانية(*)

بالتأكيد كانت صقلّية شُؤماً على قرطاجة، برغم فتوحاتها بها وانتصاراتها فيها. إذ لم تكد تنتهي الحروب البونيقية ضد الإغريق حتى

(*) عن اسطفان گسيل باختصار.

ابتدأت الحروب البونيقية ضد الرومان في صقلية ومن أجل صقلية أولاً. وهي حروب دامت 118 سنة، انتهت بالتدمير النهائي لقرطاجة وإحراقها وجلاء سكانها عنها، وتشريدهم والقضاء على إمبراطوريتها قضاء مبرما. بحيث إنها لم تطمئن بها الأحوال سوى 25 سنة، الفاصلة بين 289 التي هي سنة وفاة أگاتكليس وسنة 264 التي انطلقت فيها الشرارة الأولى للحروب البونيقية الرومانية.

وقبل هذا التاريخ كانت المدينتان قرطاجة ورومة قد عقدتا معاهدات تكفّ بمقتضاهما إحداهما عن الأخرى في صقلية وإيطاليا. وأولى المعاهدات على ما يبدو قد عقدت سنة 507 ق.م، واستمر العمل بها جاريا إلى سنة 348 حيث عقدت معاهدة ثانية، استمرت إلى سنة 306 ثم إلى سنة 279-278. بل كانت المودة السياسية بالغة إلى حد أن قرطاجة قد أوفدت بعثة سنة 343 إلى رومة تهنئ فيها الرومانيين بانتصارهم على السّمْناتيين. وقد حمل الوفد إكليلا من الذهب ثم وضعه في معبد جوبِتَرْ بِالكابِتول.

فما هي الأسباب التي دعت من بعد إلى قيام هذه الحروب المدمرة بين المدينيتين ؟ إن السبب الأول البسيط نجده في مدينة مِسّينة الصقلية التي كانت تودّ التخلص من قرطاجة والقرطاجيين، فالتفتت إلى رومة تطلب مساعدتها، فنالت المساعدة وتخلصت، الأمر الذي أغضب قرطاجة فجهزت جيشاً وقررت استعادة مِسّينة ولو أدّى الأمر إلى الحرب ضد الرومانيين، وكان ذلك سنة 264 ق.م.

ولكن السؤال الذي يجب طرحه، هو لماذا تدخل الرومانيون في مِسّينة ؟ لماذا ساعدوا أهلها على التخلص من قرطاجة ؟ لعل الجواب يبدو واضحا لمن يتأمل الموقف الروماني، ذلك أن رومة كانت قد أبرمت معاهداتها مع قرطاجة حين كانت رومة منهكة في الحروب الإيطالية لتوحيد الهضبة وشعوبها في قبضتها، والآن وقد تم لها ما أرادته، الآن وقد أصبحت سيدة مطلقة اليد في كل إيطاليا، نظرت فوجدت نفسها محصورة من كل الجهات، البحر أمامها منغلق لا تستطيع عبوره. وصقلية هي امتداد طبيعي لإيطاليا، فكان لابد لها من تملك الجزيرة لينفسح الأفق أمامها. فالجمهوريتان القرطاجية والرومانية أصبحتا الآن متواجهتين، ولا يستطيع أحد أن يحول بينهما وبين الصدام.

وانطلقت الحروب بموكبها من القتل والتدمير، وكان للأسطول القرطاجي يد كبرى في هذه المعارك. ولكن جنود الفيالق الرومانية أبدوا ما عرف عنهم من استماتة في الهجوم والدفاع، فاستولوا على مسينة Micenوعلى سرَقوسة Syracuse وساجِسْت Segeste وهاليسيHalycé . وبانتصار الرومانيين انتصارا غير منتظر في معركة بحرية بين الأسطول القرطاجي بقيادة حنيبَعْل والأسطول الروماني الفتي الذي كان عدد سفنه قليلا لا يزيد على 100 سفينة خماسية و20 ثلاثية ضاع بعضها في معركة ليبارا Liparaسنة 260، فإن السفن الباقية استطاعت الانتصار في معركة ميلِسْ Mylesالواقعة على الساحل الشمالي لصقلية. ولم تلبث رومة أن سيطرت هذه المرة على مدينة ألّيرْيا Aléria بكُرْسيكا. وفي سنة 258 هوجمت سَرْدانية.

وقد شجعت هذه الانتصارات الرومانيين، فقرر مجلس الشيوخ أن يهاجم القرطاجيين في إفريقيا اقتداء بما فعله أگاتكليس من قبل. وأُسْند أمر هذا الهجوم إلى القُنْصُلين المنتخبين سنة 256. فتكوّن جيش من 40.000 جندي، يحملهم أسطول من 330 سفينة. فوقفت قرطاجة بأسطولها ضد هذا الزحف، فجرت معركة مرعبة انتهت في الأخير بانتصار الرومانيين.

انفتح البحر حرا أمام الرومانيين، فحطوا بالساحل وقصدوا رأس هيرْمِس Cap Hermès، وسايروا من جهة الشرق هضبة الرأس الطيب، واستولوا على مدينة كلوبيا، وانطلقوا يعيثون ويخربون ويأسرون. وحتى النوميديون أقبلوا على خوض المعارك – لا مناصرة للرومانيين – وإنما للنهب والسلب.

واحتل القائد الروماني ريگلوس مدينة تونس فرأى القرطاجيون أن يطلبوا الصلح، فقدم عليه ثلاثة من شيوخ قرطاجة للاتصال به وللاستماع إلى شروطه. ولكن هذه الشروط كانت قاسية وشديدة، فرفضت الشروط وعادت الحرب إلى سيرتها. وقد قيل إن الشروط كانت هي :

1– إخلاء صقلّية وسَرْدانية.

2– إعادة الأسرى الرومانيين دون مقابل.

3– أن يدفعوا له الأموال مقابل فداء أسراهم.

4– أن يدفعوا لرومة تعويضاً مالياً عن مصاريفها الحربية.

5– أن يؤدوا لرومة أتاوة مالية سنوية.

6– أن يتعهدوا بأن لا يقوموا بأية حرب، ولا يعقدوا أي اتفاق إلا بإذن رومة.

7– أن يجعلوا رهن إشارة رومة 50 سفينة ثلاثية كلما طلبت منهم.

8– أن لا يستخدموا هذه السفن إلا باستثناء واحدة منها.

رُفضت الشروط وعاد الشيوخ الثلاثة من حيث أتوا. وأخذت هذه المرة قرطاجة تستعد استعدادا كاملا لخوض معركة تكون حاسمة، يتم بها طرد الرومانيين من التراب الإفريقي، مصغية إلى نصائح وتعاليم القائد الإغريقي كْسانْتيب Xanthippe اللسْدَموني الذي ارتضى أن يعمل في جنديتها. فأشرف على تجنيد الجيوش وتدريبها تدريبا محكما أمام الأسوار. وهيأ جيشا من 12.000 جندي من المشاة، و4000 فارس و 100فيل، وذهب ليعسكر في الأراضي الوطيئة. فتقدم إليه ريگلوس وعسكر أمامه ورأى الاستعدادات القرطاجية فاستهان بها، وقبل المعركة. فأصدر كْسَانْتيب الأمر للفيِلَة أن تتقدم وتكسر صدر خط العدوّ ثم جرت الملحمة العنيفة الشديدة والقاسية التي انتهت باندحار الرومانيين، وفر ريگلوس مع 500 جندي، ولكن ألقي عليه القبض معهم.

وبالطبع احتفل القرطاجيون أيما احتفال بهذا النصر الذي نالوه، وأقاموا التمجيد على طريقة الرومانيين للقادة الغالبين، ومر في موكب تمجيدهم البروقُنْصل القائد الروماني ومعه الأسرى، وأقاموا صلوات الشكر للآلهة، وعمّت الفرحة في الأوساط الشعبية، فكثرت حفلات الرقص وكثر الهرج والمرج. وتابع القرطاجيون عملياتهم الحربية لطرد

آخر الرومانيين عن التراب الإفريقي، فزحفوا على كلوبيا ولكنها استعصت عليهم فتراجعوا عنها.

ومرة أخرى تعود الحرب على أشدها لأن رومة جهزت سنة254 أسطولا به 350 سفينة. وكانت قرطاجة بدورها قد جددت وأكملت أسطولها فجعلته من 200 سفينة. لكنها اندحرت على ما قيل في معركة قُتل فيها 9000 جندي، وإن كانت هذه المعركة تبقى غفلا، بحيث لا ندري أين وقعت وكيف جرت ومن قادها.

كل هذا وصقلية لم تعرف الهدوء، بحيث نال الرومانيون سنة 254 انتصارا استولوا فيه على بالِرْم Palerme القرطاجية، وأسروا فيها 13.000 من القرطاجيين بيعوا عبيدا. كما أن حَسدربَعْل قد أخفق عند أسوار نفس المدينة أي بالِرْم سنة 250 ولم يستطع استرجاعها، ففر جنوده بعد اندحاره، ووجد هو القضاة بانتظاره، فحاكموه وصلبوه. وبعد سلسلة أخرى من المعارك حَوْل ليليبي Lelybée ودريْبان Drépane، وهنت عزيمة رومة على ما يظهر فلم تجدد أسطولها، واكتفت بأن تعير للقراصنة السفن التي بقيت لها. أما قرطاجة فكان لها بصقلية قائد شاب ذكي هو عَمِلْكار بَرْكا Amilcar Barca الذي بحنكته وذكائه أنهك بالمعارك المستمرة جيش الأعداء الذي كان مقيما بالقرب منه بجهة بالرم.

ولكن رومة تعود للهجوم بأسطول عتيد، ذلك أنها جهزته بأموال الخواص من أهلها، لأن الخزينة كانت فارغة، وهؤلاء تعهدوا أن يبنوا السفن وأن يجهزوها على حسابهم، وتعهدوا أن لا يتقاضوا ما أنفقوه إلا بعد الانتصار. وتم تكوين الأسطول وتجهيزه، وجرت المعركة الحاسمة

التي دُمّـر فـيـهـا الأسطول القـرطاجي بقـيـادة حنّون الذي كـان جـزاؤه الصلب هو أيضا على هزيمته. وكان ذلك في ربيع سنة 214.

في هذه السنة فـهم عَملِكار بَرْكا وفـهم القرطاجيون أن التنازل عن صقلية أمر ضروري. لذلك أعطيت لِعَملكار الصلاحية للتفاوض مع القائد الروماني الذي هو القنصل لوتاتْيوس كاتولوس Lutatius Catulus. فقبل عملكار جـميع شـروط القنصل إلا واحدا منـهـا كـان مـهـينا، فـتـخلى لوتاتيـوس عن الشطر المـهـين ، وهو أن ينتـزع الأسلحـة من أيدي الجنود... واكتفى بأتاوة قدرها 18 دانقا Deniers عن كل شخص. وبذلك تخلت قرطاجة عن مطامعها ومطامحها في جزيرة صقلية والجزر الواقعة بين صـقليـة وإطاليـا وهي الجـزر الأيوليـة Eoliennes، ووافـقت على أن تؤدّي حـالاً 1000 تالان أوبويقي وعلى أن تؤدي كذلك 2200 تالان أخرى على عشـر سنين. وقـد سلمت قـرطاجـة اللاجـئـين إليـهـا، كـمـا سـرحت الأسرى الرومانيين بدون مقابل، وأدت أتاوة لتحرير الأسرى القرطاجيين الذين تحت أيدي الرومانيين. والتزمت الجمهوريتان القرطاجية والرومانية بالامـتنـا ع عن إحـداث أي ضـرر بالأخـرى، وعن عـدم إقـامـة المنشـآت الحـصـينة. وأن أياً منـهـمـا لا تجند الجنود في الأراضي التي على ملك الأخرى، وأن لا تزيغ ولا تفسد حلفاء الأخرى ولا تهاجمهم. فكانت سنة 241 هي سنة التـخلي القـرطاجي عن كل مـا حـاربت من أجله في صـقليـة والجُزر. ولعل الضائقة المالية هي التي فرضت عليها قبول هذه الشروط المـهينة. فنحن نعلم أنها طلبت من ملك مصر بطُلِمي فيلَدِلْف Philadelph قرضـا ماليا قدره ألفا (2000) تالان، فـاعتذر بأنه يريد أن يبقى صديقا للشعبين المتحاربين.

15

الحرب البونيقية الثانية
أو حرب حنيبَعْل(*)

كان ضيا ع صقلية وسَردانية، ثم كُرْسيكا من بعد، منذرا لقرطاجة بهبوب العواصف المقبلة على غرب الساحل الإفريقي ومضيق جبل طارق. لذلك همّت قرطاجة التي كانت قد خرجت مثخنة بجراحها من حروب المرتزقة – التي سنراها بعدُ – بتثبيت قدمها في أسبانيا صَوناً لوضعها بالغرب ودفاعاً عن قادس بالخصوص.

وقد عمّ في المدينة الجريحة الخوف من المستقبل المنذر بالشؤم إلى حد أن عَملْكار بَرْكا، أخذ معه ابنه الصغير حنيبَعْل – وكان عمره تسع سنين – إلى معبد الإله ملْقارت، ونحر الذبائح تقرباً للإله، ثم أخذ من ابنه الطفل اليمين على أن لا يكون أبداً صديقا للرومانيين، وأن يحاربهم دائماً.

لقد كانت السيطرة على أسبانيا تعويضا لقرطاجة عمّا فقدته من الأراضي، وكانت فوق ذلك غنية بمناجمها الفضية التي، بالاستيلاء عليها، ستحل الضائقة المالية التي سببت حروب المرتزقة، كما أن السيطرة على أسبانيا ستزود قرطاجة بالجنود المرتزقة والحلفاء الذين، إذا أحسنت قيادتهم، يكونون كفاة أشدّاء في الحروب المقبلة لاشك.

(*) عن اسطفان گسيل باختصار.

وأسبانيا كانت بها عدّة مواقع من مدن وحُلل أسسها الفينيقيون الصوريون الذين أسكنتهم من قبل قرطاجة على السواحل الأسبانية. وكانوا قد وردوا عليها بعد اندحار صور أمام الإسكندر الأكبر.

لذلك اهتم عَملْكار بتكوين منطقة واسعة للنفوذ القرطاجي في أسبانيا، لقي في تكوينها من المصاعب والأذى شيئاً كثيراً، ولكنه تغلب على الترْدوليين Turdules، والترْتسِيين Tartessioi، وانتصر كذلك على البسْتوليين وعلى الكلْتِيين Celtes. وانتصر بالخصوص على الزعيم أنْدرِتيس الذي جاء ليحاربه على رأس جيش من 50.000 محارب، ولكنه اندحر وفرّ فألقي عليه القبض، وعامله عَملكار بأقصى الشدة، إذ فقأ عينيه كما يقال ثم صلبه إلى أن مات. ولكن عملكار اندحر بعد ذلك وفرّ بجيشه. وأثناء عبوره لأحد الأنهار غرق ومات. غير أن موت عملكار لم يؤثر تأثيراً بالغاً في أسبانيا القرطاجية، لأن ابنه حَسْدَرْبَعْل خلفه بجيش قوامه 60.000 محارب، فيهم 8000 فارس و200 فيل. واستعمل مع هذه القوات حنكة ودراية كبيرتين في المجال السلمي، يتألف القبائل وزعماءها. فتزوج بنت أحد ملوك إيبيريا وأنشأ مدينة هامة على الشاطئ الجنوبي لأسبانيا مقابل الساحل الأفريقي الغربي هي مدينة «قَرْت جِنْت» أي المدينة الجنّة المعروفة باسم قَرْطَجَنّة (التي يسميها المغاربة اليوم باسم قَرْطَخِنّة). ولكن حسدربْعْل لقي حتفه بخنجر أحد الكلْتِيين سنة 221. فتصدر للقيادة حَنيبَعْل الذي كانت سنّه لا تتعدى 26 عاما.

كان حنيبعل نبيهاً ونبيلاً، وكان ذا كفاءة برهن عليها في المناسبات التي كلفه بها حسدربَعْل قبل موته. أبان فيها عن موهبته العسكرية،

وكان قادرا على معرفة الأوضاع وتصوّر الحلول المناسبة لها، والعمل على تنفيذ الخطط التي يبتكر لها الحلول المناسبة. وهو أيضا تزوج بامرأة من أهالي أسبانيا، وكانت بنت أمير الأرتانيين من كَسْتولو Castulo، فضمن بهذه المصاهرة مهادنة الأرتانيين. ولكن موت حسدرْبَعْل هيّج كثيرا من الأسبانيين ضد القرطاجيين الذين لم يقدروا كفاءة حنيبَعْل حتى جربوها في الميدان فأقلعوا، ولم يعد أحد يجرؤ على مواجهته جنوبي نهر الإيبر Ebre، باستثناء أهل مدينة ساگونْت Sagonte.

وساگونْت كانت مدينة إيبيرية قليلة الأهمية على الساحل الشرقي للبلاد. وكانت تقع بموقع مرتفع في حماية أسوارها المتينة. وقد حدث خلاف بين إحدى القبائل التابعة لقرطاجة والقريبة من ساگونت، وبين هذه المدينة. وكانت رومة قد انتهت من خلافها مع الغاليين في غالْيا القريبة La Gaule Cisapine، ورأت أنها يمكنها أن تتدخل لإيقاف تحركات حنيبَعْل. فبعثت سنة 219 وفدا إلى حنيبعل في قَرْطجَنة، وأمرته بالتوقف عن كل عمل بشمال نهر الإيبر Ebre، لأنها كانت لاشك تعتبر أن تكوين مقاطعة قوية ببلاد الأندلس أي بجنوب نهر الإيبر إلى المضيق أمر شديد الخطر على مستقبل أحلام رومة ومطامحها في تلك الجهة.

غير أن حنيبَعْل لم يمتثل لأمر الوفد وأطبق على ساگونْت التي قاومت بضعة أشهر ثم استسلمت. فبعثت رومة وفدا إلى قرطاجة هذه المرة وطالبت ملحّةً بتسليم حنيبَعْل ومساعديه. وبالطبع قوبل طلبهم بالرفض. وفي حركة تمثيلية درامية أجاب الوفد الروماني قائلا : «كانت

المذاكرة ممكنة قبل تهديم ساگونت، أما الآن فلم يبق سوى أن يسلّموا المجرمين ليبرهنوا على أنهم – هم أنفسهم – ليسوا شركاء لهم»، ثم ثنى أكبر الرومانيين سنّاً رداءه ثنية عريضة وقال : «إني أحمل إليكم السلام والحرب، فاختاروا ما يجب أن أتركه لكم».

فأجاب رئيس المجلس قائلا : «اختَرْ أنت». فأعلن الآخر أنه يترك لهم الحرب. فصاح كثير من أعضاء المجلس إنهم يقبلون.

في 218 جردت رومة على قرطاجة تجريدة قوامها 26.400 جندي، (أي فَيْلَقين من 4000 لكل فيلق، و300 فارس، مع 16.000 من المشاة و1800 فارس من الحلفاء) و160 سفينة خماسية.

لم تكن قرطاجة قادرة وحدها على دحر رومة، لذلك كان حنيبَعْل يرى وجوب قيام حلف يدخله جميع من حاربوا رومة وانهزموا أمامها. ومن كانت رومة تهددهم في الهضبة الإيطالية التي كانوا فيها أحراراً منذ نحو خمسين سنة. ومنهم الغاليون الذين انهزموا بالأمس القريب ولا يزالون يتمنون الانتقام. ومنهم المدن الإغريقية بجنوب إيطاليا التي قهرتها رومة وضمتها إلى سيادتها. ومنهم السردانيون الذين تسيء رومة معاملتهم. ولكن هذا الحلف لا يتكون إلا إذا انتصرت قرطاجة أي حنيبَعْل انتصاراً يحدث به الميل المطلوب لدى هذه الأقوام.

إذن فأين وكيف يحدث هذا الانتصار المطلوب ؟ إنه إذا حدث فلابدّ أن يكون قرب رومة لا بعيدا عنها، تسمع به ولا تراه ولا تحس به. يجب أن يكون فوق التراب الإيطالي ليزعزع رومة فتخشى على وجودها به.

وهذه الحرب تناولتها الأقلام قديما وحديثا بكثير من الاختلاف في التأويل والعرض، ولكنني هنا سألخّص القول عنها متجنباً المدح والذم وأغاليط المؤرخين والإخباريين الرومانيين الذين أخطأوا عن غلط أو عن عمد، وفي كثير من الأحوال عن عمد.

كان جيش حنيبَعْل متكوناً أغلبه من الأفارقة والأسبان ومن قليل جدا من القرطاجيين. وقد قيل إن عدده بلغ 90.000 جندي من المشاة، ومن 12.000 من الخيالة، وبهذا الجيش عبر نهر الإيبر وسار بجبال البيرِني وبعد كثير من الأخطار والعراقل وصل لسهل نهر الْپُو Pô، ولم يبق من جيشه العتيد هذا – الذي نشك شكا قويا في العدد الذي ذُكر له – لم يبق منه سوى 20.000 من المشاة و6000 فارس. وكان سبيون القائد الروماني الذي بعثته رومة لملاقاة حنيبعل قد وقف على الضفة اليمنى لنهر البو Pô فجرت معركة أولى قرب تيسّين Tessin، جرح فيها القنصلُ الروماني وعاد بجيشه لموقع في اتجاه مُستوطنة بليزانْس Plaisance، فجاء حنيبَعْل وعسكر بجواره على مسافة قليلة منه.

هنا تأتي معركة نهر تْرِيبيا La Trebis في يوم برد وثلج، وقد قام فيها الجناحان البونيقيان بالقضاء على الجيش الروماني بقيادة Sempronius. وهكذا أحرز حنيبَعْل على الانتصار الذي أصبح به مهيمنا على غالْيا القريبة La Gaule Cisalpine، حيث قدم عليه العديد من الغاليين ينضمون إلى جيشه.

قرر حنيبعل الدخول في الهضبة الإيطالية نفسها وأن يتجه نحو أتْروريا Etrurie. فعانت جيوشه آلاماً كثيرة بسبب المستنقعات التي كان

عليها أن تمر بها وتعبرها، بل إن القائد حنيبعل نفسه قد أصابه التهاب في إحدى عينيه ففقدها، وصار بذلك أعور العين اليمنى. ويتقدم حنيبَعْل إلى بحيرة ترازِمان Trasimène فلاقى القنصل فلامينيوس Flaminus، وقضى على جيشه، فعينت رومة فابْيوس مَكْسيموس Fabius Maximus في منصب الدكتاتور هذه المرة، ولكنه اكتفى بمضايقة حنيبعل وإفساد مؤخراته، بحيث كان يتهرب من المعركة المصفوفة، ولكن حدث في كنس Cannes على نهر الأوفيدوس Aufidus أن الرومانيين هم الذين اصطفوا يطلبون المعركة، فاستجاب لهم حنيبعل الذي نظم مواقفه تنظيما لم ينتبه له الرومانيون لجدّته. وكان الجيش الروماني قويا عتيدا به 80.000 من المشاة و6000 فارس. فأبيد من هذه القوات 70.000 على ما قيل. كلهم أبيدوا بحد السيف، بينما لم يفقد جيش حنيبعل سوى 5700 جندي عند نهاية 216. وحدث ما كان حنيبَعْل ينتظره إذ انقلب على رومة كثير من أهل الهضبة الإيطالية الذين تشجعوا بهزيمة كنس Cannes على التخلي عنها. وهكذا انضم إليه أهل أبُولْيا Appulie واللوكانيون والبروتيون ومدينة كابو Cappoue التي اقتدت بها كثير من المدن الأخرى، كما عقد حلفا مع فيليب المقْدوني، تنصّ بنوده العسكرية على أن الدولتين القرطاجية والمقدونية يساند بعضهما البعض الآخر، وأنهما ينجدان بعضهما إذا هاجم مهاجمٌ إحداهما. ومالت صقيلة مع حنيبَعْل. وهكذا هوجمت رومة من كل جهة، ولكنها لم تفكر في الاستسلام، ولا في طلب الصلح ولو بعد الهزيمة، خصوصا وأن العدوّ يجوس التراب الإيطالي.

ومع ذلك فحنيبَعْل كان بحاجة إلى جيوش جديدة تأتيه من قرطاجة ومن مناطق نفوذها، لأنه كان مع انتصاراته يخشى هذه الأمم التي

انضمت إليه ولا يوليها ثقته المطلقة. ثم إنه صار هو نفسه عبئا ثقيلا على هؤلاء الأقوام الذين صاروا يعولونه ويعولون جيشه، ثم إن جيشه قد ضعف بسبب الحاميات العديدة التي كان يتركها وراءه حيثما مر لتقوم بحماية تلك المواقع.

وبعثت رومة القائد الشاب سبِْيون Scipion وهو ابن القائد سبِْيون الذي لقي حتفه في السنة السابقة. وكان سبيون الشاب هذا محبوبا عند جنوده، وكان ذا قدرة على وضع التخطيطات المحكمة، يفيض ذكاء وحمية وجرأة. فبدأ عمله بهجمة لم تكن منتظرة على مدينة قَرْطَجِنّة Carthagène على حين غفلة من حُماتها وقادتهم القرطاجيين. وقد واتاه الحظ السعيد فاستولى على المدينة التي وجد بها أسلحة ومعدّات كثيرة، واستولى على السفن القرطاجية التي كانت راسية بميناء المدينة، ولم يترك لها المجال لتنطلق فارة بالبحر، كما وجد بالمدينة أموالا طائلة استولى عليها وعلى مناجم الفضة القريبة من المدينة، ووجد العديد من رهائن الأسبان فحررهم ليعودوا إلى أهلهم. ثم تقدم إلى شعب بايكولا وخاض الحرب سنة 208 ضد حَسدَرْبَعْل فانتصر عليه. وفي سنة 206 قدم ماگون وحسدربعل بجيش قيل إنه من 50.000 محارب، فلاقاهما سبِْيون بالقرب من مدينة إيلِبا Ilipa وأوقع بهما هزيمة منكرة. وتتعدد المعارك وتطول، وكان الحظ فيها جميعا ينقلب ضد القرطاجيين إلى حدّ أن الكثيرين ممن كانوا قد انضموا إليهم، ندموا وانقلبوا عنهم إلى الرومانيين متوددين.

كل هذا جرى بأسبانيا، أما حنيبعل في إيطاليا فإنه كان في الضائقة لأن النجدات لم تصله، ولأن فيليب المقدوني لم يستطع إنجاده

هو الآخر لأنه كان منشغلا بحروبه الداخلية، لذلك انزوى حنيبَعْل وأخذ شأنه يتضاءل يوما عن يوم، والحلفاء بإيطاليا كلهم عادوا إلى رومة أو أعلنوا حيادهم.

ولما حلت سنة 203 وصلت جيوش رومة إلى إفريقيا بقيادة سِبْيون الذي غادر أسبانيا بعد أن استولى على قادِس، وتم تعيينه قنصلا. ولم يلبث بعد نزوله بإفريقيا أن شن الغارة بها فأحرز على الانتصار تلو الانتصار، الأمر الذي دعا قرطاجة إلى أن تطلب من حنيبعل إخلاء إيطاليا والقدوم إلى إفريقيا لتنظيم الدفاع بها عنها وللقيام به.

استعداداً للقضاء على قرطاجة تهيأت رومة بحرياً لتشغل عدوّتها بعمليات تكون مقدّمة للنزول النهائي بالأرض الإفريقية. فبدأت منذ 217 بهجوم بحري بأسطول متكون من 120 سفينة خماسية. فاتجه إلى جزيرة جَرْبة (ميناكس Meninx) فعاث فيها مخرباً، ثم قصد جزيرة قرقنة (سرسينة) ولم يقلع عنها إلا بعدما تقاضى منها عشرة تالانات فضية، وقفل راجعا فاستولى على جزيرة بنتلارية. ونفس الهجمات تكررت في سنوات 216، و215 و212، و210، و208 و207. وكلها لقيت حظوظا متفاوتة في النجاح والإخفاق، وفي النجاح غالباً.

في سنة 206 عاد سِبْيون إلى قرطاجة حيث انتخب قُنْصلا. وبرغم المعارضة التي لقيها في مجلس الشيوخ، فإنه استطاع أن يتغلب على هذه المعارضة، خصوصا وأن الشعب كان معه في محاولته لنقل الحرب إلى التراب الإفريقي. ولذلك أسندت إليه الولاية على صقلية التي ستكون ملتقى لجنود البر والبحر، وأُذِن له بالذهاب إلى إفريقيا، وقد جدد

انتخابه. وخلال سنة 205 بعث سِبْيون بكايوس لايْلِيوس C. Laelius على رأس تجريدة بحرية لتخريب الأرض وللنهب وللاطلاع على مقدار الاستعدادات القرطاجية. فأصاب الهلع القرطاجيين، وقاموا بِحزم لملاقاة خصمهم سِبْيون (لأنهم اعتقدوا أن سبيون هو الذي جاء مهاجما)، ولكنهم اطمأنوا قليلا لما علموا أن قائد الحملة مجرد قائد لا ذِكْرَ له بعد. وقد قوي اطمئنانهم لما انضم إليهم الملك سيفكس ملك نوميديا.

قرر سبيون الهجوم، فذهب إلى صقلية حيث أنهى استعداداته وغادرها على رأس جيش من 35.000 رجل من الخيالة والمشاة، ورافقه أخوه لوكيوس، ومَرْكوس بورْكيس كاتو، ولايلْيوس. وقد حمل على ظهر سُفنه المؤن والماء لخمسة وأربعين يوماً وطعاماً مطبوخاً لخمسة عشر يوماً. وبعد مشاقّ ومصاعب عديدة لقيها الأسطول من جراء الرياح والضباب والأمواج، وصلوا أخيراً إلى الرأس الطيب Pulchri Promunturium، فصاح قائلا : «هذا فأل حسن، إلى هناك يجب أن نذهب».

وكان نزوله في نظام وانتظام لأن القرطاجيين لم يعلموا بذلك، فأسرع بإقامة معسكره ثم استولى على المرتفعات المجاورة، وأمر الفرسان بالانطلاق للنهب، فاستولوا على حلّة Bourg أسروا فيها 800 رجل، ثم اتجه بعد أيام إلى مدينة أوتيكا القريبة منه. فحاصرها حصارا شديدا ولكنها امتنعت عنه فتركها باحثا عن موقع يطمئن إليه في فصل الشتاء المقبل، ولكنه فضل في الأخير أن يعسكر قبالة أوتيكا.

وكانت قرطاجة قد هيأت جيشا بقيادة حسدَربَعْل قوامه 30.000 من المشاة و3000 فارس وعدد من الفِيلَة. وجاءه سيفكْس بجيش من 50.000 من المشاة و10.000 فارس. ولكن هذه الأعداد من الجنود ضاق بها المعسكر إلى حد أنهم صنعوا أكواخاً من القشّ وأعواد الأشجار يأوون إليها، ولما وصل الخبر إلى سِبْيون قرر أن يزحف على المعسكرَيْن القرطاجي والأهلي ليحرقهما، وقد تم له ما أراد. فأحرق المعسكرين، وفي هياج الجنود وصخبهم وعلوّ ألسنة اللهيب أطلق جنوده على رجال المعسكريْن معاً، فوقع فيهما القتل والذبح والأسر وفرّ حسدَرْبَعْل كما فرّ سيفكس كل إلى جهة. وكان هذا العمل من سِبْيون فائقا وبارعاً دلّ على حصافة في التفكير وعلى قدرة في التنفيذ.

واجتمع مجلس شيوخ قرطاجة لينظر في الأمر، فقرر متابعة الحرب وأرسل وفدا يطلب من حَنيبَعْل أن يغادر إيطاليا، وأن يبادر بالعودة لإنقاذ قرطاجة. وأثناء ذلك كان سبيون قد استولى على مدينة تونس، ومكث بعض الوقت أمام أوتيكا.

وجرت معارك بين مَسِنيسا ولايلْيوس من جهة، وبين سيفكس من جهة أخرى اندحر فيها سيفكس ووقع على الأرض من ظهر فرسه، فأُسر واقتيد إلى سِيبْيون الذي بعث به إلى رومة. حيث سجن حتى مات.

وفهمت قرطاجة أن كل أمل في النجاة قد خاب، فقرر مجلس الشيوخ القرطاجي أن يطلب الصلح، فبعث إلى تونس ـ حيث كان سِبْيون ـ وفداً من ثلاثين شيخا يطلب الهدنة. فوقفوا أمامه في اتضاع وخضوع، وأعلنوا أن وطنهم قد أخطأ في حق رومة، وحمّلوا حنيبَعْل مسؤولية ما وقع، ثم طلبوا عفو غالبيهم. وإذ ذاك أملى عليهم سِبْيون شروطه، وهي :

1 – إعادة الأسرى والهاربين من الجيش والعبيد الآبقين.

2 – سحب جيشهم من إيطاليا كلها والتخلي عن أسبانيا، وعن الجزر الواقعة بين إيطاليا وإفريقيا.

3 – تسليم جميع السفن القرطاجية باستثناء عشر منها.

4 – أداء تعويض من 5000 تالان.

5 – أن يعطوا 50.000 بواصو من القمح و300.000 بواصو من الشعير.

ولقد قُبلت هذه الشروط أولاً من جانب قرطاجة التي كانت تنتظر بفارغ الصبر قدوم حنيبعل من إيطاليا، وكانت في حاجة إلى فسحة من الزمان تجدد فيها قواتها أو تنتعش فيها قليلا على الأقل. كما أن هذه الشروط كانت أكثر ما يمكن فرضه من قِبَل القائد الروماني الذي لم يستول على أوتيكا فكيف بقرطاجة التي يكاد الاستيلاء عليها يكون مستحيلا، ثم إن جميع الرومانيين كانوا قد سئموا من الحروب، وهم يتمنون انتهاءها، ثم إن هذه الشروط ستعيد قرطاجة إلى مجرد محيطها بمنطقتها الإفريقية بجوار ملك يعاديها ويترصدها هو مَسِنيسا الذي تقيمه رومة عيناً عليها ويداً مسلّحة تترصدها.

وعاد حنيبَعْل بجيوشه المتبقية، فنزل بهِدْروميت (سوسَة) على الساحل الشرقي للبلاد، حيث يمكنه القيام بالاستعدادات اللازمة، كما يمكنه أن يتلقى النجدات بعيدا عن مراقبة العدوّ، وبعيدا أيضا حتى عن حكومة بلاده التي يظهر أنه كان يخشى تدخلها في شؤون جيشه وخططه.

وقبل ذلك كان وفد من مجلس شيوخ قرطاجة قد ذهب صحبة كنْتوس فولْفيوسْ جيلو Q. Fulvius Gillo إلى رومة لطلب الصلح بعرض شروط سبْيون. وفي سنة 202 أعلن مجلس شيوخ رومة قبول الصلح وفقا لشروط سبْيون.

ولكن حدث أن أسطولاً رومانيا قد جنح إلى السواحل القرطاجية وكانت به سفن للنقل محمّلة بالمؤن، فثار الشعب يريد الاستيلاء على هذه السفن ومؤونتها، فعارض مجلس الشيوخ ولكن الشعبيين كانت لهم الكلمة العليا، فتقرر أن أمير البحر حَسدربَعْل يذهب بخمسين سفينة للاستيلاء على الناقلات الجانحة، وذلك ما جرى بالفعل. فكان هذا العمل مناقضا للمعاهدة.

ولم يضيع حَنيبَعْل الوقت، بل إنه لم يلبث أن اشترى الخيول والقمح ودخل في معاهدات عدة أمراء نوميديين من خصوم مَسِنيسا، ثم اقتحم أراضي هذا الأخير فاستولى على عدة مواقع، على قول. وهناك قول آخر هو أن حنيبعل لم يهاجم مَسِنيسا، بل إنه انتظر قدوم توخايوس Tuchaios القائد أو الملك أو الأمير النوميدي الذي كان يخشى على نفوذه من مسنيسا، فقدم على حنيبعل ومعه 2000 فارس. ثم أمر حنيبعل بالتحرك فسار إلى زاما Zama من هَدْروميت.

ولكن عوضاً عن الحرب فإن حَنيبَعْل بعث إلى سِبْيون يطلب منه المقابلة للتفاوض في الصلح. فبادر سبيون بالقبول، وأخبر أنه سيعيّن له الموعد ومكان المقابلة من بعد. فهل كانا صادقين فيما يطلبه كل منهما للآخر ؟ هل كان حنيبعل صادقاً في طلبه للصلح أو كان ينتظر وصول

النجدات ؟ وسبِيْون هل كان هو أيضا صادقا حينما قبل عرض حنيبعل بالتفاوض أو كان ينتظر قدوم مسنيسا عليه برجاله. لعل هذا هو الأصح من الجانب الروماني على الأقل، لأن مسنيسا لم يفتأ أن قدم ومعه 10.000 من النوميديين الأشداء.

ويقال إن الاجتماع قد تم بين حنيبعل وسبيون، ولم يحضره سوى مترجمين اثنين. فأعلن حنيبعل أن وطنه على استعداد لقبول الشروط الآنفة الذكر في المعاهدة السالفة باستثناء التعويض المالي الفادح وتسليم الأسطول الحربي. فكان الجواب أن رومة لن تؤدّي الجائزة لقرطاجة على خرق الهدنة، وأن الشرط الحالي بسيط، هو أن تضع قرطاجة نفسها تحت رحمة رومة، ولا شيء سوى هذا. وبهذه الكلمات انتهى الاجتماع ولم يحصل اتفاق.

وفي اليوم الموالي اصطف الجيشان للقتال، فكان جيش حنيبعل يقارب 50.000 جندي بينهم نحو 12.000 من المرتزقة الغاليين والموريين وأهل الباليار والليغوريين، وكان بمُشاته العديد من القرطاجيين والليبيين زيادة على الجيوش التي جاء بها من إيطاليا، و2000 فارس قدم بهم عليه توخايوس Tuchaios كما سبق أن ذكرنا. أما سبِيْون فزيادة على جيشه الذي سبق أن ذكرنا عدده، قد تقوى بمَسِنيسا الذي وافاه بجيش قوامه 6000 من المشاة و4000 فارس، كما انضاف لهذا العدد جيش الرئيس دكَماس Dacamas الذي ورد ومعه 600 فارس.

وألقى القادة خطب التشجيع على جيوشهم ثم ابتدأت المعركة بمناوشات بين الفرسان النوميديين من الجيشين معا، ثم أمر حنيبعل بتقدم الفِيَلَة فقابلها ضجيج الأبواق التي تعالت أصواتها من كل جانب

في الجيش الروماني، فذعرت وأجفلت وتراجع البعض منها فوجد الفرصة مَسِنيسا وانقض على هذا الجناح الذي فرّ جنوده في غير انتظام. وكما فعل مَسِنيسا فإن لايليوس انتهز هو الآخر الفرصة وانقض على الخيالة القرطاجية التي اضطرت للفرار.

فشلت إذن خطة حَنيبَعْل، وذاق الهزيمة فقرر العودة إلى هدروميت، واستطاع سبيون أن ينهب المعسكر القرطاجي ثم عاد إلى معسكره المجاور لأوتيكا وبعث عنه من يخبر رومة بانتصاره.

تجمّعت لسبيون قوات جديدة قوامها 50 سفينة حربية ورد عليه بها لِنْتولوس نجدةً من رومة، مع 30 سفينة قد جاء بها كَنايوسْ أوكْتافْيوس، مع 40 سفينة كانت قد بقيت لسِبْيون منذ عودته من صقلية، فحشد هذه السفن أمام قرطاجة لإرعابها وتخويفها. وكان حنيبعل قد عاد من هدروميت إلى قرطاجة فأشار على القرطاجيين بطلب الصلح. فخرجت سفينة قرطاجية مزيّنة بالأعلام وبأغصان الزيتون، وعليها ثلاثون من أعضاء مجلس الشيوخ كان مظهرهم يوحي بالاتضاع. فتقرر التفاوض ولكن بذهابهم إلى تونس حيث يقيم سِبْيون.

وأبدى سبيون لهؤلاء الموفدين بتونس بعد لقائه بهم تعالياً وقسوة، ونبّههم إلى أن وطنهم قد خان الاتفاق وأنه لذلك يستحق العقاب القاسي، ولكن رومة ستكون رحيمة بهم إذا قبلوا الشروط وطبقوها خير تطبيق. وقال : «إن القرطاجيين يكون لهم في ليبيا المدن التي كانت لهم قبل أن يُشهروا الحرب الأخيرة على الرومانيين، وكذلك المقاطعة التي كانوا يملكونها فيما مضى، وكذلك لهم عبيدهم وماشيتهم... وابتداء من اليوم لن يلحقهم ضرر، وسيعيشون حسب قوانينهم وأعرافهم، ولن يخضعوا

لأية حامية... ولكنهم يعيدون إلى الرومانيين جميع ما انتزعوه منهم بغير حق أثناء الهدنة، يعيدون الأسرى والعبيد الآبقين من غير تحديد للزمن، ويسلّمون جميع سفنهم الحربية باستثناء عشر ثلاثيات، ويسلّمون جميع أفيالهم، ولا يحاربون أي شعب خارج ليبيا. أما في ليبيا فالمساكن والأراضي والمدن وجميع ما كان ملْكاً لمسنيسا أو لأسلافه داخل الحدود التي ستبيّن لهم فإنها ستعاد إليه، ويزودون الجيش بالقمح مدة ثلاثة أشهر، ويؤدون له الجراية أيضا إلى أن يأتي من رومة الجواب عن هذه المعاهدة. ويؤدون 10.000 تالان أوبويقي من الفضة في خمسين سنة، بمقدار 200 تالان في السنة، ويسلّمون ضمانة بمائة رهينة يختارهم القائد من الشبان...». ولقد قبل مجلس الشيوخ القرطاجي هذه الشروط، ولم يقم ضدّها إلا شيخ واحد أسكته حنيبَعْل بعنف، وبذلك تمت المصادقة عليها. فانتهت بذلك الحرب البونيقية الثانية.

16

الحرب البونيقية الثالثة:

نهاية قرطاجة 149-146(*)

ومر نحو خمسين سنة وقرطاجة تابعة مَهينة لرومة تؤدي الأتاوات وتستجيب للطلبات خانعة راضية، تخشى الرومانيين، ولكنها تخشى

(*) عن اسْطِفان گسْيل باختصار.

العدوّ الألد الجديد. مَسِنيسا المتربّص بها، الطامع في الاستيلاء عليها. لقد كان مَسِنيسا مسيطراً على دولة واسعة الأطراف تمتد من الحفير الملكي إلى نهر مَلْوِية، مسيطراً على سِرْتا وعلى سِكّا Sicca وثوفيسْت Theveste وغيرها حتى إن قرطاجة لم تعد تملك سوى الزاوية الشمالية الشرقية للقطر التونسي مع حاشية على ساحل خليج الحمّامات. ومع ذلك كانت على حالة من الازدهار تثير مطامع مَسِنيسا وتثير أحقاد الشيخ كاتون Caton الذي بدا عليه القلق من ازدهار المدينة لما شاهدها أثناء بعثة قام بها للمدينة. فعاد مع رفقائه ينادي بتحطيم المدينة، حتى لا يؤدّي بها الازدهار إلى معاودة الحرب ضد رومة.

وبالفعل طارت الشرارة التي أشعلت الحرب بين قرطاجة ومَسِنيسا ثم بين قرطاجة والرومانيين. ذلك أن القرطاجيين سئموا من انتهاكات مَسِنيسا للمعاهدة المعقودة سنة 202، فقرروا حمل السلاح في وجهه ولو غضبت روما. وما كان لها أن تغضب لأن قرطاجة لا تحمل السلاح في وجهها هي، ورومة عالمة بتعديات مَسِنيسا التي لا تُحتمل، ثم إن رومة ليس لها ما تشكوه هي من قرطاجة المطيعة الخانعة.

في سنة 151-150 كان على الحكم في قرطاجة الحزب الديمقراطي، فأمر بطرد أنصار مَسِنيسا من المدينة، فالتجأوا إلى مسنيسا الذي بعث ابنيه كُلوسا Gullussa ومِسِبْسا Micipsa، وطالبا بعودة المطرودين إلى المدينة، فمنع الابنان الأميران من الدخول للمدينة، كما جرت مهاجمة كلوسا فنجا ومات بعض رفقائه.

لم يكن مَسِنيسا ينتظر سوى هذه الفرصة، فحشد جيشاً قوياً يفوق 50.000 مقاتل على ما قيل، فواجهته قرطاجة بجيش من 25.000 لكن

والاها قبل المعركة جيش نوميدي كان يكره مَسِنيسا، وانضاف إليه كثير من رجال القبائل الأخرى فبلغ هو أيضا نحو 50.000 مقاتل.

وتواجه الجيشان، ولكن مسنيسا لم يخض حرب الصفوف، بل إنه لجأ إلى حيلة عسكرية أظهرت نجاعتها. وهي أنه أقام حفيرا، أحاط به جيش القرطاجيين، وأحاط هو بالحفير وانتظر أن يخرجوا أو أن يُخرجهم الجوع من معقلهم فيلاقيهم جيشه من حيث ما خرجوا.

لقد نجحت الخطة، فقد أكل القرطاجيون كل مؤنهم، وامتنع عنهم التزود بغيرها، وفشت الأوبئة في المعسكر، فقضى معظم الجيش نحبه. ولذلك أذعنوا للتفاوض مع مسنيسا، ففرضت شروط قبلها القرطاجيون، واقتطعت بعض الأراضي لمسنيسا الذي طلب أن يؤدى له في الحال 5000 تالان، وأن يعاد إليه الهاربون والعبيد الآبقون. وحددت منطقة النفوذ القرطاجي بالحفير الملكي Fossia Regia. وكان ذلك سنة 150-149ق. م.

إن قرطاجة خرقت أحد بنود معاهدة الصلح بينها وبين رومة، فأوجدت بفعلها هذا سببا للقطيعة، خصوصا وأن الكثير من الرومانيين كانوا يتمنون القضاء النهائي على قرطاجة. خصوصا أيضا وأن رومة لم يكن لها ما يشغلها آنذاك. فهي قد قضت على أَنْتيوخُوس Antiochus في سورية، وعلى فيليب المقْدوني الذي صدّته وردته لداخل حدوده، كما قضت على بيرصي Percée، وقبل ذلك استدارت ضد الحلفاء الذين كانوا لحنيبَعْل، سواء في بلاد الغال القريبة أو في أسبانيا، حيث احتفظت بفتوحات البركيين ووسعتها لصالحها هي، برغم المقاومات الشديدة التي لقيتها من الأسبانيين.

لم يكن لرومة ما تخشاه إذن، فليس في البحر الأبيض المتوسط قوة تهابها رومة. أما قرطاجة فبلغت من الضعف حدّاً يستهان به. وقادتها ليس فيهم من له عبقرية حنيبعل. ولكن حنيبعل كان قد مات طريدا شريدا سنة 218 أو 219.

وحقيقة الأمر هي أن مَسنِيسا يجب أن لا يصبح مَلكاً قوياً على رأس مملكة تكون قرطاجة هي عاصمتها. فالملك البربري كان ذا ذكاء حادّ وكان ذا إرادة من حديد. وهو قد أراد قرطاجة، ولابد أن ينالها بالغلب أو بالسياسة. ويكون سيّدها ولو بالتراضي مع أهلها، خصوصا وأن له بها حزبا من أهل قرطاجة له ممثلون في مجلس الشيوخ يناصرونه ويدعون إلى تألّقه. ورومة لا تريد أن تصبح من جديد في خلاف مع قرطاجة التي تكون قد صارت قوة يحسب لها حسابها ذات يوم. لذلك فإن كاتون وأنصاره، برغم بُوبلْيوس كُرْنيلْيوس سبْيون نَزيكا Publius Cornelius scipion Nasica الذي كان يعارضه معارضة شديدة. فقد كان كاتون يختم دائما تدخلاته في مجلس الشيوخ – وفي أي موضع كان – بقوله : «وأنا كذلك موافق على أن قرطاجة يجب أن تمّحى من الوجود». يقولها دائما بمناسبة وبغير مناسبة.

على أن خصوم قرطاجة كانوا لا يتوانون في اختلاق الأكاذيب على المدينة قصد تهييج الرأي العام الروماني ضد المدينة المنكوبة. من ذلك ما ادّعته لجنة عادت سنة 153 من قرطاجة من أن المدينة تعمل جاهدة لتكوين أسطول حربي قوي. وانتشرت بعد ذلك إشاعة عن أحد الأمراء البربر – وهو أرْكوبَرْزان Arcobarzane حفيد سيفكس – أنه قَدِم للمقاطعة القرطاجية بجيش عظيم، قيل إنه حشد لقتال مَسنِيسا، وهو في

الحقيقة معدّ لقتال رومة. وقد ذهب گلوسّا موفَداً من قبل أبيه مَسِنيسا إلى رومة، ليخبر مجلس الشيوخ أن القرطاجيين كانوا يحشدون الجيوش ويكوّنون أسطولاً حربياً عظيما. وكان سفر الأمير گلوسا لرومة في سنة 152. وتصادف أن أحد الولاة القرطاجيين هو جيسْكون ابن عَملْكار، نادى بالحرب ضد رومة، فاتبعه الناس مهتاجين. فاضطر المبعوثون الرومانيون للفرار بأنفسهم من الجماهير المهتاجة التي كادت تودي بحياتهم.

17

الحرب المدمّرة

وجدت قرطاجة المسوغ الذي يحلل لها إعلان الحرب، فانتهزت الفرصة وجندت الجنود، وحشدت الجيوش في صمت. بحيث لم يكن أحد يعلم قصدها بذلك، باستثناء القرطاجيين الذين انتبهوا في الأخير إلى أن حربهم لمسِنيسا، كانت هي السبب الأول في الموقف الروماني منها بالإضافة إلى ما فعله الوالي الأخرق الذي نادى بالحرب جهرة ضد رومة.

وقد أراد القرطاجيون أن يتلافوا عقاب رومة، فأصدروا الحكم بالإعدام على حسدَرْبَعل الحاكم العسكري، وعلى من كان حاكما قبله وهو كَرْثَلون Carthalon، وعلى غيرهما ممن كانوا سببا في الأحداث الأخيرة. وبعثوا وفدا يطلب العفو من مجلس شيوخ رومة. فأما

حَسدرَبْعل، فقد جرت مساعدته على الفرار من قرطاجة، ولم يلبث أن ظهر ومعه جيش قيل إن به 20.000 مقاتل. أما الوفد الذي حل برومة فلم ينل جواباً صريحاً على طلبه العفو. فألقى سؤالا على الشيوخ، هو : «إذا كنتم تروننا قد أذنبنا، فكيف السبيل لنيل عفوكم ؟ فكان الجواب : «بإعطائكم الترضية للرومانيين». فعاد الوفد وهو يتساءل عن هذه الترضية، وعن نوعها المطلوب. ولم يعد للناس شك في أن المعركة مقبلة، وأنها ستكون شديدة وقاسية. لذلك أسرعت أوتيكا بالارتماء في أحضان الرومانين، وطلبت أن تكون تحت رحمتهم. فَقُبل طلبها لأنها كانت ذات موقع حصين، ولأن الجيش الروماني كان بحاجة إلى هذا الموقع الحصين.

أما من الجانب الروماني، فقد تمت الاستعدادات، وتكوّن جيش قوامه 80.000 جندي، فيهم أعضاء الفيالق Légions، وكثير من المتطوعين والمرتزقة، وبه 4000 فارس، و50 سفينة خماسية، و100 سفينة حربية غير الخماسيات، وعدد كبير من السفن الناقلة وغيرها. وصدر الأمر للقنصلَيْن بالتوجه إلى إفريقيا. وكان القنصلان هما مانْيوس مَنْسيلْيوس Manius Mancillius، الذي كُلف بقيادة الجيوش البرية، والقائد الثاني هو القنصل لوكْيوس مَرْكيوس كَنْصورينوس Lucius Marcius Censorinus. وهذا أُسندت إليه قيادة الأسطول. وكان صحبتهما الضابط بوبْليوس سِبْيون إميلْيانوس Publius Scipion Aemilianus (سِبيون الإميلي) الذي سيهدم قرطاجة بعد ثلاث سنوات.

وكانت قرطاجة قد بعثت إلى رومة وفداً اكتفى بأن قال إنه يضع قرطاجة تحت رحمة رومة. فأخبروا أنه نظرا لاتخاذهم هذا القرار الحكيم فإن المجلس يقرر أن يبقى للقرطاجيين حريتهم وقوانينهم

ومقاطعتهم الترابية وتملّكهم لجميع ممتلكاتهم الأخرى. وكل هذا مع شرطين اثنين، أولهما أن يرسلوا إلى ليليبي ثلاثمائة رهينة يكونون مختارين من أبناء أعضاء مجلس الشيوخ، والشرط الثاني أن يطيع القرطاجيون أوامر القنصلُيَْن. فاحتار القرطاجيون في معنى هذه الأوامر، ولكنهم لم يجدوا جوابا. وبالفعل نفذ الطلب ووقع الاختيار على 300 شاب بعثوا إلى ليليبي، وهم يتساءلون عن الأوامر التي عليهم طاعتها بعد كل هذا الاستسلام وهذا الخضوع.

وحقيقة فإن القنصلين لم يكونا يتصوران أن مهمتهما ستكون بهذه السهولة، لذلك رأيا أن الاستسلام سيكون أمره سهلا، ولن يحتاجا إلى استعمال الجيش والدخول في الحرب التي مهما يكن أمرها فستكون سهلة وسريعة. لذلك عَبَرا المضيق ونزلا في أوتيكا، وأقام الجيش بمعسكره على المرتفع الذي أقام به سِبْيون الإفريقي قبل ذلك بخمسين سنة.

فأرسل القرطاجيون وفدا إلى القنصلَيْن للتعرف على المصير المهيأ لهم. فهنأهم أكبر القنصلين سنّاً على الطاعة وعلى حسن استعدادهم للتعاون مع الرومانيين، ثم أمرهم أن يسلّموا جميع أسلحتهم وآلاتهم الحربية، فسلّموا 20.000 سلاح و2000 من آلات القتال، فحُمل ذلك كله إلى معسكر أوتيكا. ثم طلب من مجلس شيوخ قرطاجة أن يبعث إليه بوفد ليتلقّى أوامر مجلس شيوخ رومة.

وتَشكّل وفد من ثلاثين عضواً، أسرعوا بالقدوم على القنصلين. فتكلم أحدهما وعرّفهم بالقرار الذي بقي سراً مكتوماً حتى تلك اللحظة، وهو أن : «القرطاجيين يجب عليهم إخلاء المدينة والجلاء عنها، لأن رومة

قررت تهديمها، وعليهم بالذهاب ليستقروا حيثما يشاؤون بشرط أن يتعدوا 80 اسطاداً أي 14 كيلومترا» على الأقل من البحر.

تفجر الحزن والأسى في نفوس الموفدين، فبكوا وتمرغوا في التراب راجين مستعطفين. ولكن القنصل لم يزد على أن قال إن أمر مجلس الشيوخ لا يُنقض، ويجب تنفيذه. ودعوا للذهاب إلى المدينة لإخبارها بالأمر الصادر. فوصلوا المدينة واجمين، وكانت الجماهير تنتظر وصولهم بلهفة. وفي مجلس الشيوخ أنبأوا بالخبر العظيم الكريه الذي حملوه، فثار الهياج الشعبي، وغضب الناس على الشيوخ ونالوهم بالقذف والشتائم، بل مدّت الأيدي إلى بعضهم فقتلوا، وجرّت جثتهم في الشوارع والأزقة. وفي هذا الهياج تقررت متابعة الحرب.

ولكن القنصلين تمسكا بالصبر والأناة ظناً منهما أن الناس سيعودون إلى الصواب، وإلى الرضى بالحكم الذي لا مردّ له. وطال انتظارهما، فقررا أن يظهرا بالقوة أمام المدينة الجامحة. ولشدّ ما عجبا إذ قوبلا مع جيشيهما برّد حربي صارم منبعث عن كل جهة بالمدينة. فقررا الدخول في حرب فعلية مدمّرة وقاسية. فكانت حرب مفاجئة يطول ذكر تفاصيلها، كانت فيها المدينة ترّد على كل ضربة بمثلها وتستميت في الدفاع. وتحولت الحوزات المقدسة والمعابد وجميع الأمكنة المتسعة إلى مصانع للحرب، يشتغل فيها النساء والرجال ليلا ونهاراً. حيث كان يصنع كل يوم 100 درع و300 سيف و 500 رمح وحربة و1000 سهم. فتخلى القنصلان عن متابعة الحرب إذ استحال عليهما قهر المدينة، وقررا تطبيق الحصار لقتل المدينة جوعا أو تستسلم. وعاد القنصل كنْصورينوس Censorinus إلى إيطاليا ليحضر الانتخابات. أما

منيليوس فمكث وكان يواجه فَمَاياسْ Famaïas القائد الشاب المقدام، قائد الخيالة القرطاجية، لأنه كان يكمْن في الأدغال والشعاب ويهاجم بغتة ويحدث الكثير من الأذى.

وأثناء ذلك وصل الموفدون من قبل مجلس شيوخ رومة مستفسرين عمّا يحدث، لأن المجلس في رومة أخذ القلق يساوره مما يجري بإفريقيا. فقرر دعوة مَسِنيسا لمساعدة الجيش مساعدة فعالة. ولكن مسنيسا في أثناء ذلك كان مريضا مرض موته سنة 148. فدعا سِبْيون ليقدم إليه في سِرْتا، ولما وصل كان الملك قد مات. ولكنه ترك لأبنائه الوصية بأن يمتثلوا لما يريده منهم سبيون. فصار حُكماً بين ورثة الملك. وكان عمله أنه نحّى أبناء الجواري عن الحكم، أما الأبناء الشرعيون فكانوا ثلاثة هم مِسِبْسا Micipsa وگُلوسّا Gulussa ومَسْتَنَبَعْل Mastanabal. فقسم بينهم أعمال الدولة، بحيث نال مِسِبْسا إدارة المملكة وسرتا العاصمة، ونال گُلوسّا الجيوش وقيادتها، وآلت السلطة القضائية إلى مَسْتَنَبَعل. وبهذا التقسيم لشؤون الدولة، فإنه عمل للمستقبل لاشك، كما سيتضح فيما بعد حين تدخلت رومة فعليا في شؤون الدولة، الأمر الذي أفضى إلى السيطرة عليها سيطرة كلية.

سوّى سبيون أمر الدولة النوميدية، وعاد مسرعا يصحبه گُلوسّا والجيوش النوميدية التي ستخوض الحرب ضد قرطاجة. وشاءت الظروف أن يلتقي فَمَاياس مع سِبْيون، فلم يتحاربا لأن سبيون بادأه بالحديث قائلا : «إذا كنتَ لا تستطيع أن تنقذ وطنك، فلماذا لا تفكر في إنقاذ نفسك وفي سلامتك أنت ؟» فأجاب فَمَاياس : «ومن أين سلامتي بعد كل الشر الذي أوقعتَه بالرومانيين ؟». فأجاب سِبيون : «إذا وضعتَ

فيَ ثقتَك، فلك وعدي بسلامتك، وبعفو الرومانيين واعترافهم». فأجاب فَماياس : «بأنه يطمئن إلى سبيون، وأنه سيفكر في الموضوع ويخبره». ولم تمض سوى مدة قليلة حتى بعث فماياس يضرب موعداً للقائد. فخشي منِيلْيوس أن تكون هناك خدعة، ولكنه بإلحاح من الضابط سبيون سُمح له بالذهاب، بشرط أن لا يعد إلا بوعد واحد، هو أن فماياس سيفوز بحياته. وقد حصل الاتصال وعاد سبيون ومعه فماياس و2200 من أصحابه.

ولكن منِيليوس لم ينعم بهذا الانتصار لأن روما بعثت تخبره بتعيين لوكيوس كلبرنيوس بيزون كيصونْينوس L.C. Pison Caesoninus محله لاستلام قيادة الجيوش ومتابعة الحرب. ومعه لوكيوس هُسْتيلْيوس مَنْكِينوس L.Hostilius Mancinus الذي أسندت إليه قيادة الأساطيل. وبمجرد وصولهما قاما ببعض الأعمال خارج قرطاجة، بل إنهما توجها للقضاء على المواقع وعلى المدن البعيدة عن قرطاجة، ظناً منهما أن ذلك سيرعب المدافعين عن المدينة. ولكن حتى هذه الأعمال لم يصاحبهما فيها النجاح. فقد اخفقا أمام كلوبيا، فوصل القائد النوميدي بيثْياس Bithyas ومعه 800 من رجاله وانضم إلى المدافعين عن قرطاجة. ويظهر أن مؤامرة وقع اكتشافها في قرطاجة أحدثت البلبلة والوهن في الصفوف. ذلك أن حسدرْبَعْل القائد وشى أمام مجلس الشيوخ بقائد آخر اسمه أيضا حسدربعل، وكان هذا الأخير ابن أخت گلوسا قائد الجيش النوميدي المحاصر لقرطاجة، وهو أيضا ابن أخت مِسْبسا ومَسْتنبَعَل. لذلك وقع اتهامه بالتآمر مع أخواله ضد قرطاجة، فكان جزاؤه أن قتل بضربة قاضية وسط مجلس الشيوخ.

وقد جرت مع عودة الربيع محاولات أخرى لكنها لم يصادفها النجاح هي أيضا. وبهذا فقد أخفق بيزون وهيتيليوس، كما أخفق من قبلهما منيليوس وكنصوينوس. فاهتمت رومة اهتماما شديدا للأمر. وشاع الغضب في الشعب، وتساءل الناس عن سر هذا الإخفاق.

وتصادف أن وصل سبيون إلى رومة ومعه فَماياس، فتنبه الناس مرة أخرى إلى هذا الضابط الشاب القدير. وعند انعقاد الجمعيات الشعبية الناخبة Comices رشح بوبليوس سبيون نفسه لحِسْبة الكرسي Edilité Curule. وكان شابا لم تبلغ سنه بعد لمنصب القنصل، غير أن الشعب انتخبه لمنصب القنصلية، ولكن المسؤول عن الانتخابات رفض تنصيب سبيون فأصر الشعبيون على رأيهم، فاقترح النقباء الشعبيون Tribuns على مجلس الشيوخ إلغاء القانون لمدة سنة، وقبول تنصيب سبيون عن هذه السنة. وفعلا قبل الرأي وتم قبول التنصيب. وتم انتخاب كايوس ليفيوس دروزوس C. Livius Drusus قنصلا ثانياً مع سبيون، فطلب أن تجرى القرعة بينهما لاختيار من سيذهب إلى إفريقيا، ولكن النقيب طلب أن يترك الأمر لاختيار الشعب. وبالفعل فإن الاختيار وقع على سبيون. وأذن له أن يحشد جيشه لإتمام الفيالق، وبأن يتجه إلى الحلفاء ليجند منهم ما يشاء، وأن يطلب باسم الشعب الروماني النجدات ممن يراهم من الملوك والمدن، وكان ممن صحبه في مهمته هذه من المساعدين صديقه لايلْيوس Laelius، كما صحبه أستاذه المؤرخ الإغريقي بوليبْ.

ولنقل كلمة للتعريف بسبيون الأميلي هذا الذي أحرز على ثقة الشعب الذي أصر على انتخابه. إنه بوبْليوس كرنيلْيوس سِبيون

إميلْيانوس P.C.Scipion Aemilianus الذي حافظ له القدر على المجد الوطني الروماني بتحطيم قرطاجة. وهو ابن لوكيوس إيميلْيانوس باوْلوس L. Aemilianus Paulus الذي قهر اللوزيتانيين واليغوريين، كما قهر الملك بيرصي Percée. وكان بوبليوس قد تبناه ابن سبيون الإفريقي. وكان في سنة 151 قد نال ذكراً رفيعا ضد الإسبان. وكان يمتاز بصحة جيدة، كما كان محبا للحياة الرياضية في الهواء الطلق، وكان في آن واحد رزينا ومقداماً، وكان في حياته الخاصة لطيف المعاشرة، كثير التعلق بأحبائه وأصدقائه، وكان ذا ثقافة واسعة لاتينية وإغريقية. قد تلقى الجانب الإغريقي من ثقافته من صديقه وأستاذه بوليبيوس Polibius (بوليب).

أتم سبيون استعداداته فتوجه إلى صقلية، ومنها أبحر على جناح السرعة إلى إفريقيا فنزل بأوتيكا. وجرت معارك كان أهمها لفكّ الحصار عن منكيوس الذي كان قد غامر واقتحم قرطاجة في جانب ميگارا، وهناك حاصره حَسدرَبْعل إلى أن فكّ عنه الحصار سبيون. وجرت عمليات أخرى كان فيها النصر حليفا لسبيون. الأمر الذي أحنق حَسدرَبْعل، فجاء بجميع الأسرى الرومانيين الذين كانوا تحت يده، وعلى مرأى واضح من سبيون وجيشه، مثّل بهم ثم ذبحهم على مرأى منهم ورمى بجثتهم من فوق السور. ولقد وجد من القرطاجيين من تألموا لهذه المذبحة فتكلموا فيها متألمين أو منتقدين، فكان الموت جزاء من تكلموا فسكت الباقون.

فقرر سبيون إحكام الحصار وإحراق المعسكر القرطاجي، وأقام مجموعة من الأحافير والخنادق التي نضدت بها أوتاد مستدقّة الرؤوس،

وأحاط الجميع بسور متين، تتخلله بين مسافة وأخرى أبراج عالية، يمكن منها مراقبة المدينة ورؤية ما يجري بها. وبذلك كان يمنع عن المحاصَرين كل اتصال بالقارة، إذ أراد تجويع سكانها والجيش المدافع عنها في المقدمة.

رأى القرطاجيون جدّية العمل لدى الرومانيين، فقابلوها بجدية لا تقل عنهم، وقرروا أن يحفروا ممراً جديداً وخفياً إلى البحر. فشمروا للعمل رجالا ونساء وأطفالا، يعملون ليل نهار بحيث إنهم كانوا يتبارون في بذل الجهود، وهم يحفرون ويبنون ويجدّون فوق ذلك في بناء أسطول من المواد المختلفة لديهم. ولقد ذعر الرومانيون لما فاجأهم ذات صباح أسطول قرطاجي جديد قوامه خمسون سفينة خماسية وثلاثية، مع عدد من السفن الصغيرة. وجرت المعارك تلو المعارك، كان فيها النصر حليف سبِيْون، ولكنه كان نصرا ثمنه عظيم وكبير.

ولكن القرطاجيين على ما يظهر أخذ الوهَن يساورهم، إلى حد أن حسدربعل قد حاول الحصول على الصلح في لقاءين جَرَيا بينه وبين گُلوسّا الملك النوميدي، الذي اقترب من حَسدرَبْعل وسأله : «... ولكن ماذا تريد مني ؟ فأجاب حَسدربَعل : «أريد أن تكون شفيعا لنا عند سبيون، وأن تعده عنا بالطاعة... وأن تشفقوا على هذه المدينة التعيسة!». فقال الملك : «إن الرومانيين يحاصرونك براً وبحراً... وتنتظر أن تنال منهم ما رفضوه لسفرائك السابقين... وافترقا على أنهما سيتقابلان بعد ثلاثة أيام. وقص الملك على سبيون خبر اللقاء وما يطلبه حَسدْرَبعل، فقهقه ضاحكا، وقال : «كيف ؟ أهذا ما يطلبه القائد الذي كبّد أسرانا تلك المعاملة الخسيسة ؟ وهو بعد تلك الجريمة يرجو أن

تسامحه الآلهة ؟». غير أن گُلوسّا أبدى له وجه الصواب في قبول طلب حسدربعل، وأبان له أن وقت الانتخاب قد حل، ولا يبعد أن يجري انتخاب رجل غيره، يأتي ليجني دونه نعمة الانتصار. فأصاخ سبيون لقول گلوسّا وقال : «أخبرْه أنني أهبُه الحياة، وكذلك لزوجته وأبنائه، ولعشر أسر من قرابته وأصدقائه، وأخبره أني زيادة على ذلك أسمحُ له بعشرة تالانات يأخذها من ثروته، وأسمح له أن يصحب معه مئة من العبيد يختارهم». ولما أبلغه گلوسا ما قرره سبيون في شأنه : ضرب حسدربعل على أفخاذه... وأشهد الآلهة، ثم صاح : «لن يأتي يوم أرى فيه نور الشمس وحريق قرطاجة. إن الرجل المقدام يجد القبر الرحيم في خرائب وطنه».

كان هذا يجري في السر. أما في ميدان المعركة فإن الجيش الروماني قد فتح ثغرتين واسعتين في واجهة المعسكر القرطاجي. فقرر سبيون اقتحام الجبهة ومعه 4000 جندي من الأشداء... فجرت معركة بالغة العنف. وظن المحصورون أن الجيوش عديدة، وأنها لا تتردد في زحفها فتولّوا هاربين، فتبعهم گلوسا مطاردا. فكانت المقتلة شديدة والمجزرة عظيمة. وكانت هذه المعركة هي التي ساعدت على سقوط قرطاجة. إذ كان الليبيون الذين استمروا يساعدونها قد تخلوا عنها لما رأوا في الأخير أن كل مقاومة قد أصبحت لا تجدي. أما المحصورون فقد اشتد عليهم الحصار، وصارت ضائقتهم لا تحتمل، والذين يموتون من الجوع صار عددهم لا يحصى.

وفي أحد أيام مارس أو أبريل وقف سبيون أمام أسوار المدينة وقفة أخيرة، وصفف الجيوش خلفه وعن يمينه ويساره، ورفع يديه إلى

السماء ونطق بالدعائين الرسميين الذي من واجب القادة أن ينطقوا بهما عند الهجوم الأخير المدمّر. وهما أن الأول يدعو الآلهة حامية المدينة العدوّة إلى التخلي عن حمايتها، والرحيل إلى رومة حيث ستجد التكريم والتقديس، وحيث تجد العباد المخلصين. أما الدعاء الثاني فينادي آلهة الجحيم قائلا : «ندعوك جميعا لكي تشيعي الخوف والذعر والفرار في هذه المدينة التي هي... وأن تُشيعي الفرار في الجيش الذي أسميه عن وعي... والذين يحملون الأسلحة ويرمون على فيالقنا القذائف. وجيشنا يدعوك أن تقضي عليهم، وأن تحرمي من نور السماء هذا الجيش وهؤلاء الأعداء، وهؤلاء الرجال ومدنهم وحقولهم وسكان هذه المناطق والمواقع والحقول والمدن. وأن تعتبري هؤلاء الأعداء وحقول ومدن من أسميهم عن وعي ومدن وحقول وذوات وأجيال هؤلاء موقوفة ومكرسة وفقاً للأحوال التي سبق تكريس الأعداء لها بكل قسوة وبكل شدة...». وبعد قراءة الدعائين أمر بوبليوسْ سبِيونَ بالهجوم العام. وكان الهجوم يقصد الكوثون الذي هو الميناء الداخلي المزدوج، وخلفه كان يقع الحوض التجاري، وقد ظنّ حسدرُبَعْل أن جهود الأعداء ستتجه إلى هذه الجهة فأمر بإشعال النار في هذه المباني ليلا. ولكن لايليوس اتجه، وهم في غفلة عنه إلى الحوض المستدير الذي هو الميناء الحربي، فاستولى عليه بعد معركة لم تكن عنيفة لأن الجيش الحامي كان منهوكا بالتعب والجوع. وبسقوط الميناء العسكري أمكن للجيوش أن تتقدم وأن تستولي على معبد أپولون الذي تمثاله الذهبي كان منتصبا في قبّة. وكان يزن ألف تالان، وتغطيه رقائق الذهب التي أزالوها برؤوس حِرابهم وتقاسموها فيما بينهم.

فالتجأ الناس إلى قلعة بورسا Byrsa، فتأهب سبيون للهجوم الأخير. وكانت المنازل تعلو بستة طوابق، والناس منها يقذفون الجيش الروماني بكل ما يجدونه من سهام وحجارة. فتقدم الجيش لهذه المنازل العالية وطرد عنها من كانوا بها، ثم عَبَروا الفراغ الذي بين الطرق والأزقة والدروب على جسور هيأوها من ألواح الخشب. وهكذا بينما كانت المعارك فوق السطوح كانت معارك أخرى على الأرض في الطرق. وكان الصياح والعويل والأنين يصمّ الآذان. وكان الموت ماثلا في كل مكان، في ساحات القتال، وممن يُرمى بهم أحياء من فوق إلى الطرق فيتهشمون على الأرض أو تتلقفهم السيوف والرماح. ولم يلبث أن أصدر سبيون أمره بإشعال النيران وبتسوية الخرائب بالأرض ليسهل مرور الجنود القادمين المأمورين بالتدخل. وكان الرومانيون يرتكبون هذه القسوة مندفعين بنشوة النصر، فكانت غدوات الجنود وروحاتهم تحت قيادة الضباط ونداءات الآمرين وأصوات الأبواق، كل ذلك كان يجعل من المعركة هيجا يصدع النفوس ويوهي بالأحلام. فمن هنا كانت تخرج ساق لا تزال تتحرك من تحت ركام الأحجار والأتربة، ومن هناك تتراكض الخيول فتسحق الرؤوس وتطير الأدمغة. وسِبْيون واقف، هادئ متنبه يعطي الأوامر ويراقب التنفيذ.

ستة أيام وست ليال في هذا العذاب الأليم. وفي السابع خرج بضعة رجال من بورسا Byrsa ضارعين راغبين متلهفين يطلبون القائد أن يمنّ عليهم بهبة الحياة فحسب. فقبل سبيون... وفي الحين بدأ آخرون يخرجون في موكب طويل من 50.000 رجل وامرأة سلموا إلى الحرس. أما حسدرَبْعل فقد حمل غصن الضراعة وذهب ليلتحق بسبيون، فلثم

على ما قيل أقدامه، فأجلسه سبيون عند أقدامه وعفا عنه. ولما رأته زوجته على تلك الحالة ضمت إليها ابنيها ونادت الآلهة في صلاة حرى ثم ارتمت في اللهيب.

كان القضاء على قرطاجة مهمة شديدة وقاسية، قررتها رومة وهي تحسب أن الأمر يسير، حتى فوجئت بالعراقل والمصاعب، وفوجئت على الخصوص بالمقاومة العنيفة للشعب القرطاجي. فوقفت موقفا صعبا لا يمكن التنصل منه، ولا يمكن متابعته إلا بشق الأنفس. فكان ما كان من شرور نالت رومة أيضا في كبريائها، خصوصا عندما عبر حنيبعل جبال البريني وجبال الألب ونزل الهضبة الإيطالية يصول ويجول. ولكن الأيام تتقلب حظوظها خيرا أو شرا، فانقلبت في الأخير على قرطاجة.

ولما وصل الخبر إلى رومة بسقوط المدينة اهتزت المدينة فرحة، واجتمع مجلس الشيوخ وقرر أن يبعث بعشرة من أهم أعضائه إلى إفريقيا ليهنئ القائد بانتصاره. ولما وصل الوفد أمر سبيون بتهديم كل ما بقي واقفا في قرطاجة، ثم قرئت دعوات مجلس الشيوخ على موقع المدينة : أن لا يسكن ولا تقام به مدينة أخرى.

أما المدن الأخرى التي بقيت وفية لقرطاجة فقد أبيدت، وأما المدن التي والت رومة إبان الحرب، فقد أعلن أنها مدن حرة. وأنها صديقة للشعب الروماني، ونالت جزاءها قسماً من الأراضي المفتوحة. أما أوتيكا التي والت وأخلصت الولاء، فقد اتسعت رقعة أملاكها، وأصبحت ممتدة حتى مدينة هيبو Hippo (أي مدينة بنزرت) شمالا. أما قرطاجة

وممتلكاتها فقد ضمتها رومة إلى ممتلكاتها خوفا من سيطرة الأمراء النوميديين عليها، وخوفا من أن يحيوا قرطاجة من جديد. وحفر حفير (خندق) هو الحفير الملكي لتحديد الحد في المنطقة الرومانية الجديدة التي هي ولاية أفريكا Africa.

وأذن سبيون لجنوده بالنهب والسلب بعدما نحّى جانباً الذهَب والفضة والأشياء الثمينة التي قيل عنها إنها قد بعثت إلى رومة. ولم يحتفظ هو بشيء منها لنفسه. وقام بمكافأة جميع جيوشه. ثم عاد إلى رومة، فأقام موكب تمجيده، وأُنعم عليه بلقب الإفريقي فصار سبيون الإفريقي Scipion Africanus.

ولقد بيع الباقون من سكان قرطاجة عبيدا في سوق النخاسة. وهكذا انتهت قرطاجة وانتهت معها إمبراطوريتها.

18

قرطاجة في مستعمراتها : علاقات غير ودّية...

لعل إشارة إلى السلوك المستقبلي لهؤلاء الساميين الواردين على البلاد نجدها في جواب أليسّا (ديدون) على طلب الملك هيرباس بالتزوج منها، إنها فضلت أن تلقي بنفسها في اللهيب على قبول الزواج منه.

وذلك هو السلوك نفسه لقرطاجة فيما بعد، وعلى طول تاريخها مع البربر (الأمازغة)، إلا في بعض الأحوال الشاذة. والبربر أنفسهم كانوا يعاملونها بحذر وحيطة.

لقد توسعت قرطاجة – بعد أن اشتد ساعدها – في الغرب فأنشأت المستعمرات خصوصا لدى الأهالي، ولم تكن هذه المستعمرات مدنا بالمعنى الصحيح، وإنما كانت متاجر ومخازن للبضائع والمؤن. حتى إذا كان حنّون ورحلته فإن الأمر قد انعكس، وتأسست مدن بالمعنى الصحيح فأنشئت مليسّا Melissa، وتمْياطيريون (المهدية) وأكْرا Acra وجيتي Gitté، وكَريكون طيخوس Caricon Thechos، وأبعد من هذه جميعا أنشئت مدينة قيرني Cerné.

والنصوص تذكر نوعين من المستوطنات التي أقامتها قرطاجة بشمال إفريقيا، هما: الأمبوريات Emporia التي كانت على طول الساحل فيما بين السدرتين، والنوع الثاني هو المدن الميتاگونيةMétagonitis وهذه كانت بين رأس بوقرعون Bougaroun والمحيط الأطلسي. ويسكن المجموعتين من كان يطلق عليهم اسم الليبيين الفينيقيين Libyphéniciens. وهم مجموعة المعمّرين من أصل فينيقي يسكنون بالمدن البحرية التي أسسها الفينيقيون من قبل أو القرطاجيون من بعد. ومع هؤلاء كان يدخل لهذه المدن – زائرين أو مقيمين – بعض الأهالي الذين كانت لهم علاقات تجارية مع الليبيين الفينيقيين، ولكن لم يكونوا يتمتعون بأي حق من الحقوق الخاصة بالأولين. وقد ذكر التاريخ اسم الملك هيرباس، ولكننا لا نعرف أي شيء عن دولته وموقعها وحدودها وأنظمتها، وإنما نعرف أنه كان موجودا في أواخر القرن التاسع عند تأسيس قرطاجة سنة 814-813 ق.م. وندخل بالنسبة للبربر في ظلمات

التاريخ إلى أن نجد بطنجة مَلكاً اسمه باگا Baga، وهو أيضا لا ندري عنه أي شيء سوى أنه ساعد مَسِنيسا بعشرين ألف فارس، استعان بهم مسنيسا في حربه ضد سيفكس لاسترجاع ملك أبيه. فهل يكون قد ساعده بمائتين أو بألفين، لا ندري، ولكن إذا كان قد ساعده بعشرين ألفا من الفرسان يكون إذن ملكا عظيما وقويا. وقد قيل إنه زوده بأربعة آلاف جندي فحسب. وقبل ذلك كان حنّون قد ثار ضد قرطاجة في منتصف القرن الرابع فدعا لنجدته ملك الموريين. وفي نهاية ذلك القرن نفسه جاء إيلماس Ailymas ملك الليبيين بنجدة لأگاتكليس، ولكن هذا الأخير تربص به حتى تمكن منه وقضى عليه وعلى جيشه. وكان ذلك لسبب لا ندريه. فهؤلاء ثلاثة من الملوك لا ندري شيئا عن دولهم ولا عن حدودها ونظمها.

أما سيفكس فهو ملك الماسيسيليين Masaesyles. وهي قبيلة من نواحي تطوان خرج بها سيفكس من أراضيها غازية، فاستولى بها على الأرض إلى شرق وادي تفنا بغرب الجزائر. وهناك من عاصمته سيگا Sigga أخذ يغير ويستولي حتى دخل سِرْتا (قسنطينة فيما بعد). فهل يكون الملك باگا قد ساعد مسنيسا خوفا من سيفكس على مملكته ؟

إن الذي نعلمه هو أن بغرب الجمهورية القرطاجية كانت تقوم مملكة گايا أبي مَسِنيسا الذي كانت تربطه بقرطاجة روابط الود والصداقة والحلف، إلى حد أن مسنيسا ابن گايا قد كان في الجندية ضمن جيوش قرطاجة المتحاربة في أسبانيا، وأنه كان صديقا لحسدربعل قائد الجيوش القرطاجية في أسبانيا، وأنه كان خطيبا للفاتنة صُفُونة بَعل (صفونسبي Sophonisbé) ابنة حسدربعل. ولكن سيفكس استولى على أراضي مملكة گايا بعد موته إلى أن جاور قرطاجة، فاعترفت له بما

نالته يده. بل إنها قد زوجته من صفونة بعل، وكل هذا أشعل نار الحقد في مسنيسا على قرطاجة وسيفكس، الأمر الذي جعله يصغي لقول سبيون وينضم إلى صفوف الرومانيين.

لقد كانت معاملة قرطاجة لهؤلاء الملوك معاملة فيها الكثير من التلون والتنوع بحسب الظروف وما تقتضيه. وعلى كل فإنها وجدت في هذه الدول وملوكها خير مساعد لها في نفوذها الفكري والروحي والتجاري على الخصوص. كما أنها وجدت فيهم مَعيناً لا ينضب للجيوش التي تطلبها كلما احتاجت إليها، ومع ذلك لم يكونوا يحظون بأكثر من التكريم البعيد الذي لا يصل إلى حد نيل الحقوق الخاصة بالمواطنين القرطاجيين. لذلك كانوا يصبحون أحيانا أعداء يحاربونها ويقتطعون من تراب ولايتها مواقع على البحر وموانى بالساحل الجزائري.

فالجيش القرطاجي كان عادة يكونه المواطنون القرطاجيون العادون أو النبلاء.

وبجانب هؤلاء كان متكونا من الرعايا الأهالي المولودين بمنطقة التراب الذي تمتلكه قرطاجة في إفريقيا، ممن كانت الخدمة العسكرية مفروضة عليهم. كما يكونه المساعدون ممن يقدمهم حلفاء قرطاجة لها عند الحاجة. ومن المرتزقة العاملين في الجيش القرطاجي بعقدٍ غالباً ما ينتهي بانتهاء الحروب التي انخرطوا فيها. وكان مصدرهم هو بلاد غرب البحر الأبيض المتوسط بضفتيه الشمالية والجنوبية. وقد كان هؤلاء المرتزقة بالخصوص مطلوبين في قرطاجة، لأن عبأهم كان خفيفا على الدولة، يتلخص في أداء الجراية فحسب، وإذا انتهت الحرب ذهبوا لحال سبيلهم. ولكن هل كان يحلو للبعض منهم أن يبقى ليقيم بالمدينة حُراً ؟ الأمر ممكن ولكن لا دليل عليه.

والنصوص كلها تذكر الليبيين Libyes أو الأَفْري Afri في الجيوش القرطاجية. ففي سنة 480 في حرب هيميرا كان هؤلاء الليبيون في الجيش الذي قاده عَملْكار بصقلية. كما أن الليبيين قد شاركوا في جميع الحروب بصقلية إلى غاية أواسط القرن الثاني في سنة 150 وما بعدها. ففي سنة 311 كانوا يكونون كلتة من 10.000 جندي. أما عددهم عقب الحرب البونيقية الأولى ممن غادروا جزيرة صقلية بعد حربهم ضد الرومانيين فكان 20.000 رجل. ومع حنيبعل في مسيرته إلى إيطاليا كان منهم 12.000، وبقي منهم 8000آلاف أخرى تركهم حنيبعل يحرسون أرض غالْيَا وأهلها، لأنه أخذ من الغاليين 50.000 ألفا على ما قيل ترك منهم 30.000 بأرض الموريين لحراستها وأهلها.

وكان عملكار عقب معاهدة الصلح التي عقدتها قرطاجة مع رومة عقب الحرب البونيقية الأولى قد غادر صقلية مخلفا وراءه فيها جيشا من المرتزقة قوامه 20.000 رجل ثلثاهم من الليبيين. وبعد أن أعيدوا إلى إفريقيا جمعتهم قرطاجة في مدينة سيكا Sicca (الكاف)، فأخذوا يطالبون بديونهم على قرطاجة. وديون الجيوش هي المتخلّف من الجراية، كما طالبوا بأثمان خيولهم التي قتلت في المعارك، وبثمن أسلحتهم التي فقدوها في الحرب. كما طالبوا بثمن القمح الذي لم يصلهم وكانوا يطلبون بأشد الأثمان ارتفاعا. ويلحون في الطلب. وكانت الخزينة عاجزة عن الأداء، فتنصلت السلطات القرطاجية ما استطاعت، ولكن الجيوش كانت تبدي الغضب وتلح في الطلب، فقررت قرطاجة أن تبعث وفداً برئاسة حنّون، الذي عوضاً عن الأموال فإنه حدثهم عن مصاعب قرطاجة وعن فداحة الغرامة التي فرضتها رومة على قرطاجة. وطلب منهم التنازل عن بعض ما يجب لهم.

19

حرب المرتزقة

اشتد الغضب والهياج في معسكر الغاليين والإيبيريين والليغوريين وفي معسكر أهل الباليار، وعلى الخصوص في معسكر الليبيين. وكانوا يشعرون بالمهانة وبالتلاعب بهم، لذلك قرروا الزحف على العاصمة، واحتلوا تونس. فأبدت قرطاجة بعض التفهّم وأرسلت جيسكون الذي كان المرتزقة يطمئنون إليه، فحمل المال يترضّاهم به.

وهنا يظهر عنصر آخر هو أن الليبيين كانوا يخشون على أنفسهم. وكانت لهم أحقاد قديمة على قرطاجة ظهرت في هذه المناسبة بحدة. وبرز زعيم ليبي هو ماثوسْ Mathos، فخاطب الأفارقة بلغتهم وأنذرهم بأن قرطاجة ستثأر منهم حين يعود الآخرون إلى أوطانهم، فأصاب قوله آذاناً صاغية وكثر الهياج، وتصادف أن جِسْكون لم يكن قد أدى جميع الجرايات بسبب عجز الخزينة عن ذلك، وأنه أرجأ ثمن الخيول والقمح إلى ما بعد، فقام أحد العبيد القدماء عند الرومانيين، وكان عبدا آبقا هو سبنديوس Spendius وكان يخشى أن تدفعه قرطاجة للرومانيين، فقام خطيبا في الجموع فأثارها. كل هذا وجسكون يجد في التهدئة إلى أن ارتمى الليبيون عليه وعلى صناديق المال الذي كان يحملها، ثم ارتموا على جسكون نفسه فأسروه، وأسروا من معه وعاملوهم معاملة سيئة، وأغلوهم بالسلاسل وأودعوهم في السجن. وسارع ماثوس فبعث إلى المدن يدعوها للثورة فاستجابت. وانضم إليه 70.000 رجل فذهب لحصار أوتيكا وهيبو (بنزرت). وجرت معارك لا داعي للإطالة هنا

بذكرها، ولكن يكفي أن نذكر أن عملكار بقضّه وقضيضه تولى إخضاع الثوار بعد أن ذاع خبر قتل جسكون هو ومن معه من القرطاجيين. وجرت مقتلة هائلة في الثوار اضطروا لطلب الصلح بعدها. فأجيب إلى طلبهم بشرط واحد اشترطه عَملِكار هو أن قرطاجة يكون لها الحق في اختيار عشرة أفراد تحتفظ بهم لنفسها، أما جميع الباقين فيمكنهم الانصراف إلى حيث يشاؤون. وقد قبل الطلب، فكان العشرة المختارون هم أعضاء الوفد وفيهم كان سبانْديوس وغيره من زعماء المرتزقة. أما ماثوس فقد اعتقل في إحدى المعارك. وبعد أن قتل العشرة وماثوس انتهت حرب المرتزقة التي دامت ثلاث سنين وأربعة أشهر.

لقد رأينا أن سبب حرب المرتزقة كان هو عجز الخزانة القرطاجية عن الوفاء بالوعود التي قطعتها على نفسها. ولكن هذا السبب كان سببا أولياً، لم يلبث أن انقلب إلى المنحى الذي أعطاه لها ماثوس وهو الحقد والكراهية لقرطاجة التي كانت لا تحسن السلوك مع الأقوام المغلوبين والمحكومين.

غير أن قرطاجة بالرغم عن ذلك كانت بحضارتها وبثقافتها قد أثرت في أهل إفريقيا تأثيراً عميقاً. حتى إن مَسِنيسا قد قرر اتخاذ اللغة البونيقية في دولته لغة رسمية، وأقام دولته على أسس الحضارة البونيقية، في الدين وفي العادات المجتمعية.

الكتاب الثالث

الرومنيون بإفريقيا (*)

يكاد يكون تاريخ الرومان بإفريقيا تاريخاً لرومة خارج الهضبة. وهذا التاريخ ينحصر بين ستّ معارك كبرى، أو حروب هامة، هي :

1 – الحرب البونيقية الأخيرة التي امتدت من 149 إلى 146 ق.م. وانتهت بتدمير قرطاجة، وتحريم إقامة قرطاجة ثانية أو ما يشابهها. وهذه قد رأيناها في فصل سابق.

2 – حرب يوغَرْطَة التي امتدت من سنة 111 إلى 105 ق.م. وسنعرض لها ببعض التفصيل فيما بعد.

3 – حرب قَيْصَر ضدّ مشيخة رومة التي انتقلت إلى إفريقيا وخاضها قيصر ضد ملك نوميديا يوبا الأول. وانتهت بموت هذا الملك والسيطرة على دولته، وإنشاء أفريكا الجديدة Africa Nova في سنة 40 ق.م.

4 – حرب تَكْفَريناس Tacfarinas التي دامت ثمانية أعوام (17-24م) ضد قبائل الموسُلام Musulames التي كانت مساكنها بالمنحدرات الجنوبية لجبل الأوْراس Aurès.

(*) عن مومْسِن وأوجين ألْبرتيني و فيكتور شابو في "إفريقيا الرومانية" بترجمتنا العربية باختصار.

5– حرب أيدمون وصلاب ضد كاليگولا Caligula وكلود Claude بعد اغتيال بطلِمي ابن يوبا الثاني ملك موريطانيا وقد دامت الحرب من سنة 40-44 للميلاد.

6– الحروب المتوالية التي قام بها البكْواتيون وانتهت بقرار ديوكْلِتيان Diocletien بالتخلي عن موريطانيا سنة 285 أو 287م.

على أن هذه الحروب لم تكن وحدها التي عرفتها البلاد، فهناك حروب أخرى عديدة ولكن هذه هي أهمها على ما يبدو. فهي كبداية لفصول قصة السيطرة الرومانية على البلاد وأهلها.

وقصة السيطرة الرومانية على شمال إفريقيا هي قصة الحظوظ أو المقادير التي سطرتها رومة وبيتتها للاستيلاء على البلاد حسب الظروف التي كانت تخلقها هي وتسهر هي على تنفيذ ما خططته.

فأما ما يتعلق بالمنطقة البونيقية، فقد استولت عليها رومة استيلاء كاملا. ولكن رومة استعملت الأناة ولم تندفع إلى الأمام، لأن الأراضي المجاورة كانت لحلفاء تقتضي السياسة الحكيمة بالمحافظة على ودّهم.

فكانت ولايتها – وهي أفْريكا Africa – تحدّ من جهتي الغرب والجنوب بين ثَبْراكا Thabraca (طبرقة) وثيناي Thaenae (هنشير تينا) بالحفير في مواجهة جُزر قرقنة. وكانت العاصمة هي أوتيكا (بوشْطور Bou Chateur) التي استفادت اقتصاديا وإنسانيا بورود السكان عليها، خصوصاً من النبلاء الذين استولوا على الأراضي الفلاحية، ومن التجار الذين تعاطوا التجارة بكل حرية مع السكان الأهليين.

وبجوار منطقة أفريكا هذه كانت تقوم مملكة مسِّبْسا Micipsa ابن الملك الحليف مَسِنيسا. وكانت المملكة كما سبق أن رأينا يقوم على تسييرها هذا الملك الخاضع لتدبيرات وإرشادات سِبْيون، الذي كان مَسِنيسا قد أوصى أبناءه باتباع إرشاداته فيما يعرض لهم من الأمور الشديدة. وبهذا فالمملكة كانت، وكأنها تحت وصاية رومة، إن لم يكن قانونياً ففعلياً على الأقل، إلى أن يتحول الأمر إلى الوصاية الحقيقية فيما بعد.

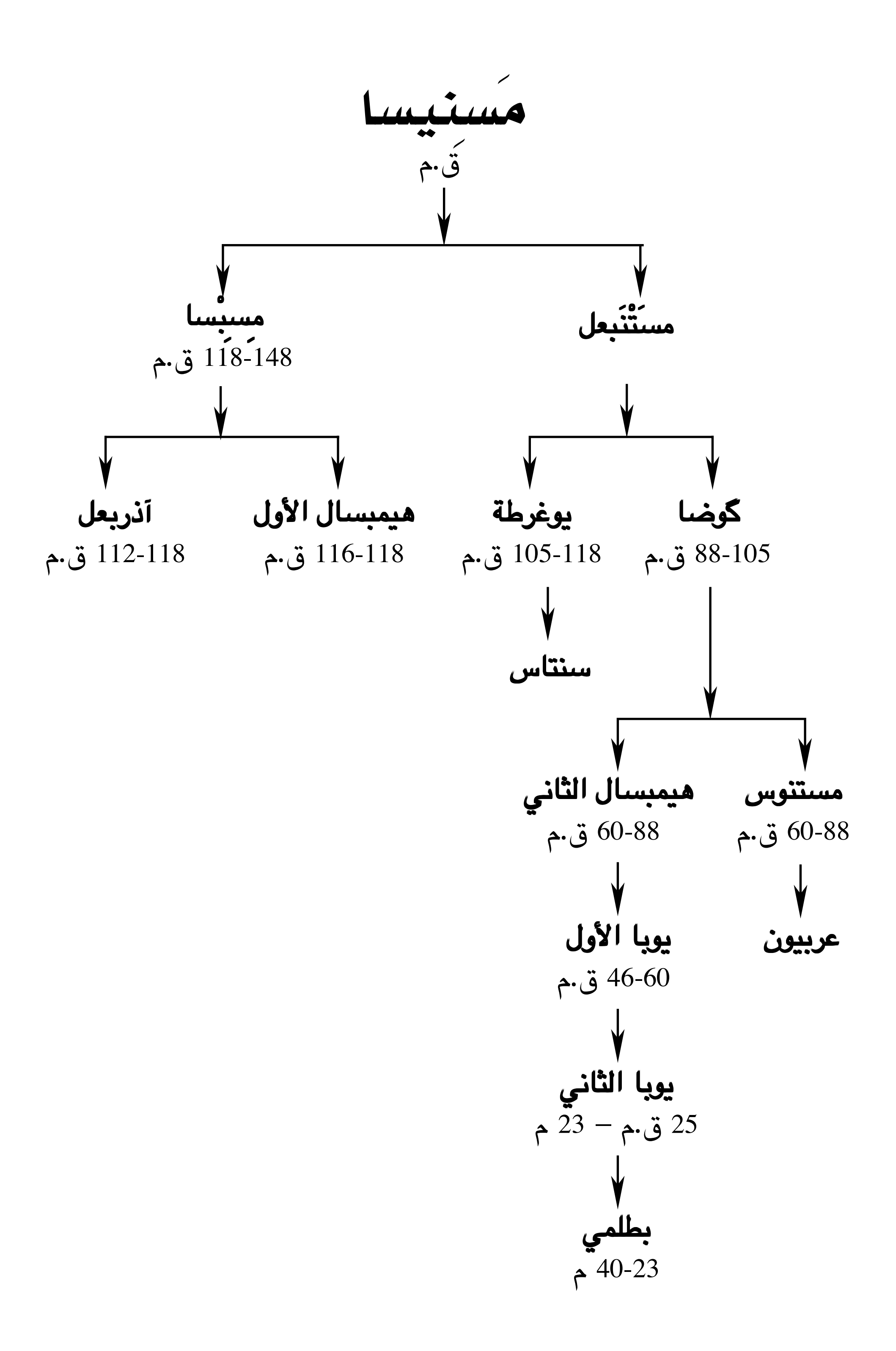
ونحن نعلم حدب مسِبْسا على يوغَرطة ابن أخيه مستَنْبَعْل الذي عاد من أسبانيا مظفّراً بالنصر مع الجنود النوميديين الذين كانوا في إيبيريا يساندون رومة في حربها هناك. ونعلم أن مسِبْسا أوصى بولاية العهد لابنيه آذرْبَعْل Adherbaal وهيمْبسال Hiempsal ومعهما يوغرطة Jugurtha على قدم المساواة. كما أوصى لابنه گوضا Gauda بولاية العهد من صفّ ثانٍ أي بعد غياب الأولياء الثلاثة المذكورين سابقا. وبعد موت مسِبْسا وتنصيب سِبْيون للأولياء الثلاثة الذين وزّع عليهم مناصب الدولة ومرافقها، حدث خلاف بينهم أفضى إلى قتل هيمْبسال، في قصة طويلة ومملّة دعت إلى تدخل رومة في الحرب بين آذرَبْعل ويوغرطة، الذي كثيراً ما كان يشتري ضمائر أعضاء مجلس الشيوخ برومة. فكان يميل معه منهم بعض النبلاء دائما.

ملوك الأسرة المسينية
مَسِنيسا وذُريته

نعرف لمسِنيسا ثمانية أبناء هم :

1- گُلوسّا	**Gulussa**	**2- مَسْتَنْبَعل**	**Mastanabal**
3- مِسِبْسا	**Micipsa**	**4- مَسَگابا**	**Masgaba**
5- مَسِيجين	**Massagène**	**6- بوغوت**	**Bogut**
7- ستِمَبنوس	**Stembonos**	**8- بنت مجهولة الإسم ؟**	

ويعنينا منهم اثنان هما مستنْبَعْل ومِسِبْسا اللذان كانت ذريتهما كما يلي : (انظر الصفحة التالية)


مَسَنيسا
قَ.م
مسبْسا
118-148 ق.م
مستَنْبَعل
آذربعل
112-118 ق.م
هيمبسال الأول
116-118 ق.م
يوغرطة
105-118 ق.م
گوضا
88-105 ق.م
سنتاس
هيمبسال الثاني
60-88 ق.م
مستنوس
60-88 ق.م
يوبا الأول
46-60 ق.م
عربيون
يوبا الثاني
25 ق.م – 23 م
بطلمي
40-23 م

على أن تدخّل رومة في الحرب بين آذربعل ويوغرطة، إن كان في الظاهر لمناصرة صاحب الحق، فقد كان لغاية أخرى ترمي وراءها رومة التغلغل والسيطرة على البلاد. فنوميديا التي كانت مسرحا للأحداث، كانت تتصل ترابياً بولاية أفريكا. فيجوز على الأقل أن نفرض أن رومة كانت تخشى أن تطير شرارة الحرب إلى منطقتها، أو أنها كانت تخشى أن تقوم بجانبها مملكة على رأسها ملك نشيط ذكي هو يوغرطة. كما أن لرومة مصالح اكتسبتها من صداقتها أو من حلفها مع مَسِنيسا مؤسس الدولة النوميدية، ومع ابنه مسِبْسا من بعده، واكتسبتها بحق النظر الذي خولته لها وصية مسنيسا وهو على فراش الموت.

ويضاف لذلك أن رومة كانت في حاجة إلى القمح والشعير. ونوميديا تنتج منهما الشيء الكثير، ونحن نذكر أن نوميديا في عهد مسنيسا قدمت منهما عن سخاء مساعداتها لرومة من هاتين المادتين. من ذلك أنها في سنة 200 ق.م قدّمت 200.000 بواصو من القمح و 200.000من الشعير و 1000 فارس نوميدي عوناً لها في حربها ضد فيليب المقدوني. وفي 198 ق.م أعانها في نفس الحرب بإرسال 10 أفيال و1000 فارس و200.000 بواصو من القمح. وفي 191 ق.م أعانها ضد أنْتيوخوس بإرسال 500 فارس و20 فيلاً و 500.000 بواصو من القمح و300.000 بواصو من الشعير. وفي 171ق.م أعانها في الحرب ضد بيرصي بإرسال 22 فيلا و1000 من المشاة و 1000 فارس بقيادة ابنه مسّجين Missagene. وفي 170 أرسل لجيشها في مقدونيا 1000.000بواصو من القمح. والبواصو مكيال قديم للمواد الجافة يزن نحواً من 13 كيلو.

ثم إن رومة تغص بالعاطلين عن العمل وبالفقراء الغاضبين، وحرب نوميديا فرصة حسنة لشغل هؤلاء العاطلين، ووسيلة لإبعادهم ولو مؤقتا عن المدينة التي كانت تشكو من ضغطهم عليها. وأخيرا فإن الحرب سبيل بعض الكبراء إلى الزيادة في ثروتهم وتوسيع شهرتهم.

ولقد وجدت رومة السبب الذي يسوغ لها الدخول في الحرب، حين علمت أن يوغرطة لما استولى على سرْتا قبض ابن عمه آذرْبَعْل الملك الحقيقي لنوميديا، وفي نفس الوقت أعدم معه جميع الرومانيين الذين كانوا يساندونه في سرتا. فتحسرت رومة على موت هؤلاء، وتألمت على (مجد الإمبراطورية)، وعبّرت عن توددها لميتلوس عند ذهابه للحرب. فمن هذا كله يتضح أن رومة – حكومة وشعباً – كانت متعلقة بهذه الحرب، وأنها أرادتها هي لأسباب مادية واستعمارية لاشك فيها. ونستطيع تصور بعض هذه الأسباب المادية مثلا فيما ذكر بلوتارك في ترجمة مريوس (في الفصل 12) من أنه حمل إلى رومة 3007 ليبرة ذهبية، و5775 ليبرة فضية غير مسكوكة، ومن المسكوكات حمل 17028 درهما. ولا يدخل في هذا غنائمه هو وغنائم جنوده التي سلبوها ونهبوها، كما لا يدخل الأسرى الذين نجهل عددهم.

ولاداعي لذكر تفاصيل المعارك، وإنما نذكر هنا أن انتصار رومة على يد مريوس كان فرصة لهذا الأخير لينصب گوضا ملكاً على نوميديا، لأن السبيل قد خلت أمامه لذلك بموت هيمْبسال وآذربعل ويوغرطة.

في بداية هذا الفصل قلت إن تاريخ الرومان بإفريقيا يكاد يكون تاريخا لرومة خارج الهضبة الإيطالية.

ولبيان ذلك يحسن أن نرجع بذاكرتنا إلى الظاهرة التي طبعت المجتمع الروماني، وكان لها نتائج هامة في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وهي ظاهرة التناقض الفاحش في الثروات، تناقضاً أوجد طبقة الأغنياء المترفين الذين هيمنوا على السلطة وخصّوا أنفسهم بمناصب السيادة والحكم لصون امتيازاتهم، وطبقة الشعبيين الذين حرموا من هذه الثروة – وربما حتى من القليل لمعاشهم البسيط – فكانوا يتطلعون للثروة كما يتطلعون للحكم أيضا. ومن هنا كانت هذه السلسلة من الأحداث الجسيمة التي ملأت تاريخ رومة. وهي أحداث كانت تهدف إلى تغيير جذري في الأوضاع. فامتازت بكونها أصبحت مشكلة تتطلب حلاً حاسماً. وذلك هو ما فهمه تيبيريوس كْراكوس Ti.Gracchus حين صاح قائلا : «إن الوحوش المفترسة بإيطاليا لها غيرانٌ تأوي إليها، بينما الرجال الذين يحاربون ويموتون من أجل إيطاليا لا يملكون سوى الهواء والنور. إنهم يتيهون في البراري مع أزواجهم وأبنائهم، وليس لهم بيت ومأوى. وإن القادة ليكذبون حين يحثّون جنودهم أن يدافعوا عن بيوتهم وقبور آبائهم. فليس للجنود منازل ولا مقابر يدفنون فيها آباءهم...».

وضاعت هذه الصيحة، ولم تفد الجهود التي قام بها تيبيريوس. ولم تفد من بعده جهود أخيه گايوس. ومات تيبيريوس سنة 133، كما مات گايوس سنة 123، والنبلاء في تصلبهم جامدون. فواجههم الشعبيون بكل شدة في مطالبهم، حتى كانت حرب يوغرطة التي قال عنها سالوستيوس : «إنها لأول مرة دفعت الشعبيين لأن يواجهوا وقاحة النبلاء في صراع اضطربت فيه كل القوانين السماوية والأرضية...».

وتمخض الموقف عن انتصار النبلاء من جديد، فأُلغِيت فكرة الإصلاحات وتوزيع الأراضي، وخابت آمال أهل إيطاليا في نيل حقوق الرومانيين، إلى أن حدث الخلاف بين يوغرطة وآذربَعْل سنة 111 ق.م، فتدخلت رومة، وكان الحزب الديمقراطي قد وجد هو أيضا في هذه الحرب الوسيلة المتاحة فجعل منها، أي من هذه الحرب، حربا وطنية تجري باسم رومة وشعبها الذي يخوض المعارك مضحّياً بكل غال ونفيس. فوقف زعماؤه النقباء الشعبيون بالمرصاد للنبلاء يراقبونهم ويحاسبونهم ويشهّرون بخسّتهم وخيانتهم. وفي هذه الظروف الشديدة ظهر زعيم شعبي فريد، نبغ من أوساط الشعب، لا تجري في عروقه قطرة من دم النبلاء. إنه مَرْيوس Marius الذي نال منصب القنصلية، والذي حلّ محل ميتلوس Mitellus في قيادة جيوش إفريقيا. فسيّر الحرب بها باقتدار، وتمكن من أسر يوغرطة والقدوم به أسيراً إلى رومة، حيث سُجن في سجن التّليانوم Tulianum إلى أن قتل بسجنه.

ولم تنته المشاكل الرومانية بالقضاء على يوغرطة، بل لقد استفحل الأمر بالخلاف بين مَرْيوس ومساعده القديم سولا Sylla، إذ اشتعلت الفتن وانقلبت إلى حرب أهلية بينهما، الأمر الذي أفضى في النهاية إلى تكوّن حُكْم الثالوث الأول بعد خلاء الجو من مريوس وسولا. والثالوث هو حكم ثلاثة أفراد متفقين في الرأي وفي المنهج السياسي. وكان هذا الثالوث متكونا من بومْبي، وقيصر، وكْراسوس. فقيل عنه إنه الوحش ذو الرؤوس الثلاث حسب رأي خصومه النبلاء، ولكنه كان يجمع بين المجد والعبقرية والثروة، أي مجد بومْبي صاحب الانتصارات الباهرة على القراصنة الذين كسحهم عن البحر الأبيض المتوسط، من أعمدة هرِقَل

إلى الدَّرْدَنيل (الهيلسبونت)، والذي أراح رومة من خصمها العنيد ميثْريدات Mithridate، كما كان متكونا من نبوغ قيصر وعبقريته في التخطيط والتنظيم والتنفيذ، ومن ثروة كْراسوس الغريب الأطوار الذي كان مُرابياً واستفاد ثروته من المضاربات. فعينته رومة على رأس جيش للقضاء على ثورة العبيد التي قادها سْبارْتاكوس Spartacus. والذي يظهر أنه انضم لصاحبيه بومْبي وقَيْصر لما رأى أن الرياح توجه قلوعهما كما يقال. أي لما فهم أن النصر حليفهما، لذلك سارع وانضم إلى الحزب الديمقراطي. ولكنه مات أسيرا عند الفرطيين الفرس الذين ذهب لقتالهم.

وتحدُث الحرب الأهلية الثانية بين بومبي وقيصر الذي ينتصر في معركة فرسال بمقاطعة ثيساليا Thessalie. ولكن قيصر لم ينعم بالانتصار في فرسال، ولم يهدأ خصومه. لأن الشيوخ الذين لم تصلْهُم يده عادوا فتجمعوا ونظموا صفوفهم في أرض إفريقيا هذه المرة، في مدينة ثابسوس Tapsus. وقد تعززت صفوفهم بموالاة الملك البربري يوبا (الأول) ابن هيمبسال الثاني ابن گوضا، الذي نصّبه عليها مَرْيوس كما سبق أن رأينا. فالملك يوبا الأول كان يعتبر نفسه مديناً لرومة – ولمجلس شيوخها – بمملكته، ولذلك ساند الشيوخ وحمل السلاح في وجه قيصر. وكان قيصر قد نزل بجيوشه في ولاية أفريكا التي كان قد حل بها النبلاء والتجار والبَبْلِكانيون Publicains أصحاب الصفقات، فازدهرت الحياة الرومانية بها بعاصمة جديدة هي أوتيكا (بوشطور Bou chateur)، ولكن بعيدا عن قرطاجة وذكراها. وقد جرت الحرب بين قيصر والشيوخ ومعهم يوبا فاندحروا شرّ اندحار، فانتحر يوبا، وأخذ ابنه الطفل يوبا أسيرا. فمر في موكب التمجيد القيصري برومة مع الكبراء

والأمـراء الأسـرى، ومع الغنائم المـعـروضـة على أنظار المـتـفـرجـين المصفقين والصائحين بحياة قيصر المجيد.

وانطلقت يد قيصر حرة في إفريقيا تخطط وتفصل كما يريد. فبادر بأن أعلن رفع التحريم عن قرطاجة، وأصدر أمره أو إذنه بإقامة قرطاجة من جديد، وأصدر أمره بالسيطرة على مملكة يوبا، وبإنشائه فيها ولاية أفريكا الجديدة Africa Nova، كما اقتطع بالساحل قطعة ترابية هامة أعطاها للمُرابي سِتّْيوس Sittius الذي والاه وسانده برجاله، فجازاه بقطعة واسعة من الأرض تغيب عنا حدودها. ولكن ستيوس وهو روماني مُفلس ومتمرّد يتبعه جيش من الغوغاء، أعلن نفسه ملكا على ما نالته يده.

أصبحت أفريكا الجديدة على أبواب موريطانيا، التي صارت كما يقال في بلعوم الذئب. لقد كانت آنذاك تمتد من المحيط إلى مصب نهر أمْبساگا (الوادي الكبير). وعلى رأسها الملك الموري بوكوس الأول Bocchus أو بوكوس الكبير، الذي اتسعت مملكته بما نالته يده بتسليمه يوغرطة إلى سولاّ وإلى مَرْيوس.

ويموت قيصر بطعنات خصومه، فينتصب أنطوان للمطالبة بدَمِه، ولكن الشاب أوكْتاف يظهر هو أيضا للمطالبة بدم قيصر، فيستصغره أنطوان ولكن عبقرية الشاب لم تلبث أن ظهرت في كل ميدان يمتد نظره إليه، خصوصا في السياسة والحرب. فبدأ أولاً بتجريد جيشه على غالْيا فاستولى عليها ثم على أسبانيا فاستولى عليها. وأثناء ذلك مات بوكوس الكبير ملك موريطانيا سنة 33 ق.م، فاقتسم مملكته ابناه بوكوس الثاني

أو الصغير الذي تولى الملك على القِسْم الشرقي من المملكة من وادي مَلْوِية إلى نهر أمبساگا، واستولى بوگود Bogud أخوه على القسم الغربي الممتد من مَلْوِية إلى المحيط.

ولم يلبث الخلاف أن دبّ بين الأخوين لسبب لا ندريه، دعا الأخوين إلى التدخل السياسي في شؤون رومة والمطالبين بدم قيصر. فمال بوكوس مع أوكتاف ومال بوگود مع انطوان. ولعل بوگود كانت له مطالب في أرض أخيه بوكوس، الأمر الذي دعا هذا الأخير إلى طلب النجدات من أوكتاڤ الذي وجد الفرصة سانحة فامتدت مطامحه إلى بدء الاستيلاء على الأرض بإنشاء المستوطنات الحامية.

والمستوطنات هي المستعمرات بكل ما تنطوي عليه من معنى كريه. والأصل في المستوطنة هو إبعاد الفقراء والضعفاء من الرومانيين والمزارعين Coloni، أو من قدماء المحاربين إلى أرض قوم مغلوبين، أو لأرض وقع التنازل عنها عن رضى من لدن ملك أو شعب حليف أو صديق allié، وبذلك تصير الأرض مِلْكية عمومية لرومة Ager Publicus. فتتصرف فيها رومة تصرف المالك، وتوزعها على من تشاء من أبنائها الضعفاء أو على جنودها المسرَّحين من الخدمة العسكرية.

والمستعمرات إما رومانية وإما لاتينية. فالرومانية منها هي التي تعيش بكامل الامتيازات والواجبات التي للرومانيين، وتخضع للقانون الروماني... أما المستوطنات اللاتينية فهي لغير أبناء رومة، بل تكون لأبناء الهضبة الإيطالية. والمهم أنهم جميعا عيون وحرَس على أهل البلاد وحكامهم الأصليين.

وكان أوكتاف قد شرع في إنشاء هذه المستوطنات ما بين 33 و25 ق.م أي عقب وفاة بوكوس الثاني وقبل عهد يوبا الثاني. وهكذا أنشأ في القسم الشرقي من المملكة تسع مستوطنات. هي كما يلي: إيگِلْگيلي Igilgili(جيجلي)، صَلْداي Saldae (بجاية)، ثوبوسْبْتو Thubusptu (تكلات)، روزاسو Rusasu (أزفون)، روسگوناي Rusgunae (ماتيفو) أكْواكَليداي Aqua Calidae، زوكَبار Zucchabar، گُنوگو Gunugu (گورايا)، كرتناي Cartannae (تنيس). كما أنشأ بالقسم الغربي خلف نهر مَلْوية مستوطنة بَناسا Banasa الموقعَ المعروفَ اليوم باسم سيدي علي بوجنون على نهر سبو بداخل التراب، وهو موقع فينيقي او بونيقي الأصل. وبجنوب بَناسا أنشأ مستوطنة أخرى هي ثاموسيدا Thamusida (سيدي علي ابن احمد) وهي أيضا على نهر سبو، كما نجد في جهة الشمال الشرقي قرب تطوان مستوطنة تامودا Tamuda وكلها لا تزال آثارها تشاهَد حتى اليوم. أما مستوطنة بابا كَمْبِسْتْريس Babba Campestris فهي على ما يعتقد بجهة وزّان. وعلى الساحل المحيطي أنشأ مستوطنة زيليس Zilis. وكلها مدن أو مستوطنات قد أبعدت وأخرجت عن سلطة حكم أهل البلاد، وأصبغ عليها الحق الروماني أو اللاتيني. وعلى رأسها جميعا مدينة طنجة التي أعلن أنها خاضعة للقانون الروماني، لا تنالها يد الحاكم الأهلي.

والمعتقد الذي لاشك فيه هو أن أوغسط Auguste قد وجد المسوغ لعمله هذا في المملكة المورية لما خلت ممن يحكمها من الأسرة المالكة. لأن بوگود ملك القسم الغربي كان قد مات بعد معركة أكتيوم سنة31 ق.م التي شارك فيها فعليا. أما أخوه بوكوس فقد زحف بجيوشه على

مملكة أخيه، واستمر مهيمنا عليها إلى أن وافته المنية سنة 33 ق.م، ولم يخلّف وريثا للعرش كما قيل. وبذلك حكمت الأقدار السياسية على المملكة أن يلتهمها الغول الروماني الجاثم على الحدود.

وكان أوغُسْط لابدّ أن يتمم عمله الذي شرع فيه بالتهام المملكة كلها. غير أنه فضل الالتهام في أناة وتروٍّ. فأنشأ مملكة وهبها لِيُوبا بنِ يوبا.

وكان يوبا هذا كما نعلم هو الطفل الصغير الذي مرّ في موكب تمجيد قيصر، وكان في نحو الخامسة من عمره. وفي رومة أسندت تربيته إلى أوكتاف بعد موت قيصر، وعلى يد أوكتاف نال يوبا المواطنة الرومانية، فأصبح رومانيا واسمه كايوسْ يوليوسْ يوبا، بالعناصر الثلاثة التي تكون اسم الفرد Tria nomina، ويتكون اسمه من اسم قيصر واسم أوكتاف أوغُسط.

ويجب الاعتراف أن تربيته البدنية والفكرية قد نالت العناية الفائقة، فتتلمذ على النبهاء من العلماء الرومانيين والإغريق. وفي جانب التربية البدية أبدى الشاب يوبا وهو ابن 19 سنة كفاءة وقدرة في الحرب ضد أنطوان بجانب أوكتاف سنة 31-32.



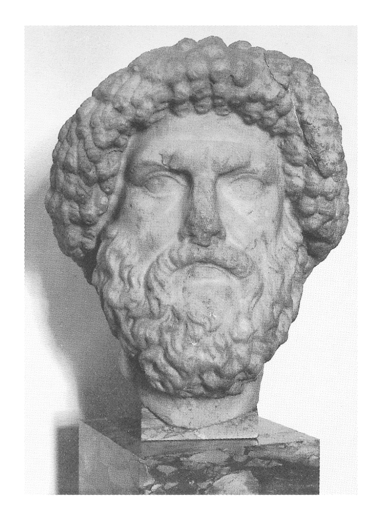
الملك يوبا الثاني في شبابه

ومن غريب الأحداث أن الشاب قد خاض هذه الحرب التي مات فيها بوگوض ملك موريطانيا الغربية ضد أنطوان وكيلوبترا أبوَيْ كيلوبترا الصغيرة، التي حُملت هي أيضا أسيرة إلى رومة. وهي التي سيتزوجها الشاب بعد ذلك، ويعينان ملكين على الموريطانيتين القيصرية والطنْجية.

وقد أسند أوكتاف، تقديرا منه للشاب يوبا ولجهوده التي بذلها في الحرب، أمرَ مملكة يوبا الأول أبيه. ولا ندري هل عينه ملكاً عليها أو حاكماً لها بصفته مواطناً رومانياً لمدة خمس سنين. وهنا تعرض عدة آراء ونظريات متخالفة لا داعي لذكرها.

فكان كأنه في امتحان يجرى عليه، وقد نجح في الامتحان إذ ساس بلاد أبيه سياسة حسنة وقضى على الثوار بها. وبهذا فيكون أوكتاف أوغُسط Octave August قد نجح أيضا في اختياره الذي وقع على الشاب. فسحبه من منصبه، وزوجه بالشابة كيلوبترا سِليني (الهلال)، وعيّنهما باثنيهما ملكَيْن بالاشتراك على مملكة موريطانيا التي ضمّت أطرافها الشرقية إلى الغربية في مملكة واحدة، عاصمتها مدينة يُولْ أي شرْشال التي تغير اسمها فصار قيصَرِية اعترافاً بفضل قيصر.

وإن كان هناك رأي يقول به جيروم كَرْكوبينو، ادَّعى فيه أن المملكة كانت لها عاصمة ثانية هي وَليلي في الغرب، واحتج لهذا الرأي بحجج عديدة لا داعي لذكرها هنا. ولكنه هو الوحيد القائل بهذا الرأي من بين المؤرخين.

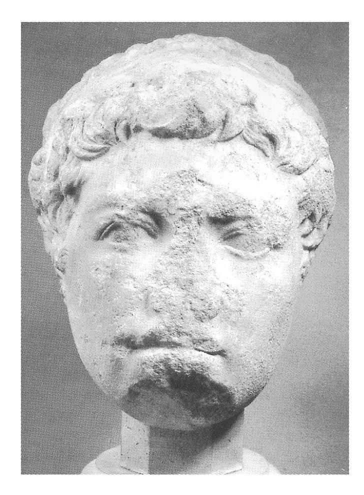


الجدّ

يوبا الأول (60/46) قبل الميلاد

الرخام الأبيض عُثِر عليه بشرشال

محفوظ بمتحف لوڤر – باريس

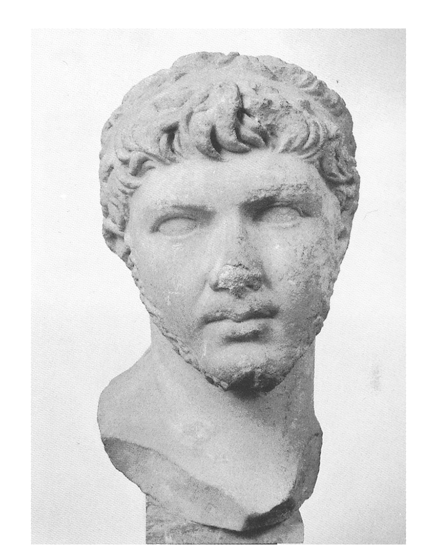


ابنُه

يوبا الثاني (25 ق م/23 م)

في شيخوخته، رخام باروس **(Paros)**

محفوظ بمتحف لوڤر – باريس



حفيدُه

بَطْليموس (بطوليمي) (23 م/40 م)

من الرّخام الأبيض

عُثر عليه بشرشال في 1843

محفوظ بمتحف لوڤر – باريس

أما كيلوبترا زوجته فهي بنت أنطوان وكليوبترا ملكة مصر الشهيرة، أُسِرت ومرّت في موكب التمجيد لأوكتاف. وقد ربتها في رومة أوكتافيا أخت أوكتاف أوغُسط، زوجة أبيها قبل أن يعرف أمها في مصر.



الملكة كيلوبتْرا سِليني Séléné (الهلال)

وكانت أوكتافيا، التي ربّت أيضاً يوبا، هي التي أشارت على أوكتاف بتزويجهما. وكانت تلقب في الإغريقية بلقب سِليني Séléné أي الهلال. وفيه إشارة إلى إيزيس المعبودة المصرية. لذلك كثيرا ما نجد الهلال على نقودها هي، لأنها - وهي الملكة الشريكة - كان لها بلاطها الخاص بها ولها حاشيتها، باعتبارها ملكة ذات سلطة وسطوة. فكان من حقها أن تسكّ إن شاءت نقوداً خاصة بها، أو نقودا مشتركة على وجه صورتها هي، وعلى الوجه الآخر صورة زوجها الملك.

وليس من قبيل الصدف أن يكون يوبا متضلعا في الثقافة الإغريقية، وأن تكون زوجته من أصل إغريقي، - من جانب أمها - التي هي من الأسرة اللاّجية Lagide، الأمر الذي سيسِمُ قصر موريطانيا من

طرفَيْه بالطابع الإغريقي. فالملكة كما تظهر على النقود هي باسيليكا كيلوبترا. وقد توفيت كيلوبترا بمرض عضال لم ينفع فيه دواء سنة 5 ق.م عن سن بلغت 36 عاما، بعد أن قضت في الملك عشرين عاما.

وأعجبُ ما في الأمر هو أن يوبا بعد موت كيلوبترا قد قام برحلة قطع فيها البحر الأبيض المتوسط بكل طوله من وَليلي أو من قيصرية حتى قَبادوقيا Cappadoce في موسطة آسيا الصغرى. وكانت قبادوقيا مملكة على رأسها ملكها أرْخيلاوُسْ Archilaus. وهناك التقى ببنته الفاتنة گلافيرا Glaphira فتزوجها. وكانت گلافيرا من قبلُ زوجةً للأسْكندر ابن هيرود ملك اليهودية. وقد ولدت من الإسكندر أولادها. وقد طرد حموها هيرود الذي قتل زوجها ابنه الإسكندر، فعادت أرملة إلى أبيها أرخيلاوس. وعنده لقيها يوبا وتزوجها وعاد بها لدولته. ولكنه عاد هو أيضا فطلقها وأعادها لأبيها - من حيث أتت - لأسباب لا ندريها.

ونترك هذا الجانب لنذكر بطلمي ابنَ يوبا. فقد نُصِّب بعد موت أبيه الشيخ يوبا الثاني سنة 23 للميلاد ملكاً على موريطانيا بشقّيها الشرقي والغربي. وتغيب عنا أخبار هذا التنصيب وكيف كان، ومن الذي نصب الملك الجديد؟ هل هي رومة التي نصبت أمه وأباه من قبل ؟ أم هل كان للدولة مجلس أعيان مثلاً له الكلمة في مثل هذا العمل الكبير. إن هذه الأسئلة لا تنتهي بنا إلا إلى جواب واحد، هو أن بطلمي قد نُصّب ملكا، ولا شيء سوى هذا.

وبطلمي التعِس كان سيّءَ الحظ على نفسه وعلى دولته. لقد قضى سبعة عشر عاما في الملك من 23-40 م. قيلَت عنه أقوال تصفه بأنه كان

رخي العنان في هواه وأهوائه، فكان يعيش مع بطانته عيشة لم ترض شعبه، وأنه تزوج عشيقته يولْيا أورانْيا Julia Urania التي كانت جارية عنده، فحررها ثم تزوجها. وهذا الزواج لم يرض كبراء شعبه لأنه زواج غير متكافئ، زواج الملك بإحدى القيان، فهو زواج Morganatique. وكان بمستطاعه أن يتزوج بإحدى بنات القياصرة الرومانيين لأنه ملك روماني اسمه كايوسْ يوليوسْ بَطْليموس Caius Julius Ptolemaius. وهو أيضا إغريقي ينحدر من بطلمي Ptolémée مؤسس دولة اللاجيّين بمصر. وهو في نظر الرومانيين حفيد أنطوان المثلث Triumvir. ثم إن كاليگولا إمبراطور رومة كان ابناً لحفيد أنطوان جدّ بطلمي. إذ كانت أمه هي أنْطونيا بنت أنْطوان، وهي أم جيرْمانيكوس أبي كاليگولا. فقد جمع بطلمي الشرف كما يقال من طرفيه. وزواجُه من يوليا اورانْيا لم يرق شعبه الذي كان لا يحبه. وقيل عنه إن الطبيعة لم تجد عليه بما كان لأبيه من ذكاء وعلم وثقافة، إلى غير ذلك من الأوصاف المنقصة والمزرية به.

فلننظر نحن إذن في ما وصف به وما قيل فيه من شتائم، لنرى ذلك بميزان التجرد من الميل، محاولين الفهم على ضوء ما وصل إلينا من أخبار، لا ندري لماذا محاها المؤرخون أو سكتوا عنها.

إننا أولاً لا يمكن أن نصدق أنه لم يكن مثقفاً. وهل بإمكاننا التسليم بأن أباه العالم الأديب المؤلف يرضى أن يكون ابنه، وليّ عهده جاهلاً وهو يهيئه للمُلك ؟ نعم إن بطلمي لم يكتب ولم يؤلف. ونحن نسلم بهذا، ولكننا نتساءل كم هم الملوك والأمراء الذين ألّفوا غير يوبا الثاني

أبي بطلمي ؟ فلماذا يقال إنه لم يكن مثقفا ؟ ومن جانب آخر إذا سلّمنا أنه كانت له بطانة من الشباب أمثاله، فلأنه أمير شاب، وهو وحيد أمه وأبيه. فلماذا نعيب عليه إذن ما عرف لجميع الشباب في كل عصر ومصر من حب للمتعة والدلاعة حتى ولو لم يكونوا من الأمراء. وكذلك لا نسلّم أنه كان يتلهّى عن شؤون الدولة. لقد كان يوصف بأنه Rex أي ملك في حياة أبيه، الذي أشركه معه في حكم البلاد قبل وفاته ليدرّبه على التدبير والتسيير. وقد ضرب نقودا عليها صورتهما معا، ونقوداً باسمه هو، تؤرخ له بسنة 20م، بينما أبوه لم يمت إلا في سنة 23م، أي قبل وفاة أبيه بثلاث سنين.



قطعة دانق جوبا الثاني (كليوباترا) (الوجه)



قطعة دانق يوبا الثاني كيلوباترا(الظهر)



قطعة دانق
يوبا الثاني (الوجه)



قطعة دانق
يوبا الثاني (الظهر)



قطعة دانق يوبا الثاني
(الفيل) (الوجه)



قطعة دانق يوبا الثاني
(الفيل) (الظهر)



قطعة سستيرس من البرونز
ليوبا الثاني الأسد (الوجه)



قطعة سستيرس من البرونز
ليوبا الثاني الأسد (الظهر)



قطعة دانق فضية
لبطليموس (بطليمي) (الوجه)



قطعة دانق فضية
يوبا الثاني (الفيل) (الوجه)



قطعة دانق فضية
لبطليموس (بطليمي) (الظهر)



قطعة دانق فضية
يوبا الثاني (العقرب) (الظهر)



قطعة دانق يوبا الثاني،
بطلمي (بطوليموس) (الوجه)



قطعة ذهب أوريوس
يوبا الثاني (الوجه)



قطعة دانق يوبا الثاني،
بطلمي (بطوليموس) (الظهر)



قطعة نقدية أوريوس
يوبا الثاني (الظهر)

ثم إن بطلمي اكتسب شهرة خارج حدود مملكته، فأقيم له تمثال بأثينا، وتمثال نصفي في لوقيا Lycie بآسيا الصغرى بتصويت من مجلس هذه المدينة التي زارها بطلمي. والعجب هو أن يذرع كأبيه البحر الأبيض المتوسط بطوله... فأي لغز هذا الذي جعل الأب يزور قبادوقيا، وجعل الابن يصل أيضا في رحلة لا ندري سببها إلى آسيا الصغرى ؟ وأضيف بعد هذا أن مدينة قرطاجنّة Cartagène الأسبانية قد عينته مثنى Duumvir.

ولكن بطلمي قد ورث عن أبيه دولة تهتز أطرافها بالثورة والعصيان، لا لأن شعبه كان لا يحبه، بل لأن أباه يوبا الثاني كان قد شاخ، وكان مع ذلك قد عانى من ثورة الجيتوليين أولاً، ثم من تَكْفَريناس Tacfarinas الذي أقض مضاجع حكّام رومة. ونال من كبرياء يوبا الذي حاربه حرباً لا هوادة فيها، ثم مات شيخا، وتكفريناس لا يزال في الميدان يصول ويجول.

وهنا موضع حرب تكفريناس التي كانت بالغة الأهمية، ودامت سبعة أعوام من 17-24 للميلاد. وقد اشتعلت الحرب عند قبيلة المسولاميّين Musulames التي كانت تسكن المنحدرات الجنوبية لجبال الأوْراس. وتكفريناس انتُخِب أميراً على قبيلته، وقد وُلد بنوميديا وعمل بالجيش الروماني ثم تركه، وكون عصابة اكتسب بها ذكرا، وامتدت يده بالسلب لجهة الشرق فوصل عمله إلى أرض الكِنيتيّين Cinithiens بجوار سدْرة الصغرى Petite Syrte ثم إلى الـگرامنطيين بالفزّان، ومن جهة أخرى أشعلت قسماً كبيراً من موريطانيا على عهد يوبا. وكان تكفريناس يتبع طرائق الرومانيين في الحرب التي اكتسب خبرتها لما كان بالجيش الروماني، وبذلك أقض مضاجع محاربيه الرومانيين والموريطانيين، حتى انتصب له القائد البروقُنْصُل بوبلْيوس كرنيليوس ضولبيلاّ P.C. Dolabella

فقضى على الثورة بتعذيبه لجميع قادتها. فاستطاع بعون جيوش ملك موريطانيا، وفي مملكته بالقرب من أوزيا التي هي أومالْ Aumale أن يقضي على الثورة نهائيا، إذ فقد فيها تكفريناس حياته. وبذلك لفظت الثورة أنفاسها في عهد بطلمي وبجهوده أيضا.

وأعود لذكر بطلمي الذي كان سيّء الحظ والذي برغم التشريفات والتماثيل لم يذكر إلا بالتنقيص والشتائم.

ويبدأ عهد تعاسته بموت الإمبراطور تيبيرْيوس Tiberius سنة 37م، وتعيين كاليگولا إمبراطوراً. وقد كان هذا الإمبراطور مجنوناً أو معتوهاً أو مريض النفس بحب ذاته وعشقه للمال. كان كاليگولا يخشى المؤامرات، ويلقي بها التهمة على من حوله، ويُعدمهم ويستصفي أموالهم. ومن هنا يمكن القول إن جميع تلك الصفات الشائنة التي كانت تطلق على بطلمي، إنما كانت تهيء الرأي العام للضربة العظيمة الآتية. وهي القضاء المبرم في آن واحد على بطلمي، وعلى دولته ثم على ثروته.

وبحلول سنة 40 م حلّ أجلها جميعاً. إذ أقام كاليگولا في لُگُدنوم Lugdunum (أي في مدينة لِيون بفرنسا) احتفالاً باهرا بذكرى تأسيس نصب لرومة هناك. وكان الاحتفال يجري بالملهى الكبيرAmphithéatre الذي غص بالحاضرين. ووصل كاليگولا لموقع الحفل فوقف له الحاضرون، وحياه جيشه بتمجيده سبع مرات. ولم يلبث أن دخل بطلمي للحفل الذي كان مدعواً له. فالتفتت إليه أنظار جميع الحاضرين لجماله وبهائه وشبابه، ولثروته التي كانت دلائلها بادية عليه، وكان يلبس رداءه الأرجواني الجميل الفائق الذي صنعه بمعامله هو، فسارت معه عيون الناس تتبع خطواته حتى أخذ مقعده وجلس والناس يصفقون.

لقد كان هذا كافيا ليثير في الإمبراطور الحقود ثائرة سوءَه وشرّه. وفي نزوة من نزوات سوئه وشرّه أمر رجاله أن يحيطوا بالملك وبمن معه من رجال حاشيته، وأن يأخذوهم إلى بعيد وأن يقتلوهم. وبالفعل فإن ذلك هو ما حدث. وأذيع من بعد أن الملك وحاشيته كانوا قد فشا فيهم مرض مُعْدٍ قضى عليهم جميعا قبل وصول الطبيب.

والمهم من هذا كله هو أن كليگولا نال ثروة الملك بطلمي، وأعلن أن مملكته صارت ولاية رومانية، قسماً من الإمبراطورية خاضعا كغيره من الولايات الأخرى لأنظمة الإمبراطورية في حكمها وتدبيرها، وأمر الجيش باقتحام المملكة فكان ما أراد.

وهنا تحل المعارك التي خاضها أيدْمون ثمّ صلْبيوس من بعده. إذ نعلم ان الاستيلاء على موريطانيا لم يقع إلا بحد السلاح.

فمن سنة 40 إلى 44 تطلّب الاستيلاء أربع سنين من الحروب لثلاثة منوّبين Legats متتابعين. هم القُنْصُلي Consulaire مَرْكوسْ ليكْنوس كْراسوس فْروجي M.L.C. Frugé في سنة 40-41، والبَريطور كايوسْ سويطونْيوس بَاوْلينْيوسْ C.S.Paulinius، في سنة 41-42 وكذلك البَريطور كْنايوس هوسيدْيوس جِيتا Cn.H.Geta فيما بعد. وشاركت في العمليات قوات أتى بها من الخارج، مثل الفيلق المقدوني الرابع Macedonica IV، والفيلق السادس المنصور Victrix VI، والفيلق العاشر المزدوج Gemina X، بالإضافة إلى الجيوش المساعدة المتكونة من بعض البربر الذين أكْرِهوا على الذهاب للحرب، أو أغرتهم المطامع فشاركوا فيها.

والحقيقة التي لاشك فيها هي أن المغرب كله قد اشتعل بلهيب الحرب. فالتنقيبات الأثرية تكشف كلها عن موجة من النيران التي اجتاحت مدن الشمال مثل ثَموسيدا (سيدي علي بن احمد) وثمودا وليكسوس وكوطا. وكذلك طنجة. وهناك مدينة واحدة لم تُحدّثنا عنها المصادر بشيء هي سَلا (شالة). أما وَليلي فقد فضلت صراحة الوقوف ضد الثورة وضد أيدمون، مع مَرْكوس سيفروس الذي تغلب على الثوار وأبعدهم. أما زيليس فبالطبع لم تشارك في الثورة، لأنها قبل ذلك كانت قد أخليت من جميع سكانها الذين نقلهم أوكتاف وأسكنهم بأسبانيا وأعطى مدينتهم وأراضيها للمستوطنين الذين جيء بهم ليعمّروا الأرض ولينعموا بخيراتها، وأطلق عليها اسم يولْيا يوزا Julia Joza، أو يوليا كُسْطَنْتيا زيليس Julai Costantia Ziles.

وعلى كل فإن أيدمون قد توفّي في الحرب سنة 40 أو أو 41، ولكن الجنوب هو الذي حمل المشعل في الحرب الدائرة، إذ تزعم المقاومة صَلَبْيوس Salabius المدعو صَلاَب. وقد كان قائدا شديد المراس اضطر سويطونْيوس إلى أن يتقفاه بجيوشه حتى نهر الگير (واد گير)، وتابعه من بعد جيتا Getaإلى داخل الصحراء. وعلى كل فإن الحرب انتهت سنة 44بالاستسلام. وتجب الإشارة إلى أن بقية القبائل في التخوم النوميدية الموريطانية قد تحركت بدورها أثناء تغلغل سويطونيوس ثم جيتا من بعده في الصحراء. فتحركت قبائل المشارف الصحراوية المجاورة، وتحركت معها قبائل الموسلام الموتورة. وبالطبع فإن رومة كانت بالمرصاد، فبعثت عليهم البروقُنْصُل گالْبا Gallba فانتصر گالْبا وعزز بانتصاره هذا انتصار كل من سويطونيوس وجيتا.

وبهذا استطاعت رومة أن تمد سيطرتها على الأرض والناس من النيل إلى ضفاف البحر المحيط. وتمكن الإمبراطور كْلود من تقسيم مملكة يوبا الثاني إلى ولايتين كل منهما لها حاكمها الخاص. هما موريطانيا القيصرية بشرق وادي مَلْوِية، وعاصمتها هي يولْ أي قَيْصَرِية، أي شَرْشال التي جُعلت مستعمرة، والثانية هي موريطانيا الطنْجية – التنجيتان – وعاصمتها وَليلي.

على أن الأمر لم يجْر بهذه السهولة، فلقد حدثت بعد ذلك حروب وغزوات، إن تكن رومة قد انتصرت فيها كلها، فمعناها واضح هو أن البلاد وأهلها يرفضون الخضوع. حتى إذا كانت نهاية القرن الأول وامتداد القرنين الثاني والثالث أي من سنة 86 إلى سنة 232 عرفت البلاد الزعازع السياسة التي ستفرض على ديوكلتيان التخلي عن البلاد وتركها لمقاديرها السياسية بيد أبنائها. وهكذا فيبدو أن رومة من عهد أنطونان التقي 86-161 إلى بروبوس 232-282 لم تكن قد عرفت الهدوء مع البكواتيّين. وقد حاولت معهم عدة محاولات بعقد عقود للصلح او للهدنة، وبإقامة الهياكل للسلام. ولكن الريبة كانت تحيط بهذه العقود، أولاً من جانب الرومانيين الذين كانوا يجتهدون في كل مناسبة للعمل على ترسيخ أقدامهم في البلاد، وثانياً من جانب البكواتيين المترصدين والمتربصين الذين كانوا يعملون للتحرر من قبضة رومة.

ومن هم هؤلاء البكواتيّون ؟ وأين كانت مساكنهم ؟ إنهم قبيلة كبيرة أو مجموعة قبائل يضمّها اتحاد أو (لفّ). وكانوا مستولين على الممرات المؤدية للأطلس الكبير، مروراً بقمم الأطلس المتوسط بجنوب وَليلي،

وسـهول الشـاوية بجنوب سَلا والنهر الذي يحمل اسم سلا Sala flumen، وهو اليوم أبو رقراق. والأركيولوجيون يسلّمون اليوم باتفاق يُسكت كل معارضـة، بأن البكواتيين كـانوا يحتلون بشـمـال المغرب جبال الريف. ولكن بْلين الطبيعي يجعلهم هـم الأطلوليّين ويحلهم في أحواز موگَدور أي الصويرة، بل ويبعد بهم إلى ما بين روسْدير أي أگـادير ووادي سوس.

من الريف إلى وادي سوس، معنى هذا أن كل سكان المغرب كانوا بكواتيين. إن العقل لا يسلّم هذا. وإلاّ فـأين الموريون وأين المـازيس Ma-zicesوأين المكْنيتيّون وأين الفروسيون ؟ وأين الدراداي أو الدراتيتاي ؟ وأين النصـمـونيـون ؟ بل وأين الأطلوليـون. حـتى ولو سلّمنا بـأن هؤلاء الأخيرين قد اندثروا ؟ ومع ذلك نتسائل عنهم كيف اندثروا وعلى يد من كان اندثارهم ؟

وعلى كل فمع عجزنا عن توضيح مساكنهم توضيحاً يطمئن إليه الفكر، فالبكواتيون كانوا موجودين كقوة تحسب لها رومة ألف حساب. وكـانوا بجنوب التنْجيـتـان بوَليلي، حـيث أربعـة نقـوش تشـهـد بقـرب البكواتيين. ومن بينهـا نقش يظهر أن البكواتيين نالوا من الإمـبـراطور هادْريان التكليف بطرد الأطلوليـين والإذن باحـتـلال الأراضي التي على حدود اللّيمِس في زَرْهون والأطلس المتوسط والبسـائط المحيطية. كما أن نقشـاً آخر يذكر غزوة للبكُواتيّين على سـاحل موريطانيا القيـصرية. إذن فـالسـؤال المطروح هو هـل البكواتيـون أصلهم من مـوريطانيـا القيـصرية ودخلوا المغرب غازين، أو هم أصـلاً من المغرب ودخلوا إلى القيصرية غازين محاربين ؟

لكن الضغط البكواتي فرض على رومة، على الإمبراطور ديكلْتيان أن يتخذ سياسة جديدة وسَتْراتيجية لم يتخذها أحد الأباطرة من قبله. ذلك أنه أنشأ ولاية جديدة في شمال المغرب ربطها بأسبانيا. ولكن هل ربط طَنْجة وحدها مع بعض ما يحيط بها من الأراضي، أو ربط ما نسميه نحن «الشمالَ» إلى أسبانيا. ولكن الرأي المقبول هو أنه ربط منطقة البحر الأبيض المتوسط شمالاً حتى نهر اللّكوس جنوباً بأبْرَشية أسبانيا. وتخلى عن داخل المغرب، عن وَليلي إلى مَلْوِية إلى مقاديرها السياسية المقبلة.

وليس هذا فحسب، ذلك أن ديكَلْتيان قد تخلى في نفس الوقت عن غرب موريطانيا القيصرية من نهر شليف إلى نهر مَلْوِية، وذلك بتقسيمه لموريطانيا القيصرية إلى موريطانيا السّطيفية، وإلى القيصرية هاته التي تخلى عنها سنة 288 على الأكثر.

ولكن متى تم إخلاءً وليلي ؟ في سنة 289 حدثت ثورة قبيلة Quinquegentiani (أي قبيلة الأخماس) التي قد أغرقت في الدماء أرض الجزائر من شعب الوادي الكبير لغاية جهة الحضنة. وقد استمرت إلى 292. ففي 289 تعين للحكم في موريطانيا القيصرية أوريلْيوس ليتْوا Aure-lius Litua وفيها نال انتصاره على الثوار.

أما في وَليلي في هذا التاريخ فعلى العكس لا يوجد أي نقش على الحجر، لا لديكلتيان ولا لأي أحد ممن خلفوه. وسلسلة القياصرة تبتدئ مع كْلود وتنتهي بين 276 و282 بثلاثة نقوش تذكر بْروبوس Probus، وتنزل حتى الإمارات الموالية، أي إمارة كاروس Carus 282-283، وإمارة

كـارين 283-284 Carin. الأمـر الذي يوضح أن سلطتـهم قـد امـتـدت إلى حدود التنْجيـتـان. وهكذا فـمجـمـوعة نقـائشنا الرومـانيـة تقف فـي وَليلي بالضبط في النقطة التي تبتدئ في طنجة. وكل شيء فيـها يجري كما لو أن في نفس الزمـان وتحت تأثير ديكلتيان قد تجددت الحيـاة في طنجة (بانضمامها لأسبانيا)، وعلى العكس انطفأت في وَليلي.

وينضاف لهذا أن اكتشافا للنقود الرومانيـة قد تم بوليلي لمجموعة 2717 قطعة. فيها 11 قطعة تصعد للعهد الجمهوري و10 قطع ينزل عهدها إلى النصف الثـاني من القـرن الرابع، مـقـابل 2694 قطعـة تتـدرج من أوغُسْط إلى بروبوس. وهناك قطعتـان، واحـدة من مكسـانس Maxence ،والأخـرى من عـهـد كـونْسطانْس كْلور Constance Chlor. ولا توجـد أي قطعة من عـهد ديكلتيـان ولا من عـهد قُسْطَنطين Constantin ولا من عـهد أبنائه. وهذه الإحصائية المتوافقة مع الأحجار المنقوشة هي ذات وضوح باهر. معناه أن الإمبراطورية قد انْمَحت من وَليلي لما ظهر فيها غياب مجموعاتها النقدية. فقِطَع ديكلْتيان لم تعد تصل أو يجري تداولها في العاصمة القديمة للتنْجيتان لمّا أعطى الأمير الأمر بالتخلي. وإن الإخلاء قد أجراه موظفوه وجنوده بانتظام. إذن فهل جرى التخلي في سنة 285 أو في سنة 287 م ؟ ممكن.

هذا ما جرى بالجناح الغربي لشمال إفريقيا الرومانية. فكيف كانت الحال، وماذا جرى في الطرف الشرقي للبلاد ؟

إذا علمنا أن 288 هي على الأكـثـر السنة التي تم فـيـهـا تقـسـيم موريطانيـا القيـصرية القديمة إلى موريطانيا القيـصرية وموريطانيـا

السَّطيفية، فيكون أن بين 295 و297 قد تم تقسيم نوميديا إلى نوميديا السرْتية ونوميديا العسكرية. كما تم تقسيم البروقُنْصولية إلى زوجيطانْيا Zeugitanie وبيـــزســـينا Byzacene. وفي 302 أو 304 تم إنشـــاء ولاية تْريبوليتانْيا Tripolitania. وكلها تقسيمات كان الغرض منها إضعاف المقاومات الأهلية بالتكثير من مراكز الحكم، وقواعد الحاميات. ولكن هذا العمل كان له أثر سيّء لأن تكثير مراكز الحكم معناه تكثير مراكز الموظفين والجيوش وواجباتهم التي كانت تؤخذ قهرا من السكان. فكثرت الشكايات وعمّت الفوضى والاضطراب. يضاف لهذا الرغبة في الاختصاص بالحكم وظهور الميول إلى الاستقلال لدى بعض الحكام مثل الكونْت بونيفاس في الأخير.

على كلّ فإن رومة وحكومتها في عهد الإمبراطورية السفلى Bas-Empire، لم تعرف الهدوء وإنما عرفت الاختلال في النظم وسوء الإدارة، الأمر الذي أغرى الجرمانيين بالانطلاق من مواقعهم إلى البحث عن مجال للعيش على حساب رومة وولاياتها.

وهنا يحسن الرجوع للحديث عن ديوكْليتيان الذي تخلى عن الموريطانيتَيْن القيصرية والطنْجية، وعن قُسْطَنْطين الذي قام في العالم الروماني بإصلاحات هامة، وفي مقدمتها اعترافه بالمسيحية، وفي عهده عاشت التنجيتان السنوات الأولى من حياتها المستقلة.

فأما ديوكْليتيان Dioclitianus (284-305) فقد كان جنديا في إيليريا Illyria. واستطاع أن يعتلي متدرجا في حياته العسكرية بذكائه وحسن تدبيره إلى أن يصبح قائدا أعلى للجيش. وقد كان ذا بصيرة نفّاذة استطاع بها أن يفهم أن الشرق كان قد أصبح مركز الثقل في

الإمبراطورية الرومانية. فعمل على أن ينادي به جيشه إمبراطورا عام 284 أو قبلها بقليل.

فبدأ أولاً بالعمل على تغيير نظام الدولة العام حبّاً في القضاء على الفوضى وإقرارا للنظام.

لذلك قرر أن أداة الحكم تكون من إمبراطورَيْن اثنين، يساعدها في الحكم قيصران اثنان أيضا. ونقل مركز الحكم عن رومة إلى أربع مدن موزعة على الإمبراطورية. وهكذا فإنه نقل إلى غاليا La Gaulle في مدينة تريف Treves قسما من إدارة الدولة، بحيث تكون هذه المدينة، أي تْريف، عاصمة إدارية للقسم. كما نقل إلى إيطاليا، لمدينة ميلانو Milano، قسما آخر يكون على غرار سابقه، ونقل إلى سِرْميوم Sermium في إيليريا القسم الثالث، أما الرابع فقد جعله في نيكوميديا Nicomedie في آسيا الصغرى.

وفوق هذا فقد فصل ديوكْليتيان تماما بين السلطتين المدنية والعسكرية، بحيث يكون بجانب الحاكم العسكري حاكم مدني دائما، بسلطتين منفصل بعضها عن بعض. وأوجد جهازاً إدارياً دقيقا في كل إقليم، يرجع في الأخير إلى الجهاز المركزي الإمبراطوري.

وختم تنظيماته بفصل بعض المناطق عن جهاز الدولة فصلا نهائيا، بإلغاء تبعيتها للدولة الرومانية، كما فعل حين أعلن التخلي عن الموريطانيتين القيصرية والطنجية، مع استثناء لمنطقة الشمال المغربي التي تمسّك بها وضمّها إلى أسبانيا الرومانية، وذلك قد سبق لنا ذكره وأنه جرى سنة 285 أو 287 م.

ولابأس من ذكر قُسْطَنْطين Constantin الذي جاء للحكم سنة 306م. ذلك أن حامية يورْك York قد نادت بقسطنطين إمبراطورا. وقد تهيأ الانقلاب الذي حدث به ما كان يخشاه ديوكْليتيان. غير أن الإمبراطور الجديد الشاب قد استطاع أن يتخطى الموانع والعقبات السياسية التي وقفت في وجهه، واستطاع في اجتماع ميلانو الذي انعقد بينه وبين ليكينيوس Licinius سنة 313 أن يعلن المساواة بين جميع الأديان، ومن جملتها المسيحية. وبذلك انتهى عهد الاضطهاد الذي عانت منه المسيحية أسوأ المعاملات وأشدها قسوة.

ولكن الوئام بين ليكينيوس وبين قسطنطين لم يدم طويلا. فشبت بينهما حرب أولى انهزم فيها ليكينيوس سنة 314 ثم حرب ثانية انهزم فيها أيضا ليكينيوس سنة 324م. وبهذا الانتصار الأخير تَمّ لقسطنطين أن يحكم بمفرده الإمبراطورية إلى سنة 327م.

هذه باختصار هي الأحوال التي تم فيها إخلاء موريطانيا والجلاء عنها، والتي عرفتها البلاد المغربية أثناء العقد الأول تقريبا من سني حياتها المستقلة.

النظام الإداري الروماني لإفريقيا

هناك مبدأ عام للنظام الإداري الروماني بإفريقيا، هو مبدأ «فَرّق تسدْ». وإذا أحسنّا التعبير نقول إن رومة قد أخذت البلاد على ما كانت عليه. وسارت هي على نفس النهج، بحيث لم يعرف شمال إفريقيا الروماني وحدة في النظام، ولا حاكماً واحداً تخضع له البلاد من

طرابلس إلى ضفاف البحر المحيط. فلم تكن هناك وحدة إدارية، ولم تعرف البلاد عاصمة سياسية واحدة تسير ما عداها من المدن. فالبلاد كانت مقسمة أول الأمر إلى ثلاث ولايات هي أَفْريكا البروقُنْصولية، ونوميديا وموريطانيا، ثم أضيفت ولاية رابعة هي موريطانيا الطنْجية بعد الاستيلاء عليها عقب اغتيال بطلمي ابن الملك يوبا الثاني سنة 40 للميلاد.

فالبروقنصولية كانت تشمل طرابلس وتونس وقسما من أرض الجزائر. وكان يحكمها بروقُنْصُل يقيم في قرطاجة.

أما نوميديا فهي تُحدّ في الغرب بمصب نهر أمبساكا (الوادي الكبير)، أما جنوباً فنوميديا كانت مشتملة على شرق وجنوب الحضنة. وكان يحكمها مُنوّب Legat هو قائد الفيلق Légion، وغالبا ما كان يترك في وظيفة لعدة سنوات.

أما موريطانيا القيصرية فكانت تمتد من الوادي الكبير إلى نهر مَلْوِية. وقد سميت قيصرية لأن عاصمتها يولْ أي شَرْشال أصبحت تحمل اسم قَيْصَر سيّد العالم الروماني. وكان يحكمها بْروكيراطور Procurator، وهو تابع للإمبراطور. وكان يجمع في يده السلطتين المدنية والعسكرية، وهو من طائفة الفرسان Rang equestre خلافا للبروقنصولات وللبْروبْريطورات الذين هم من طائفة الشيوخ.

أما موريطانيا الطنجية (التنجيتان) فمن غرب مَلْوِية إلى المحيط، فكان على رأسها بروكيراطور، وهو يقيم في تِنْجي Tingi أي طنجة.

وبهذا فقد طبّقت رومة ثلاثة أنوا ع من الحكم في البلاد، الحكم بالقنصل، والحكم بالبروبريطور، والحكم بالبروكيرتور. ويمكن أن نرى

في هذا تكسيراً للأرض خوفاً من جمع السلط في يد حاكم واحد، أو لتجعل من المستحيل قيام وحدة ومقاومة وطنية. وهو ما سننعتُه بسياسة فَرِقْ تسدْ.

وداخل هذه التجزئة، كيف كانت أحوال الأفراد والجماعات ؟ كيف كان معاشهم وألوان حياتهم ؟ كان التنوع واضحا بين هذه الولايات، وفيها كان الاختلاف بيّناً بين المدينة والأرياف، وبين السكان أنفسهم.

فأهل ولاية أفْريكا كانوا قد نهلوا عن سعة من الحضارة الفينيقية أو البونيقية بعدها. وعلى النقيض منهم أهل نوميديا الذين لم يصطبغوا بهذه الحضارة، بينما أهل موريطانيا الطنجية، وعلى الخصوص منهم أهل منطقة طنجة نفسها والمدن المحيطة بها أو القريبة منها وكذلك ليسكسوس فإنها قد تروّت من هذه الحضارة. ولهذا اختلفت معاملة رومة للجهة أو للمدينة، حسب مستواها الحضاري، أو على الأصح حسب تقبل الجهة للوجود الروماني. وإذا تأملنا وجدنا أن الإمبراطورية الرومانية لم تستطع الاستيلاء على إفريقيا الشمالية إلا بالأفارقة الأهالي أنفسهم. ومنذ عهد ولاية أوغُسْط كانت حركة الهجرة إلى إفريقيا كثيرة، حتى إن رومة كانت تنظر بقلق إلى هذه الهجرة التي تنزف الهضبة الإيطالية من سكانها.

والمدن بإفريقيا يمكن أن تكون مستعمرة رومانية أي يسكنها أقوام لهم جميع حقوق المواطنين الرومانيين، فهي جزء من رومة بهذا الاعتبار. ويمكن أن لا تكون المدينة مستعمرة، بأن تكون ملحقة، فيكون لها مجلس بلدي، ولها الرجلان المسؤولان الاثنان Duumvirs وأعضاء إدارة المدينة Ediles، والمتصرفون الماليون Questeurs. والمدينة التي ليست مستعمرة

ولا ملحقة يمكن أن تكون ملحقة لاتينية، وسكانها خاضعون للقانون اللاتيني لا الروماني. وخارج هذه الأصناف هناك الجماعات (الأجنبية Perigrinus) وأهلها جميعا من الأهالي الرحّل أو المستقرين في دواويرهم أو حتى في مدنهم الخاصة بهم. وهؤلاء يعيشون حسب أعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم. يحرثون الأرض ويؤدّون الواجب من القمح السنوي لرومة، كما يؤدون الضريبة العامة، والضريبة الفردية الواجبة على كل شخص بذاته.

ومن هؤلاء الأهالي (الأجانب) كانت رومة تأخذ الجيوش المساعدة. فالجيش كان بإفريقيا مكوّناً من عنصرين اثنين هما الفيالقLegions التي لا يعمل بها إلا المواطنون الرومانيون الأصلاء، ومن عنصر ثان متكون من المساعدين. وهؤلاء كلهم يجب أن يكونوا غير مواطنين. ولكن هؤلاء، مع ذلك، كان يمكنهم أن ينالوا حق المواطنة الرومانية إذا قضوا في الجندية خمسة وعشرين عاما كاملة، يُسرّحون بعدها ليقيموا غالبا في مكان يعيّن لهم. على أن المساعدين لم يكونوا يؤخذون من البربر (الأجانب) فحسب، بل كان هناك فِرقٌ خاصة بالمساعدين الأسبانيين، والتراقيّين Thraces، والبانونيين Pannoniens، والبروطونيينBretons والسَّردانيين والكُرْسيكيين والدَّلْماتيين Dalmate والغاليين، والسيكَمْبريين Sicambres.

وكل هؤلاء الجنود سواء كانوا «أجانب أفارقة» أو أجانب حقيقة، فالخدمة العسكرية كانت لهم وسيلة فعالة للروْمَنَة، ويتحدثون باللغة اللاتينية، وبعد تحريرهم يبقون مرتبطين بما طبعهم به الجيش. وتلك هي الروْمَنة.

على أن الحقيقة هي أن إفريقيا إذا كانت اللاتينية منتشرة بها، فإن بها لغتين كانتا وكأنهما الأم - ولو أنهما من أصلين مختلفين - إنهما البونيقية والبربرية المازيغية. وإن كانت هذه متنوعة اللهجات بينما البونيقية كانت لغة موجودة شائعة على التساوي بين المدن والأرياف. ويجب أن لا نبالغ في تقدير انتشار اللغة اللاتينية. فهي - مهما يكن من أمر - كانت لغة الإدارة والمعمِّرين الرومانيين والبربر (الأجانب) المسرّحين من الجيش. وكل هؤلاء كانوا قلة بالنسبة لجميع سكان الشمال الإفريقي من أبناء البلاد الأصلاء. ولا أدل ذلك من أن القدّيس أُغَسْطين St Augustin وهو من رجال القرن الخامس (354-430) يخبرنا أن إحدى الدوائر الفلاحية بناحية بونة Bône أي عَنّابة لا بد من وجود رهبان بها قادرين على الحديث بالبونيقية، لأن الناس لا يفهمون خطبه باللاتينية.

وهناك جانب مهم يجب التنبه له، هو الشعور الديني في قلوب الناس وعواطفهم. فالبربري رجل متدين بالطبع، كانت له عباداته وطقوسه الخاصة به. فقد عبد آلهة المغارات، وعبد عيون الماء، وعبد الشجر والنجم. ولكن البلاد كانت تعجّ بالأقوام من كل حدب وصوب، وبهذا فالبلاد كانت تموج بالأفكار والمعتقدات الدينية. والذي لاشك فيه هو أن العبادات الفينيقية أو القرطاجية لابد أنها كانت شائعة بين الناس. والذي لاشك فيه أيضاً هو أن هذه العبادات لم تكن خاصة بأهلها الأصليين ولا مقصورة عليهم. وبهذا فالمغاربة قد عبدوا مَلْقارت Melqartوعبدوا تانيت Tanite. ومع ذلك نتساءل هل كان للمغاربة زون

Pantheon من آلهة خاصين بهم ؟ وجوابا على هذا السؤال أشير إلى أن المخلّفات التونسية أعطتنا نقشاً بارزا تظهر به سبعة من المعبودات جالسة على عروشها في زون، وخلفها ستار مثبت بسبع حراب، وتحتها أسماؤها مكتوبة بالحرف اللاتيني. وقد أرخ لهذا الأثر بالقرن الميلادي الثالث. أما أسماء الآلهة فهي كما يأتي :

1)– ماگُرتام Magurtam.
2)– يونام Iunam.
3)– ماكْرُگوم Macurgum.
4)– ماتِلام Matilam.
5)– بونْشور Bonchor.
6)– ويهِنام Vihinam.
7)– وَرْسِسّيما Varsissima.

فهل تكون هذه الآلهة هي التي اشتهرت باسم الآلهة المورية Dii Mauri ؟

وقد تسربت أيضا إلى البلاد عقائد أخرى من الشرق... بحيث إن بعض الشرقيين والسوريين العرب منهم على الخصوص قد حلوا بالبلاد وحملوا معهم بعض آلهتهم الشرقية، مثل طِيانْدريوس Theandrios ومناف الذي كان معبودا عربيا. ومن مصر وردت عبادة أَنوبيسْ وإيزيس.

وقد انضمت لهذه الآلهة معبودات رومة التي تختلط فيها العبادات الإيطالية بالإغريقية. فكان هناك الثالوث الكابِتولي الذي يُعبد فيه جوبِتِر Jupiter ويونون Junon ومينْرِف Minerve. ونذكر الإله مارس Mars ربّ المستوطنات العسكرية، ومِرْكور Mercure الذي عبده منتجو الزيوت، وكيريس Cérès وباخوس Bacchus، ونِبْتون Neptune إله البحار والمياه، وإسْكولاب Esculap ربّ الطب والصيدلة.

ومن وجهة نظر الدولة فإن العبادة التي لها الأسبقية على سائر العبادات الأخرى هي عبادة الأباطرة. والمغاربة عبدوا أوكْتاف Octave أو عَبَدَه باسْمِهم يوبا الذي بنى في القيصرية معبداً للقيصر أوكْتاف أوغُسْط. ثم عبد المغاربة يوبا الثاني كما عبد آباؤهم آباءه.

ثم دخلت المسيحية البلاد فاعتنقها من المهتدين جمّ غفير من الناس. وهناك حقيقة يجب التنبه لها هي أن المسيحية وجدت مساعدتها في الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية السيئة التي كانت البلاد تمر بها. وقد جاء بعض المبشرين من المشرق ومن إيطاليا نفسها. فانتشرت بين الطبقات، حتى إذا كان القرن الثاني للميلاد ظهر في إفريقيا أقوى المدافعين عن المسيحية وهو الـ Apologiste ترْتولْيانْ Tertulien القرطاجي. ولم تلبث عدة مدن إفريقية أن كان بها مجموعة من المسيحيين يسيّرهم راهب. والمسيحية بدعوتها الإنسانية، كانت تلغي النظام الطبقي بفوارقه الاجتماعية، التي بني عليها النظام الروماني. ولذلك نجد القناصل ومجلس الشيوخ يقاومون هذا الدين الجديد. فكانت الحفلات التي يقع فيها تقديم المسيحيين لأظفار الأسود وأنيابهم، وكانت حملات الاضطهاد، ومع ذلك ثبت المهتدون حتى تم النصر للإيمان.

غير أن أعراض التفكك والانحلال قد أخذت تبدو على الدولة منذ القرن الثاني للميلاد، والمسيحية تصمد للتعذيب. وفعلا فإننا نرى الأهالي يهيجون بكثرة، ونرى حركاتهم تأخذ في الانتشار. وقد اشتركت فيها العشائر والقبائل التي بقيت غير خاضعة في الجبال الرافضة، مثل بلاد القبائل والأوْراس وحتى جبال الأطلس. فكان رؤساؤهم يطمحون إلى سيادة مستقلة. وفي سنوات 258-260 اندلعت ثورة خطيرة أزعجت تخوم نوميديا وموريطانيا.

ومع الإمبراطور قُسْطَنْطين توقف تعذيب المسيحيين، فزال عنصر من عناصر الخوف والاضطراب. غير أن الأحوال لم تتحسن بعد ذلك، لأن خلافا آخر قد ظهر وكان أشد وأقوى من سابقه. إنه الخلاف داخل المسيحية لا حولها. إنه خلاف في العقيدة أوجد البغضاء والحقد والشتم، بل حتى القتل. فالجدل والشقاق المذهبي والمنافسات بين الرهبان، كل ذلك جعل القرن الرابع عصر أحداث جسيمة.

أول الأمر فإن القديس دوناتْ St Donat جهر بعداوة من مكنوا الخصوم من الكتابات المقدسة، واعتبرهم منشقين وخارجين عن الكنيسة. ومن هنا نشأ مذهبه الذي يصعب تفسيره بهذا التفسير البسيط. والحق أن الدوناتية مذهب مختلف في أصله بين المفكرين المحدثين. ففْرانْد Frend مثلاً يفسر الدوناتية بالتقسيمات السلالية والاجتماعية والثقافية، فيقول : «إن الانقسام الأساسي بين الكنيستين الكاثوليكية والدوناتية يبدو وكأنه يمثل الانقسام الحاصل بين الدوناتية في السهول الداخلية وبين الكاثوليكية في المدن[46]». ويتساءل فْرانْد هل الدوناتية هي عبارة عن نوع ما من استمرار التقاليد الدينية الإفريقية التي لا تتغير مثلما لا يتغير البربر في حياتهم الروتينية اليومية[47]. كما أن بْريسّون Brisson قد رفض النظر إلى الدوناتية باعتبارها حركة وطنية. ثم يأتي طِنْگسْتروم Tengstrôm فيشك في آراء فْرانْد وينتقد قضية التحالف المؤقت بين الزعماء الدوناتيين والدوارين، لأن هذا التحالف حسب رأيه ليس فيه أي توجه ثوري أو محاولة لإصلاح اجتماعي... كما أنه يرفض أي توجه وطني إفريقي لدى الدوناتيين حين

(46) Frend : donatist church... P.52.

(47) نفس المصدر أعلاه ص XVI.

اتصلوا بثَوْرَتَيْ فيرْموس وأخيه جيلدو. وعلى كل فقد اشتد الخلاف وتطور إلى حد أن أنصاره اعتبروا أنفسهم هم كنيسة القديسين وأن الخصوم الكاتوليكيين هم كنيسة الآثمين. وكانت الكنيسة الكاتوليكية تسير في ركاب الحكم، فاشتد هو أيضا على خصوم الكاتوليكيين، وأصبح الخلاف ذا جانب سياسي أنكر فيه الدوناتيون الكثير من سلوك الدولة. يضاف لهذا الأزمة الاقتصادية وكثرة العاطلين الذين انضموا إلى الدوناتيين، وكونوا عصابات، على الخصوص من المزارعين الغاضبين، الذين كانوا يطوفون (ويدورون) على السّلال والغِلال، فسُمّوا بالدوّارين على السِّلال Circoncelli أي الباحثين عما يقيمون به أودَهم، ويستعملون القتل والإحراق بالنار للوصول إلى أغراضهم.

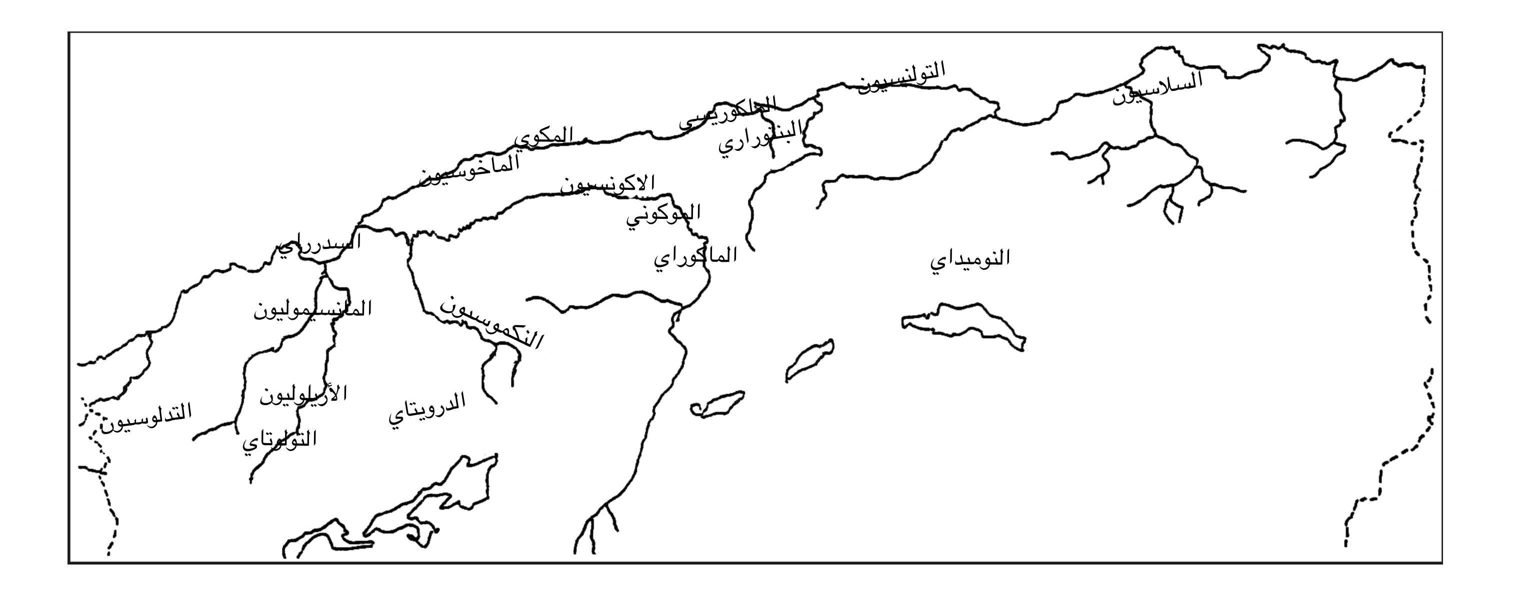
هذا التفسير اللغوي البسيط لحركة الدوارين يكون معناه Circum بمعنى الدائر حول وCella بمعنى المطمورات والأهراء أي مستودع المؤن من حبوب أو زيوت أو خمور أو غير ذلك مما كان يقع خزنه في الأرياف. لكن الباحثين المعاصرين وعلى رأسهم فْرانْد وكَلْدِرون Calderone يريان رأيين مخالفين، فالأول وهو فْرانْد يرى أنهم كانوا يطوفون حول أضرحة الشهداء الريفية التي كانت منتشرة في البوادي في نوميديا وفي موريطانيا وذلك قصد التبرك بذخائر الشهداء ورُفاتهم، ويبحثون عن قوتهم خلال ذلك. بينما الثاني وهو كَلْدِرون يعتبر أن الدوارين كانوا من النسَّاك أو الرهبان المتجولين بين الأديرة في الأرياف، وبهذا فرأيه ليس شديد البعد عن رأي فْرانْد.

ومهما يكن فالخلاف قائم حول أصل الدوّارين، وإن كانوا حسب هذا الرأي أو ذاك لا يخرجون عن كونهم كانوا يبحثون عن مخازن

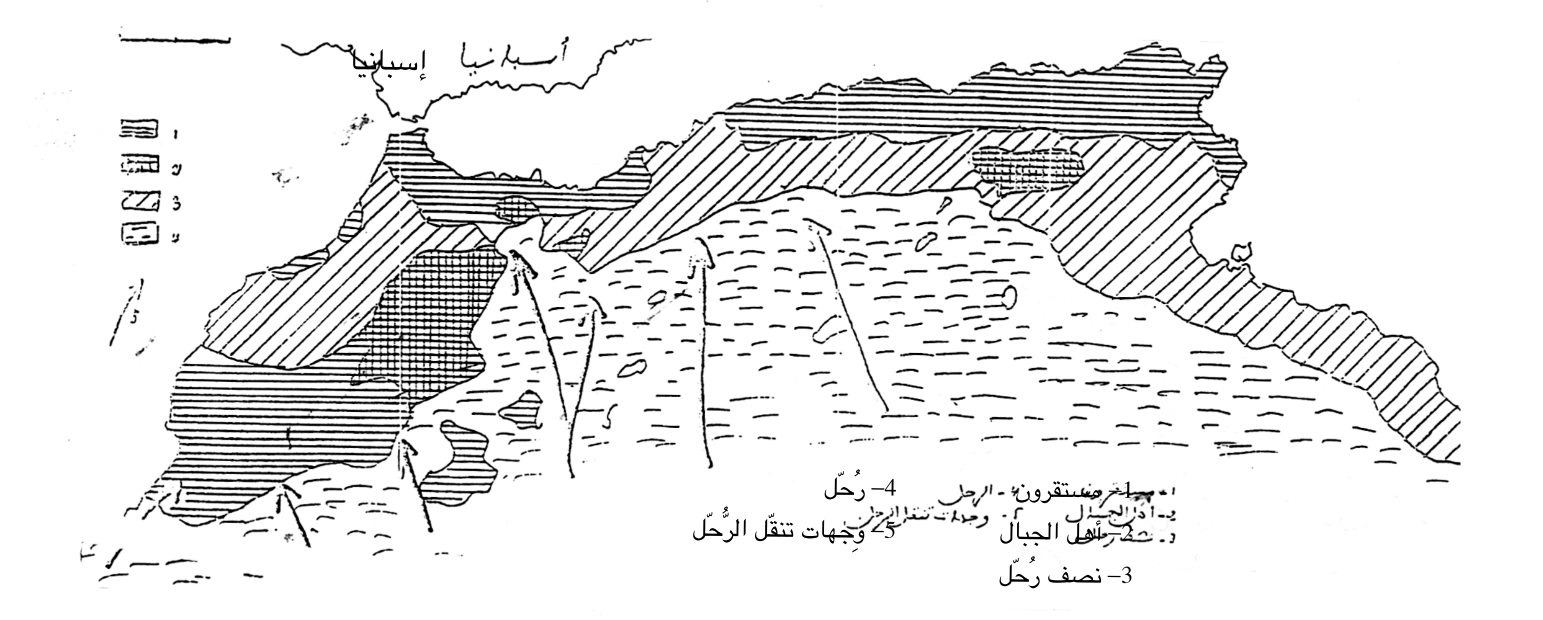
الطعام في البوادي والأرياف. كما أن انتماءَهم في الأغلب إلى الأصل الإفريقي وعدم تأثرهم بالحضارة الرومانية وباللغة اللاتينية أمر يكاد يكون متفق عليه لأنه يتماشى مع مستواهم الاقتصادي والاجتماعي الذي يلوح عليهم، خصوصا وأنهم كانوا ينتقلون من إقليم إلى آخر، الأمر الذي جعل عدم استقرارهم لا يشكل عاملاً مساعداً على رَوْمَنَتهم.

ونعود إلى موقف الكنيسة الكاتوليكية من الدوناتية، فقد انعقدت عدة مجالس كنسية للنظر في الأحوال، منها مجلس أَرْلْ Arles سنة 314 ومجمع قرطاجة مثلاً المنعقد سنة 411، وكلها حاكمت دوناتْ وحكمت عليه. ففر ومات مهاجراً منكوباً.

هذه على العموم هي الأحوال العامة لإفريقيا الرومانية كما وجدها الونْداليون الجرِمْانيون الذين كوّنوا بها طوال القرن الخامس دولتهم، كما سنراها بعد.

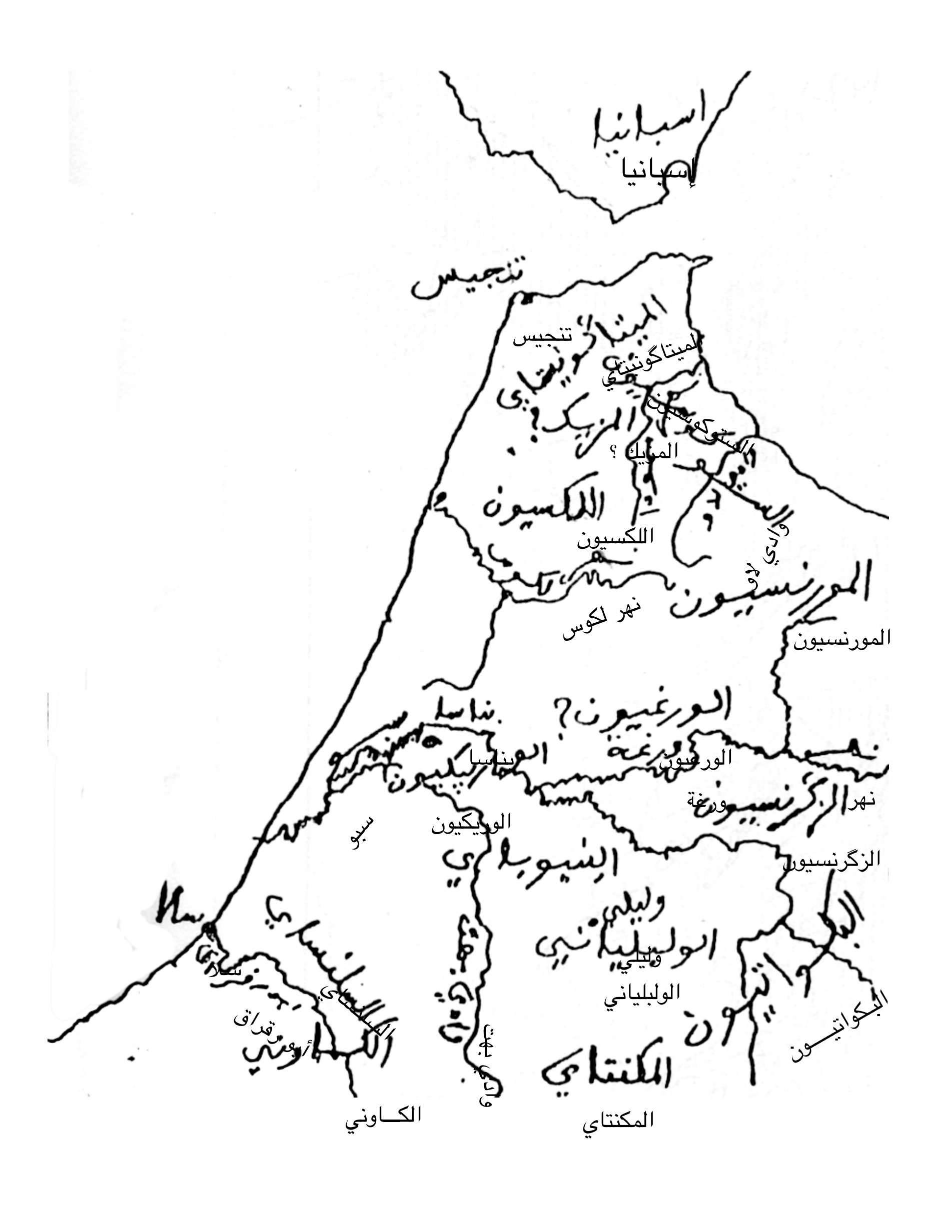


المواقع التقريبية لبعض القبائل في موريطانيا القيصرية،
بداية القرن الميلادي الثاني



أنماط الحياة عند البربر

القبائل في بداية العصر الإمبراطوري



قبائل موريطانيا الطنجية حسب بطلمي

نقلاً عن ديزنج Desanges, J

الكتاب الرابع

الونداليون بإفريقيا 429-533 م(*)

لن ندخل في المناقشات الطويلة والعريضة عن أصل الونداليين وأرضهم الأصلية، فذلك يخرج بنا لحديث متعب طويل يضني من تتبّعه. وإنما أكتفي بتلخيص القول عنهم، بأنهم يبتدئ تاريخهم عندما تمكننا الشهادات من العثور عليهم في السهول العليا لنهر الأودرOder والفيستول Vistule. واعتقد أنه لا يمكن أن نسير بعيدا، فنحدد للونداليين هذه الأرض أو تلك كوطن أوّل لهم. وكذلك لا يبدو ممكنا أن نوضح بدقة في الزمان كيف كانت هجرة الونداليين. وطبعا لا نستطيع ذكر قيمتها العددية. ولكن كيفما كانت فلا شيء يمكننا من التأكيد على أن المهاجرين أو المهاجمين قد انتقلوا بجموع ضخمة ودفعة واحدة من أراضي البلْطيق حتى سيليزْيا.

ولفظ وَنْدال Vandale يستعمل دون أن يُبيّن مدلوله. فعند القدماء نجد يْلينْ وتاسِيت في (جرمانيا II) اتفقا على أنهما أطلقا اسم Vandales على مجموعة من الشعوب، لا على واحد منها بعينه. وبواسطة نصوص متأخرة عرفنا شعبين اثنين لاشك أنهما وَنْداليان

(*) عن الونداليين بإفريقيا بقلم كريستيان كورتوا باختصار بترجمتنا العربية.

هـمـا الـهَـسْـدينْـگ Hasdings والـسـيلينـگ Silings. ولكن قـد قـيل إن الهَسْـدينـگ ليس شـعـباً بل أسـرة حـاكـمـة. ولكن، ومع ذلك، فـهل هؤلاء الهسدينـگ كانوا هـم الملوك الكهان الذين كانوا يقيمون بجبل زُبْطِمْبيرگ Zobtemberg العِبادة المشـتركـة التي كـانت في الجبل تجـري بكاهن يرتدي ملابس النسـاء ؟

هذه هي الأسـس الضـيـقـة التي سنبني عليـهـا مـجـريات الأحـداث التالية. وهي بكل أسف أسس بالغـة الضـيق، ولكنهـا تـدل دلالة واضحـة على أن لفظ وَنْدال Vandale يجب إفـراغـه من أي مـدلول ســلالي eth-nique. ذلك أن المجموعة القبلية التي نطلق عليها اسم وندال هي مـضطربة، وخـرج لنا منهـا الشـعـبـان اللذان سـيـسـتـأثران في التـاريخ اللاحق باسم وَنْداليّين. وهمـا الـهَـسْـدِيْنـگـيون Hasdings والسـيلِنْـگـيون Silings. ولكن قبل أن يجتمعوا عند الممر بنهر الرين في الأيـام الأخيرة من سنة 406م، فـلابد أنهم لمـدة طويلة من الزمن قـد مـرت بهـم حظوظ مختلفة، هي التي تكون قادتهم إلى التجمع والائتلاف.

الهجوم على غالْيا (La Gaule)

هاجم الجـرمانيـون الإمبراطورية الرومـانية في عـهد مـارْك أوريل (121-180) ومـعـهم السُّـويڤـيـون Suèves والمـرْكـومـانيـون Marcomans والكواديون Quades والسَّرْمـاتيون Sarmates. وخلال القرن الثالث في عـهـد بْروبوسْ Probus سنة 277 عـاد الجـرمـانيـون للـحـرب فـانـدحـروا. فـبـعضـهم قـتل وبعـضـهم طلب الـصلح. وبعـد ذلك طاردهم الإمـبـراطور بْروبوس فـدحرهم من جديد وقتل منهم عـددا كـثيـرا، من بينهم قـائدهم

إيجلِّوس Igillus. وقد أرسل هؤلاء الأسرى إلى بريطانيا حيث تغيب علينا أخبارهم بعد ذلك.

ولكن الجرمانيين لم يستكينوا، ففي يوم (31 من شهر ديسمبر سنة 406) عبروا نهر الراين. وكان هؤلاء المهاجمون هذه المرة هم بالضبط الونداليون ومعهم الألانيون Alains والسُّويڤيون. فقد اتخذوا ستراتيجية جديدة، تركوا بمقتضاها مهاجمة الهضبة الإيطالية، وعبروا من قفاها إلى غاليا، بجهة مايانْس Mayence أو فورمْس Worms على ما يحتمل. ولم تكن هذه الشعوب هي التي ستصل إلى إفريقيا. فبعض عناصر هذا الاتحاد مكثوا في أرض غاليا La Gaule، بينما السويفيون قد فضلوا المكوث في أسبانيا. أما السيلنگيون فقد وقع القضاء عليهم بأسبانيا، وأما الألانيون فقد خضعوا للهَسْدينْگ وشاركوهم في المقادير السياسية المتاحة لهم. على أن بعضا ممن تبقى من السُّويڤيين قد نزلوا إفريقيا مع مجموعة المهاجرين. أي إن جيسْريك قد هاجم إفريقيا ببقايا الاختلاط المتشابك للشعوب والقبائل التي كونت ذلك الاختلاط قبل ذلك بثلث قرن على حدود الإمبراطورية الرومانية.

ومن جهة أخرى فلابد من القول بأن الونداليّين والآلانيّين كانوا مرتبطين منذ الخروج لهجرتهم، وأن هذه الجمهرة من الناس قد تضخمت لاشك أثناء الطريق بعناصر بربارية أخرى، مثلهم في ذلك مثل السويفيين الذين قد انضموا إليهم. كما أنهم عند وصولهم لنهر الراين لم يجدوا المكان فارغا، بل إنهم قد وجدوا به الفَرَنْكيّين الساحليين يحتلون الضفة اليمنى للنهر.

وفعلا فقد جرت المعارك التي انتهت بموت الملك الوندالي گوضاگيسيل Godagisel. فوصل القائد ريسبانديال Respendial إلى

نهر الراين وقضى على القوات الفرنكية. وبذلك انفتحت في غاليا الطريق أمام المهاجمين. وصارت بذلك الجموع المهاجمة لها وجودها الذاتي أي لا تغتني بانضمام قوات جديدة.

لقد مكث هؤلاء الباربار في غاليا ثلاث سنين أي من 407 إلى410 مروا خلالها بمايانس Mayence، وريمس Reims، وتُرْناي Tournai، فأُمِيان Amiens ثم إلى تور، وإلى بورْدو، ثم إلى بَمْبَلونَة Pampelune. وبجولة سريعة مروا بتولوز ونهر الرون الأسفل Bas-Rhone. وهناك نص مفيد جدا في هذا الموضوع، هو الرسالة التي كتبها القديس جيروم، وبعثها سنة 409 إلى إحدى النساء اللواتي كنْ يكاتبنه، وهي الأرملة أگيروشْيا Ageruchia، وفيها يصف لها الأحداث المؤسية التي تحز في قبله. وهي تدمير مايانس واحتلال فورمْس، وريْمس وأمْيان، وَأراسْ وطيْروان Therouane، وتُرْناي وَسْبير Spireوستراسبورگ، كما أن أكيتان ونوفَمْبولاني Novempopulanie (أي أراضي الشعوب التسعة) والليونية والنرْبونية قد دُمّرت ..

الهجوم على اسبانيا (409 م)

إن الونداليين والآلانيين والسويفيين الذين عبروا نهر الراين في سنة 406 هم أنفسهم الذين عبروا في خريف 409 الجبال واقتحموا أسبانيا. ونجهل الطريق بالضبط التي ساروا عليها إلى أسبانيا، ولكننا نتصورهم ماشين صفوفا خلال قمة رونْصوفو Roncevaux. والبلاد

كانت تقاسى مساوئ النظام الإمبراطوري، تلك المساوئ بل المآسي التي خلف لنا عنها هيداس Hydace لوحة قاتمة. إذ زيادة على مساوئ البارابار المهاجمين، كان هناك ابتزازات رجال الجباية، كما انتشر الطاعون، وبلغت المجاعة إلى أن كان الناس يأكلون لحم البشر، وجذبت الحيوانات المفترسة جثث الموتى تفترسها. وقد اختفى الأسبانيون الرومانيون في المدن والحصون. أما المقاومة فقد كان على رأسها بعض رهبان الكنائس. ولكنها مقاومة لم تدم. ثم عاد الهدوء شيئا فشيئا.

وفي سنة 411 أو 412 قسم البارابار البلاد بينهم. فتوزعوها بالاقترا ع بينهم سلما لا بالحرب. فكانت بيتيكا La Bétique من حظّ السيلنگيّين، ولوزيطانيا مع قَرْطجَنّة من حظ الآلانيين، وگاليسْيا من حظ الهَسْدَنگيّين، ويحتمل أن الأسبانيين الرومانيين فضلوا الركون للقبول على العموم. فبعد توقف القتل والنهب قد عادت الحياة إلى مجراها الطبيعي، فاطرح البارابار الرمح شيئا فشيئا واستعملوا المحراث، وعاملوا الرومانيين كشركاء أكثر من كونهم رعايا.

ولكن لم تحل سنة 416 حتى هاجم الفيزيقوطيّون بقيادة ڤالْيا Wallia الآلانيين في لوزيطانيا، ثم السيلنگيين في بيتكا، وفي نهاية نفس السنة 416 وقع في الأسر ملك الونداليين فْريْدبالوس Fredbalus. ولم يقع القضاء على السيلنگيين إلا في سنة 418. وفيها قضى ڤالْيا Walliaعلى الآلانيين، فمات الملك أداكس Addax، وخضع من بقي من شعبه للهَسْدَنْگيّين ولملكهم گونْتاريك Guntharic. وعاد فاليا إلى غاليا ولم يهاجم جبال گاليسيا والهسدنگيين فيها. فأصبحت أسبانيا تبعا

لذلك بين أيدي الهسدنگيين والسويفيين. وفي سنة 425 عاد السلب والنهب للوجود، فهوجمت قرطجنّة Cartagène وخربت، كما هوجمت جزر الباليار، ومدينة هيسْباليس Hispalis التي هي إشبيلية. ولربما أن هذه السنة هي التي هوجمت فيها شواطئ موريطانيا. ويظهر جيسْريك Geisric لأول مرة في الانتصار الذي أحرزه سنة 429 على السويفيين.

في هذا الوقت تقرر مصير الونداليين. إذ في إفريقيا لا في أسبانيا ستجري مغامراتهم الأخيرة. خصوصا وأن الزعيم الجديد أو الملك الجديد هو جيسريك الذي كان يتحلى بالعزم والحزم والإدارة الفعالة التي تمضي به قدما.

جيسِريكْ (Geiséric)

وقبل الخوض في الهجوم على إفريقيا نعرض لذكر جيْسرِيك الذي من سنة 428 إلى سنة وفاته 477 قد طبع التاريخ بطابعه القوي. لقد كان رجلا صغير الجسم، وكان أعرج، ومع السنين أصابه السمن. لقد ولد سنة 389 من علاقة غير شرعية، على ما يقال، أي لا شيء كان يهيئه للسلطة التي لم ينلها إلا عندما شارف الأربعين من عمره، وفي ظروف غير واضحة، أحيطت بالأساطير. لم يعرف في صغره ترف القصور، لذلك احتفظ بأذواق بسيطة، غير أن ذلك لم يمنعه من أن يكون صموتاً، جشعاً، متقلباً، متلوناً، وعُرضة لثورات الغضب المصطنع أو الحقيقي، وأن يكون زانية وقاسيا. كان مسيحيا ويكره الكاثوليكية التي تسير في

ركّاب حكام رومة. واعتنق الأريوسية، أي مذهب أريوس. ونعلم أن أريوس كان من الهراطقة، وأنه قد وقع تكفيره في مجمع نيقيا Nicée المنعقد سنة 325. وكان أريوس هذا يرفض القول بتأليه الكلمة، ومات في القسطنطينية في سنة 336م.

ونعود إلى جيسرِيك لنقول أن سياسته الدينية ليست أبدا سياسة رجل متعصب، بحيث إذا كان لا يتردد في التضحية بمستشاريه الذين يرفضون عقيدته، فإنه كان يعرف كيف يلين فيما يعتبره من مصلحته. وهو عميق التفكير، يمتزج في تفكيره الجرأة والحذر معا. ومن حيث إنه دبلوماسي فهو مستعد دائما لزرع الخلافات أو لإثارة الضغائن، ومن حيث إنه باربارُ فإنه مخادع طبعا، ويبدي عناية طبيعية بإقامة العدل. وفوق هذا فإنه قائد كبير، يعرف كيف يستعمل عند الضرورة السيف والذهب. فهو الذي في السبعين من عمره قاد الحملة على رومة، وهو كقائد يتحلى بالعقل المقرر والمدبر. ويمتاز على الخصوص بالشعور بالسلطة التي لا تخالطها الاهتمامات العاطفية. فماذا كان يريد ؟ وإلى مَ كان يتطلع ؟

إذا اختصرنا الموضوع نقول إنه كان يريد أن يؤمّن لشعبه إمبراطورية القمح. كان يريد أن ينحي عنه – وإلى الأبد – شبح الجوع. إنه لم يرد ولم يحاول تحطيم الإمبراطورية الرومانية، بل ولا حتى أن يخربها إرضاء لبربارية طبيعية فيه.

العبور إلى إفريقيا وتأسيس الدولة الوَنّدالية

يروي فيكتور دِڤيتا Victor de Vita أن جيسريك عندما عزم على الانتقال إلى إفريقيا، قام بإحصاء شعبه، إحصاء عاما. فصح لديه 80.000 فرد. ولكن السؤال المطروح هو: هل الإحصاء وقع حتى على النساء والأطفال والشيوخ العجزة ؟ وهل أحصى حتى العبيد ؟

إن مرور الونداليين إلى إفريقيا لم يكن لمجرد حملة عابرة، بل كان للسيطرة على أراضي القمح. إذن فكم كان عدد الرجال القادرين على حمل السلاح ؟ إن ابْروكوب في كتابه أنيكْدوتا Anecdota يقول إن الجيش كان متكوناً من 80.000 رجل. وفي كتابه «حرب الونداليين Bellum Vandalicum» إن جيسريك قد جعل الونداليين والآلانيين مقسّمين تحت قيادة الخليركيين Chaliarques الذين كان عددهم ثمانين. ونحن نعلم أن الخيليرك Chiliarques يتطابق مع الميِّلناريوس Millenarius، أي إنه قائد الألف، بمعنى ثمانين قائد لكل واحد منهم ألف رجل. وهذا يقتضي أن نظام الجيش الوندالي كان يعمل وفقا لنظام الجيش الروماني الذي به الميلناريوس يقود ألفا من الرجال. ولكن ابْروكوب لم يقل إن الجيش هو الذي كان مقسما تحت قيادة الخيليركيين، وإنما قال : «إن جيسريك جعل الونداليين والآلانيين تحت قيادة الخيليركيين الثمانين». وهذا معناه أن الشعب الوندالي كله كان يبلغ 80.000 رجل إن صح هذا العدد.

إننا نعلم أن الونداليين قد انطلقوا إلى إفريقيا في ماي من سنة 429. وأنهم انطلقوا استجابة لدعوة بونيفاس Boniface كونْت إفريقيا، وبتحريض على ما قيل من زوجته الوندالية. والحق هو أن بونيفاس كان

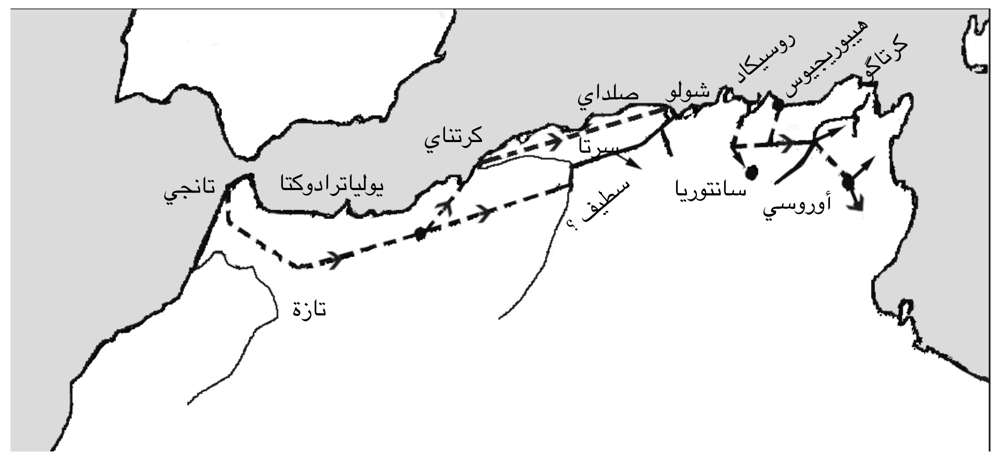
يعمل، أو هو بالفعل، قد عمل للخروج عن طاعة القصر الخاضع لستيليكون. وفي سنة 427 انطلقت ضده حملة عسكرية، تبعتها حملة ثانية بقيادة سيجِسْفُلت Sigisvult. وقد قيل أيضا إن الونداليين قد أبرموا معاهدة مع بونيفاس، بمقتضاها تم توزيع الولايات فيما بينهم.

والنصوص التي تذكر ذهاب الونداليين إلى إفريقيا، أكثرها تشير له من دون تفصيل. ثم إن گريگوار التورسي Grégoire de Tours قال إنهم انطلقوا من ميناء يولْيا ترادُكْتا Julia Traducta الذي هو ميناء طريفة اليوم، ولكننا لا نعلم مكان نزولهم بإفريقيا. فعلى قول إنهم نزلوا بمكان ما بين تِنْجي (طنجة) وسبْتُم (سبتة). وأن هذا الموقع لم يكن سوى محطة، سوى موقف للسفن التي تابعت إبحارها من بعد طوال 400كيلومتر في مسايرة الساحل المغربي حتى وصلت لميناء آد فْراتْرِس Ad Fratres (ميناء نمور) بجهة وهْران ؛ وعلى قول آخر إنهم نزلوا في طنجة ومنها ساروا إلى غرب الجزائر عن طريق ممر تازة. ولعل هذا الرأي هو الأصح. لأن القول بالطريق البحرية يبدو أنه يلقى عقبات مانعة، لأن الملك الوندالي في أول الأمر لم تكن بيده سوى بيتِكا La Bétiqueوحدها. وساحل بيتكا له 700 كيلومتر تقريبا، وكان المفروض أن يتوفر له الأسطول الضخم لينقل شعبه كله. فمن أين له بالأسطول الذي يحمل المحاربين والنساء والأطفال والشيوخ العاجزين، وأن يحمل العبيد، وأكثر من ذلك أن يحمل المؤن من أسبانيا إلى أحواز وهران؟ هل استولى على الأساطيل الأسبانية ؟ هل انطلق بها في عملية ودّية مع أصحابها الأسبانيين ؟ لا، إن Chronica Gallica تقول : إن الباربار قد عبروا إلى إفريقيا على سفن مُحتجَزة Confisqués. ولا نعلم

شيئا عن وضعية طنجة في هذه الأثناء. فهل استولى عليها الونداليون ليسيروا من منطقة سْبَرْتِل لما بعدها ؟ على كل ففي نهاية شهر جوان يكون الونداليون قد تم ترحيلهم إلى إفريقيا.

ثم ابتدأت المسيرة البطيئة في اتجاه الشرق. ونحن لا نعرف شيئا عن تفاصيل المسيرة. ولكنهم ساروا مع ممر تازة الذي هو الطريق الوحيدة المبلِّغة إلى مَلْوِية ومنها إلى ما وراءها من البلاد والأراضي. وكم كان عليهم أن يقضوا من الزمن في الطريق سائرين بجموعهم من طنجة إلى ألْطاڤا Altava ؟ لابد أن المدة كانت تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر، لأنهم كانوا يجرّون من خلفهم الأطفال والنساء والشيوخ. لذلك نفرض أنهم لم يكونوا يسيرون في طابور على صف واحد، بل إنهم انقسموا لتسهل مسيرتهم كما فعلوا في غالْيا.

المسيرة المظنونة للونداليين بشمال افريقيا

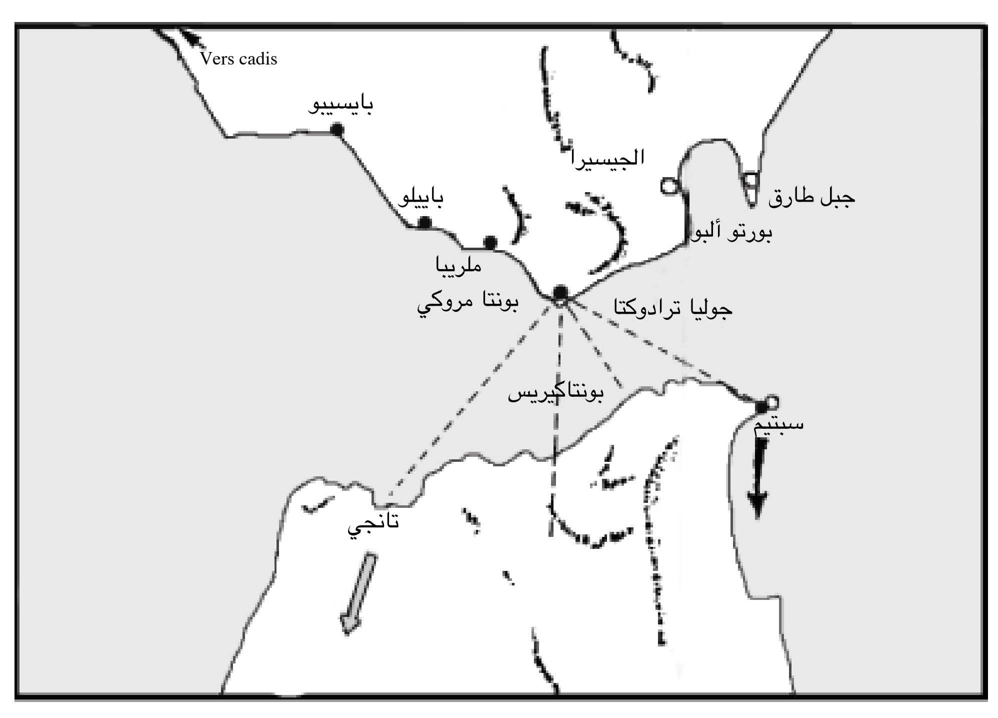


مواقع أكّدت النصوص مرور الونداليين بها

وختاما لابد أنهم تلاقوا مع البَكْواتيين Baquates والبَواريّين Bavares، ولم تتصدر المودة هذا اللقاء. ثم إننا نجهل ما جرى بعد ذلك حتى نجدهم في شهر ماي أو يونيو سنة 430 في هيبون، بحيث يكونون قد قطعوا مسافة 1200 كيلومتر في سبعة أشهر. ومن المؤكد أنهم في بداية 431 يكونون قد انتشروا على قسم كبير من نوميديا الشرقية، وهاجموا البروقُنْصولية وولاية بيزسينا. وهنا وَجْه العجب وهو أن بونيفاس قلب ظهر المجن للونداليين وقرر أن يخوض المعركة ضدهم. فماذا حدث ليغيّر رأيه ؟ إنه لم يتصالح مع الإمبراطورية، ولكنه مع ذلك قرر أن يحاربهم. لعله – ولا نجد جوابا غير هذا الآن – نعم لعلّه تيقن أن الونداليين قد قرروا البقاء في إفريقيا. أو لعله خشي من الحملة التي قررت الإمبراطورية إرسالها على الونداليين بقيادة البطريق أَسْبار Patrice Aspar، فقرر موالاتها والرجوع إلى الصف الروماني كما يقال، ولذلك أشهر الحرب على الونداليين. ومهما يكن فإن هذه الحملة لقيت ما كان منتظرا لها من الإخفاق، فاندحرت واندحر معها بونيفاس فسارع بالعودة إلى إيطاليا، وسارع أسبار بالرجوع إلى المشرق. وبقي جيسريك مطلق السيادة على إفريقيا.

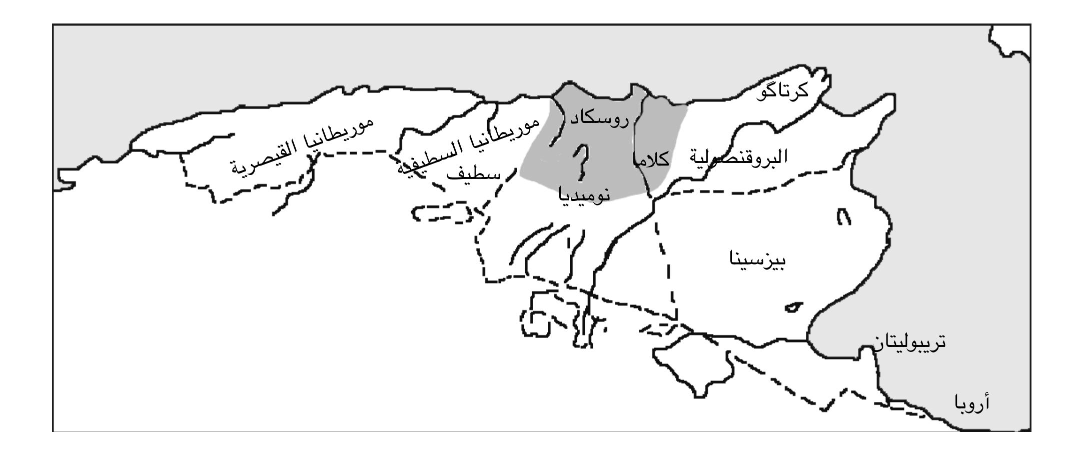
هذا الانتصار وما تبعه أرغم الإمبراطورية على الاعتراف في سنة 435 لجيسريك بسيادته على قطعة من أرض الإمبراطورية، تمتد من الغرب إلى الشرق أي من سِتِفيس Sitifis (سطيف) إلى Calama (قالمة)، كما أنها بالشمال كانت تصل للبحر. وهذا معناه أن الدولة الوندالية الأولى كان مجالها في نوميديا. ولكن نوميديا لم تتمسك بجيسريك طويلا. إذ احتل

مضيق جبل طارق

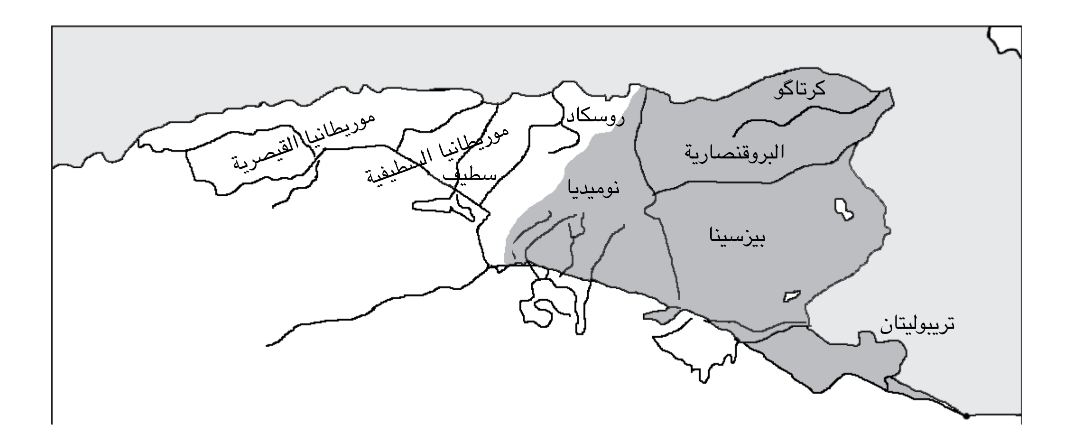


قرطاجة يوم 19 أكتوبر سنة 439. وهكذا فقد اقتطع في قلب إفريقيا الرومانية دولته التي كان يطمح إليها. بحيث إنه كان في سنة 442 قد نال كل القسم الشرقي من إفريقيا الرومانية وهي المنطقة الأكثر رومَنَةً والأكثر ثروة. ولم يحتفظ من نوميديا إلا بقسم بسيط هو نوميديا الشرقية.

عمليات تقسيم إفريقيا بين الونداليين والإمبراطورية البيزنطية



عمليات تقسيم إفريقيا بين الونداليين والإمبراطورية البيزنطية



أما الإمبراطورية فقد احتفظت بالموريطانيتَيْن السطيفية والقيصرية. على أن الأحوال يبدو أنها تغيرت بعد اغتيال الإمبراطور فَلَنْتِنْيان الثالث Valentinien III سنة 455. إذ نجد دِقِيتا يصرح أن الساحل الإفريقي - بعد حادث الاغتيال - قد أصبح بكامله بيد

جيسريك. ولكن هذا معناه في الحقيقة إذا صح قول دِقِيتا، أن المنطقة الساحلية للأسقفية القديمة لإفريقيا قد وقعت في يد جيسريك. والمتمسكون بنظرية الاحتلال الكلي لبلاد البربر، يؤسف لهم بأن البرهان الوحيد لحلول الونداليين بغرب مدينة الجزائر ينهار ومعه الحدود الوهمية.

فعلى أكثر تقدير يمكن الظن بأن الونداليين يكونون قد استولوا على بعض النقط على الساحل. وعلى كل فوجود بعض نقط الارتكاز – إذا وجدت – على سواحل القيصرية أو على سواحل التنْجيتان مثل سِبْتِم Septem (سبتة) لا تؤكد مطلقا الاستيلاء على هاتين الولايتين.

وختاما يبدو أن الدولة الوندالية لم تكن لها السّعة التي جرى عنها الحديث بعد سنة 455. بل إنها، باستثناء بعض التغييرات الترابية الطفيفة قد بقيت كما اقتطعها مؤسسها جيسريك. فهي عبارة عن كتلة متكونة من بيزسينا ومن البروقنصولية ومن قسم من نوميديا، ومن بعض التوابع، أي الولاية الطرابلسية ومن بعض نقط الارتكاز – وإن كانت هذه غير متأكدة – بالساحل الموريطاني. فالدولة بعيدا عن انتشارها على إفريقيا كلها، قد بقيت بالفعل مقتصرة على الشمال من بلاد البربر الشرقية.

أما خارج التراب الإفريقي فإن إمبراطورية الونداليين قد ضمت الجزر المبعثرة في البحر الأبيض المتوسط الغربي. لكن سيطرتها على هذه الجزر لم تقع دائما ابتداء من نفس الوقت، كما أنها لم تنته في نفس الحين. هذه الجزر هي :

أ – جزر الباليار التي يبدو أنها لم تستول عليها إلا في سنة455 بعد وفاة فَلَنْتِنْيان الثالث Valentinien III.

ب – جزيرة كُرْسيكا: لقد حاول جيسريك احتلالها عقب وفاة فلنتنيان الثالث، في سنة 456. ولعل هذه الحملة تكون قد فشلت. ولكن المتأكد هو أن الجزيرة كانت من بعد خاضعة للونداليين، وإن كنا لا ندري كيف ومتى حدث ذلك. ومع هذا فإننا نجهل كل شيء عن النظام الإداري والسياسي للجزيرة في عهد جيسريك.

ج – جزيرة سرْدانية : لم يقع احتلالها إلا في سنة 455. وتاريخها مضطرب وكثير الأحداث. ولكن يبدو أن الونداليين برغم كل شيء قد احتفظوا بها إلى عهد بيليزير Bélizaire ثم تخلوا عنها.

د – جزيرة صِقلّية تَبدو أن جيسريك قد تدخل في شؤون هذه الجزيرة من وقت مبكر، بحيث إنه في سنة 440 قام بحملة تخريب فيها، ثم عاد إلى إفريقيا. ولكن يبدو أنه عاد للسيطرة عليها هذه المرة في سنة 468، بعد ما هاجموها سنة 461 و462 و463 و465. وبعقد 474 مع الإمبراطاورية قد أضفت الصفة الشرعية على سيطرة الونداليين على الجزيرة. ولكن بعقد 491 يبدو أن ملك الأسْتْروقوطيين Ostrogoth عقب حرب انتصر فيها نال السيادة الكاملة على جزيرة صقلية. وانتهى بذلك الصراع بين سادة إيطاليا من جهة وسادة إفريقيا من أخرى على صقلية.

البيئة بدولة الونداليين

لا شك أن الونداليين، بمن فيهم الهسدينگيون والسيلنگيون، حتى ولو ضممنا لهم السُّويڤيين، قد كانوا قلة بالنسبة للعالم الإفريقي، ولو لم نضم له من به من الرومانيين. نعم كان الونداليون يكونون كتلة، ولكنها لم تكن كما يقال وحدة متراصة. يضاف لهذا أن قلتهم قد اتضحت بالأرواح التي لابد أنهم فقدوها في حروب الاستيلاء، كما يضاف لهذا أعداد الأفراد الذين كانوا يبقون في الجزر كحاميات، لذلك فنحن ملزمون بالتسليم بأنهم كانوا قلة ضعيفة بالنسبة للكتلة الإفريقية والرومانية. ولعل جيسريك قد تنبه للأمر، وخشي من تشتيت شعبه في أرض غنية، يكون غناها سببا في إتلاف شعبه، لذلك نجده قد قسم – على قول فيكتور دِڤيتا – ما استولى عليه إلى قسمين. فما كان واقعا في الولايات المحيطة (بيزسينا ونوميديا وجيتوليا) فيرجع للتاج. وأما الجيش فقد أعطيت له الأراضي الأكثر خصبا وهي أراضي البروقنصولية. وما كان هذا العمل إلا تلافيا للتشتيت الذي ينتظر شعبه. ولكن هل أجدت هذه السياسة ؟

يبدو أن العدد الضخم للأفارقة، وللرومانيين معهم كان أقوى مما فعله جيسريك. كما أن عزلة الونداليين بإقامتهم في المدن الرومانية الجميلة قد قوى عليهم خطر الحضارة التي تجذبهم وتكسوهم بمغرياتها، فيتفككون وتنحل روابطهم. وعلى هذا يصح السؤال : هل اندمجوا ؟ أخشى أن يكون الجواب هو أنهم إذا اندمجوا ضاعوا وضاعت شخصيتهم وذاتيتهم في الكثرة، وإذا لم يندمجوا ضاعوا في العزلة والوحدة. على أنه يضاف لذلك أن الزواج المختلط قد كان ممنوعا كما

قيل، ولكن لا يوجد نص يشهد بذلك. والمظنون أنهم لم يتحاشوا الاقتران الشرعي أو غير الشرعي بين الغالبين والمغلوبين. فلو لم يعملوا بالزواج المختلط مثلا لما صح اعتبار قول ابْروكوب إن عدد الونداليين قد زاد بسبب كثرة المواليد. ولقد بين لنا في كتابه أنيكْدوتا Anecdota أنه يعتبر الباربار وكأنهم كل، ولا يميز في هذه الحالة بين الموريين والونداليين. والحاصل هو أن كتلة الونداليين كانت تنزع إلى التفتت والذوبان، لأنها منذ الأول كانت بالغة الضعف، ولا تقدر أن تحل محل السكان الأهالي، ووجدت نفسها أيضا ضعيفة بسبب تشتتها وبسبب التأثير المهلك لحضارة متفوقة على حضارتها. بحيث إننا نعتبر الونداليين حين سقوط دولتهم وكأنهم قلة سلالية Ethnique في طريق الاندماج التدريجي.

ونكاد نجهل كل شيء عن لغة الونداليين التي لم يبلغنا عنها أي أثر. لقد قيل إنها ترجع لأصل جِرْماني أطلق عليه علماء الدراسات الألسنية اسم اللغات الأَسْتِية Ostique. ولكن هذه الشعبة تنحصر في اللغة القوطية. وبفضل المعطيات التاريخية وبعض الأسماء الشخصية يمكن بصفة جازمة إظهار أصل اللغة الوندالية، أقول أصلها لا هي بالذات، ولكن يبدو من العبث استرجاع لهجة أو لغة قد ضاعت إلى غير رجعة. ومهما يكونون قد وفوا للغتهم فيبقى – نظرا للضغط العددي – أن اللغة الوندالية تظهر وكأنها مهددة قريبا أو بعيدا بالمستقبل اليائس للغات الطقوس الدينية.

الحروب الدينية

والخاصية الدينية تقوي الذاتية عند الباربار، إذ يرسخها المذهب الأَرْياني Arianisme، الذي يفصلها عن محيطها الاجتماعي. فبارتباطهم بعقيدة خاصة بهم، تعتبر أسوأ الْهَرْطقات، فالونداليون ينزوون في حقيقة كونهم أقلية.

ومقابل المذهب الأَرْياني الأريوسي نجد الكنيسة الكاتوليكية تجتهد لإنقاذ الضالين والمترددين. سواء في الناحية العملية أو في الميدان الفكري، بإنتاج فكري ضد الأريوسية طوال العهد الوندالي كله. مما دعا الأريوسيين إلى أن يجيبوا على هذه الحملات بعمل حاسم. ذلك أن الملك هونْريك أصدر مرسوما مؤرخا بيوم 20 ماي سنة 483، هدد فيه الرهبان الكاتوليك الذين بالرغم «عن المنع الصادر لهم في عدة مناسبات»، قد استمروا في عقد الاجتماعات في الضيعات التي يعمرها الونداليون، وليس لأتباعهم فحسب، قصد التضليل لأرواح المسيحيين. وفي مرسوم آخر مؤرخ بيوم 25 فبراير سنة 484 عاد الملك فجدد المنع الصادر للإكليروس الكاتوليكي عن هذه الاجتماعات. فالحرب الدينية كانت إذن على أشدها – لما خمدت حرب السلاح – بين الونداليين والكنيسة الكاتوليكية.

إن المذهب الأرياني الأريوسي قد ولد في القسم الإغريقي من الإمبراطورية. وإذا كان مسجلا بأنه هرطقة، فهو من الوجهة الفكرية ليس دون الأرثودكسية الكاتوليكية. وإذا كان الملوك الونداليون قد جعلوا للكنيسة الأريانية مرتبة كنيسة وطنية، فلأنهم انتصبوا أبطالا للحقيقة التي تدافع عنها كنيستهم، في انتظار النتيجة النهائية للخصم المزاحم البغيض.

والكنيسة الأريوسية كنيسة مستقلة، كجميع الكنائس المؤلفة حول نفس العقيدة لدى جميع الباربار، ولذلك لم تستطع أي منها أن ترتفع إلى العالمية – مثل الكاتوليكية – وأن تنتظم فيما بينها حول بابَوِية واحدة من بينها. ولكن الكنيسة الوندالية قد خضعت لرئيس يحمل اسم بطريرك Patriarche، ثم إنها تقدم نفس المراتب، مثلها في ذلك مثل الكنيسة الكاتوليكية. ففيها أساقفة وقساوسة وشمامسة، ومن المحتمل أن يكون البطريرك هو الذي يعيّنهم في مراتبهم الكنسية كما في مناصبهم العملية بالكنيسة. وأيا ما كان الأمر فالكنيسة الأريانية الأريوسية كانت متحيزة لنفسها كتحيز الكاتوليكية. فكلتاهما كانت ترى أنها هي الوحيدة الممثلة للحقيقة. وتنتظر من الدولة أن تشدد قبضتها على الخصوم الهوموسيّين Homoousiens أو الهُمسيين Homosiens أو الهُمْسِيانيين Homosianistes، الذين في المذهب الأرثودكسي ـ الذي هو الكاتوليكي عند الأولين ـ هم القائلون حسب عقيدتهم بوحدة الجوهر الإلهي في الربّ وابنه. ويعارضهم أريوس صاحب المذهب الأرياني والونداليون معه الذين لا يؤمنون بأن المسيح ابن لأبيه الرب، إذ ليس بينهما وحدة جوهرية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يظهر أن الونداليين نسوا أو قد تناسوا الهندسة البسيطة لمنازلهم الأولية. وأنهم أصبحوا يتعودون على الدارات Villas الرومانية التي لم يلبثوا أن استجابوا لجاذبيتها. فاستقروا بها لما دخلوا إلى إفريقيا. فهم كما يقول ابْروكوبْ في منازلهم الفخمة المحاطة بالبساتين، وبها ماء السقايات يطري الجو. فكانوا يقضون بها حياة الفراغ كأثرياء الرومانيين، وكانوا يقضون أوقاتهم بين المأدبات والحب، ويملأون ساعات فراغهم بالحمامات المعدنية وكل

أنواع الفرجات. وحتى الملابس لم تلبث أن تغيرت. فبعد مرور خمسين سنة شاع استعمال ملابس الحرير، والملوك يظهرون على النقود بغير لِحَى.

هكذا اتخذ الباربار عادات الرومانيين، ولم يلبثوا أن قلدوهم حتى في إفراطهم. وشتان بين العهد الأول للاستيلاء حيث كان القانون الوندالي يقف بغضب ضد الفجور العمومي. وحيث المومسات كنّ يُطردن من المواخير ويلزمن بالزواج، كما كان اللائطون والفسّاق يُلزمون بقسوة بالملذات المسموح بها.

النظام المْلَكي

كانت الأنظمة الجرمانية البدائية تقوم على مبدإ بسيط، هو مشاركة الأفراد في إدارة الجماعة، مع ضمان وجود سلطة لازمة في ميادين السياسة والحرب والدين. أي إنها تؤول إلى عنصرين أساسيين هما الندوة Concillium والملِك Rex. وما يحسن التعرف عليه هو الطريقة التي توافقت فيها الندوة Consillium مع الظروف الجديدة المتولدة عن الاحتلال.

فأول ما يجب التنبه له هو أن المجتمع الوندالي بالمعنى الدقيق للفظ لم يكن يضم إلا الرجال الأحرار. ولكن هل يوجد نُبل Noblesse بالمعنى الصحيح في هذا المجتمع ؟ وإذا كان فعلى أي أساس ؟ إن جيسريك قد كسّر النطاق التقليدي للقبائل بتوزيعه للرجال الأحرار، ثم إن الملكية الوندالية ليست انتخابية، ثم لأن الملك أصبح يخص نفسه

بإصدار القوانين. فأين مع هذا موقع الندوة Consillium ؟ فلا يظهر والحالة هذه إمكان للتسليم بأن الندوة الأولية قد استمرت في الوجود على شكل مجمع أرستقراطي. ثم إن نصا من بْروسْبير Prosper يخبرنا أن سنة 442 فيها أثارت كبرياء Superbia جيسريك على مؤامرة الأرستقراطيين Optimates. وقد قابلها جيسريك بعنف وقسوة.

لقد كان الملك بجانب الندوة يمثل في القانون الجرماني القديم العنصر التنظيمي الأساسي. فماذا بقي من الندوة بعد تشتيت جيسريك للرجال الأحرار (النبلاء) ؟ لقد بقيت لنا نصيحة جيسريك لأبنائه، وهو على فراش الموت كما قيل. فبهذه الوصية يكون الملك قد شَرع قانونا ميراثيا عرفيا جديدا. إنها دستور أو قانون ابتدعه الملك الشيخ. وتدبيره أي نصيحته، أو قانونه المبتدع نجده عند جورْدانْس Jordans وابْروكوب وفيكتور دِڤيتا. فقد جمع جيسريك وهو على فراش الموت ذريته وعبر لهم عن إرادته في أن لا تصير المملكة ألعوبة مطامعهم المتنافسة. فهي تؤول إليهم بالتتابع حسب نظام محدد، وهو أن المملكة يجب أن ترجع ليد أكبر الأمراء من الجيل الثاني بعدما يختفي آخر الأحياء من الجيل الأول.

وقد عُرف هذا النظام بأنه Agnatique أي بِرابطة النسب من جهة الأب فحسب. وقد أطلقوا عليه اسما إرْلَنديا هو تانيسْتري Tanistry. وهو نظام معروف عند العديد من الشعوب. ولهذا النظام مساوئ لا تخفى على أحد. وهي أنه كما قال ماين H.Sumner Maine يكون حتما «موضوع خلاف» دائما. لأن هناك ميلا طبيعيا لكل أمير حاكم يجتهد في إبعاد خلفائه الشرعيين، ليضمن لأولاده السلطة التي يملكها هو. وهو عند تغيير

كل ملك يثير اضطرابا يفضي أحيانا إلى المؤامرة أو إلى الثورة والحرب. وذلك ما حدث بالفعل حين الأزمة التي كانت كامنة منذ 477 وانفجرت عند سنة 481. فلقد أمر هونْريك بقطع رأس زوجة خَلَفه المعيّن الذي هو تُويْدريك Teudiric، التي كان يخشى أن تحرض زوجها أو ابنها ضده. ثم جاء دور هذا الابن للموت، ثم إن ولي العهد تويدريك بنفسه قد نُفي وترك على حال من البؤس والاحتياج حتى غاب عن الأنظار. ولم يمتنع الملك عن أن يتتبع من بقي من ذريته. ثم يأتي جيلمير Gelimer الذي قد أراد بفضيحة لا مثيل لها أن يحقق مطامحه قبل الأوان. فاستولى على الملكِ بذاته وعلى أبنائه، وكذلك على هُوامير Hoamer وهُواكيس Hoa-geis ابني أخيه، ثم أمر بقتل أسراه من بعد. وهكذا فبمأساة التانيسْتري Tanistry انتهت دولة الونداليين.

طرائق الحكم ووسائله

باعتبار أن الدولة الوندالية منطقة ترابية تجري فوقها سيادة الملك، فإن هذا يفرض على الملك أن تكون له وضعية دولية. فهو الأمير الممثل لشعبه، وهو صاحب الكلمة في الحرب والسلم، وأن تكون له سفارات. غير أن السفارات الوندالية المعروفة ليست كثيرة العدد. أما عن قيادات القوات العسكرية، فالملك في الأغلب قد أسندها لذويه واستراح، باستثناء عهد جيسريك الذي كان فيه الملك يقود الجيوش بنفسه.

ونفترض أن الملك قد أحاط نفسه ببعض المستشارين. ولكن لا شيء يخبرنا بوجود مصالح متخصصة في ميداني الحرب والسلم ولو

في شكل بسيط. والمجال الداخلي هو الذي تتشعب فيه الأمور. ولكننا لا نعرف إسعافات اجتماعية، ولا تعليما عموميا. وباستثناء إصلاح للطرق، فيمكن القول بأن الخدمات الكبرى تكاد تتلخص في مظاهر الفخامة فحسب. لأن واجب الدولة تقريبا يتلخص في ترسيخ احترام القوة العمومية بواسطة إدارة بسيطة قليلا أو كثيرا، وفي القيام إلى حد ما بالوظيفة القضائية. وقد كانت السلطة المركزية تختلط مع القصر. وكان الملك يقيم في قصر يقع على أحد المرتفعات بالمدينة. والملك الجرماني دائما كان له عاصمة هي هِيپون في أول الأمر، ثم قرطاجة بعد الاستيلاء عليها بعد سنة 439. وكان الملك يمضي الوقت الذي لا تتطلبه الحكومة في المأدبات الفاخرة. كما أن الملكات ولاشك حتى الأميرات الأعلين قد كنّ يركبن عربات الاحتفال ويتنقلن وسط حرس فخم. وعلى غرار الإمبراطور فالملك الوندالي – على ما يحتمل – قد انزوى في الكبرياء داخل القصر وسط حرسه الكثيف.

هذه الحياة كانت تتطلب أموالا طائلة، فمن أين جاءت للملك الوندالي ؟ يمكن القول أنه عقب الاستيلاء قد أوقع حالا في أيدي جيسريك الأرض الشاسعة. فكانت أول الأمر هي أهم أملاكه، ولكن المصادرات بعد ذلك قد جاءت هي أيضا لتزيد من ثروته لاشك. على أن ثروة الملك قد كانت تزيد وتتسع بغنائم الحروب التي كان يخوضها مع جيوشه، والتي كان له فيها نصيب مهم نجهله الآن، ولكن لاشك أنه كحصة الأسد كما يقال. ومن هذه الغنائم الأسرى الذين كانوا يساقون عبيدا. فحظ الملك لاشك أنه كان منهم كثيرا، يستخدمهم في شؤونه الخاصة ويعملون في مزارعه، ولاشك أنه كان يبيع منهم الفاضل عن

حاجته. ويمكن أن نتصور قيمتهم التجارية إذا علمنا أن طفلا عبدا في ذلك العصر عمره ستة أعوام – ولم يكن فاجرا ولا معوقا ولا معيباً – قد كان يساوي فلساً ونصف ذهباً. ويضاف لهذا كله التحف الفنية والروائع الثمينة والحلى من الفضة والذهب التي كانت تغص بها صناديق القصور الملكية.

ولكن كيف كانت تدار هذه الثروات ؟ طبعا إنها لم تترك عبثا لأيدي العمال. هذه الثروات كان، على ما يبدو، أمرها بيد متصرف Maiordo-mus. وهذا المكلف كان يعادل المكلف Procurator بالمنازل الأميرية. ولابد أن مهمته قد كانت شاقة لسعة الأراضي الملكية ولتنوعها. وهؤلاء المكلفون كانوا طبعا يتدخلون بين الملك وبين الفلاحين المكترين Con-ductores الذين كانوا يقيمون بالمزارع، ونجهل عنهم كل شيء. ومع المتصرف Maiordomus والمكلف Procurator، كان لابد من عدة من المساعدين، نجدهم في المجموعتين اللتين أطلق على إحداهما Militiae وعلى الأخرى Ministeria. على أن الجميع كان يخضع حسبما يظن لموظف سامٍ وحيد، وهو المسؤول الملكي Praepositus regni، ومهمته تصعد لعهد جيسريك.

وكانت هناك إدارات لها مكاتب بها من يُدعون باسم عام هو Notarii، اللفظ الذي أطلق على مجرد كتّاب Scribes وهذه الإدارات مجهولة لدينا، كجهلنا بالرجال العاملين بها، ولكننا نفترض أنهم كانوا يقومون بالدور المعتاد للإدارات العليا Chancelleries في المراسلات الدبلوماسية والنصوص القانونية. كما يجوز أن نفترض أن رجال هذه

الإدارات كان يدخل في اختصاصهم قسم من إدارة المالية هو صندوق الواجبات Fiscus.

على أن الملاحظ هو أن أسماء الموظفين وأسماء وظائفهم هي لاتينية أو رومانية لا جِرْمانية وَنْدالية. وهذا يقتضي أن هذه الإدارات كانت متكونة من عناصر رومانية، وأن الملك الجرماني لم يزد على أن رتّب لمصلحته النظام الإداري الذي وجده بالمكان قبله.

هذا، وهناك جديد بالنسبة للونداليين، إذ الحكومة الحقيقية هي ذلك المجلس غير القانوني المتكون من حاشية الملك. من جماعة مجالسيه Courtisans الذين كانت النصوص تسميهم بالأتباع Domiestici أو الأصحاب Comites. ويبدو أن هذه الحاشية لم تكن خاصة بالملك، بل كان لها وجود ذاتي - عضوي - لأن الأتباع هم (الأوفياء fidèles) المرتبطون بالملك باليمين التي يؤدونها. ولمجمع الأتباع Comitatus حق النظر في أعضائه بنوع من القضاء.

بقي أن أذكر أن النساء في هذا النظام لم يكن لهن مجال ولا رأي. بل في بعض الأحيان كن يعاملن بمنتهى القسوة. فجيسريك رمى بزوجة أخيه الأرملة من فوق صخرة سرْتا إلى الهاوية. فهل كان هذا لشأن من شؤون السياسة ؟ لا ندري. لكن يظهر أن زوجة ثيودْريك Theudoric كانت المرأة العنيفة الوحيدة التي احتفظ لنا التاريخ بذكرها. بينما أَمَلَفْريدا Amalafrida قد ألقي عليها القبض وأعدمت بحجة أنها تآمرت ضد الملك هيلدريك. ولا نعلم مبلغ ذلك من الصحة. أما بقية نساء الشعب سواء كنّ وَنْداليات أو رومانيات أو بربريات، فإنما كن ربّات بيوت، همُّهن المنزل والأولاد، ولا شيء سوى ذلك.

وسوى هذا فهناك أمر مهم في الإدارة الوندالية، هو غياب الولايات عن الظهور في التسيير العام للمملكة. إن اللفظ العام وهو Provinciae (ولايات) يوجد في الوثائق، ولكن يغيب في التسيير الإداري. بحيث إننا نعجز عن التعرف على هذه الولايات وتقسيمها وإدارتها. كما اختفى لفظ الوالي Praeses (بْرايْسيسْ) ولم يقع التعويض عنه. ولعل مفهوم ذلك هو أن الدولة هي كل، وعلى رأسه الملك الذي يعلو بسلطته المباشرة على المدن والأرياف.

وبجانب هذا نذكر أن النظام البلدي كان يثير الكثير من التساؤلات، وبغياب الوالي عن الولاية، أي حيث إن المدن لم يعد بها ممثل للسلطة العليا، فإن هذه المدن أخذت تدبر أمورها كما ترى، أي إنها كانت تحتفظ كثيرا أو قليلا بالنظام السابق (الروماني). بحيث إن بعضا من المدن قد تكون حافظت في رأسها على شخصية تشبه كثيرا أو قليلا المكلّف القديم Curator، ويبدو في غيرها أن الأسقف ومعه الأعيان هم الذين كانوا يقيمون بحكومة المدينة.

على أن القضاء هو الذي أبدت فيه حكومة الونداليين جانبا من الاهتمام، مع العلم بأنها لم تحاول أبدا تغيير الجهاز العدلي الموجود، باستثناء أن حكّام الولايات الذين جُرّدوا من اختصاصاتهم الإدارية، قد استمر وجودهم بصفتهم قضاة. وفي مجال العقاب، خصوصا في مادة الذنب في الجانب الديني، فإن الملك قد أحدث نظاما قضائيا خاصا، يعتمد في أغلب الأحيان على أشد الظلم. ولأمر ما نجد الملك هونريك قد قلت ثقته في قضاة الولايات فأسس مجلسا لقضاة علاة. وبجانب القضاة، فالسلط المحلية كانت دائما تستأثر بحق العقاب في دوائرها.

وعن الضرائب فالأمر مشتبك. نَعَم إن الضرائب كان قبضُها وجبايتها أمرين مستمرين. ولكن هناك فارق إذ أن الأملاك العقارية التي للونداليين كانت معفية من الضريبة. بينما الأملاك التي بقيت بأيدي ملاكها القدماء قد كانت تسحقها الضريبة. ولكن على أي أساس كانت توضع هذه الضرائب ؟ لاشك أن الأساس كان جديدا، ولكننا نجهله. وإلا لما كان جيسريك قد أمر في بداية عهده بإحراق جميع الوثائق التي كانت الإدارة الرومانية تعتمد عليها في وضع الضرائب وجبايتها. فهل كان هذا إلا ليضع أساسا جديدا ؟ ولكن ما هو هذا الأساس ؟ ذلك ما نجهله.

هكذا فالونداليون لم يأتوا بجديد إلى إفريقيا. وما كان لهم أن يأتوا بالجديد. إذ أنهم في الأصل لم يكن لهم نظام أصيل خاص بهم. لذلك فهم لم يبتكروا لا في الحكم ولا في الإدارة. إنهم «لم يفعلوا، كما قال كُرْتوا، سوى أن رقّعوا ثياب رومة القديمة لتناسب بدنهم».

معرض الملوك

لقد سبق أن تحدثت عن جيسريك بما أظن أنه كاف. ومع ذلك فأضيف هنا أن الدولة هي هو. وكل ثقل النظام – بسبب انعدام النظام – يقع على شخص من دم ولحم يظهر أن الحظ قد ساعده كثيرا لنبوغه هو، ولحصافته الذهنية التي عرف بها كيف يوائم بين الأحوال والظروف، لأنه كان السياسي الفذ والقائد الكبير الجريئ الذي ليس سهلا لأن يُقاس، لأنه يستكفي بنفسه في ترابط يصل قليلا أو كثيرا بين إدارته ومنجزاته، إلى مدىً فاق فيه دهاؤه آفاق عصره.

وقد خلفه هونريك Huneric أكبر أبنائه الذي لاشك أنه يكون قد بلغ أو تجاوز الخمسين من عمره حين تنصيبه. وقد شبّ في الوسط الإفريقي، وبذلك يمكننا أن نفرض أنه كان «مُتَرَوْمِنا» بعض الشيء، وأنه يكون قد نفض عنه جلبابه البارباري، لأنه كان رهينة في البلاط الإمبراطوري، ولأنه تزوج بنت فلَنْتِنْيان الثالث Valentinien III. ولكن زوجته هذه وهي أودوسْيا Eudocie قد فرت منه إلى القدس Jerusalem حيث ماتت. فهل فرّت بعقيدتها الكاتوليكية من أريانيته هو ؟ أو هل فرت من غلظته وباربار يته ؟ على كل إن سمعته غير حسنة عند المؤرخين، إنه الطاغية الجبار الذي أصابه الرب بالألم القاسي عقابا له على طغيانه. والمؤرخون يذكرون أنه تتبع بنفسه المانَوِيين أتباع ماني Manichéens بالمملكة، وأنه حكم على البعض منهم بالموت حرقا بالنار. ولكن العجب هو أن نجده يلتفت بعنف ضد الأريانيين الأريوسيين، فلماذا ؟ وماذا حدث ؟ لا ندري. وإنما نجده أيضا يتتبع الهوموسيين Hommoousiens، كما كسر بأشد القسوة المعارضة التي كانت تلاقيها سياسته. وعلى كل فإن هونريك قد مات بالطاعون أو بمرض آخر مجهول جعل جثته «المتعفنة تعج بالديدان» من مرض تطوّر إلى بتور خارجية مقرحة أو فيها الجذام Gangréneuse.

وقد خلفه گونْثَموند Gunthamund. ولاشك أن هذا لم يكن شخصية ذات بأس. ولربما أن هذا يكون هو سبب نجاته من التقتيل الذي أمر به عمه هونريك. ومع أنه لم يكن لينا مع المسيحيين فلا أحد من مؤرخيهم باستثناء دڤيتا رأى وجوب التشهير بطغيانه. وليست المدائح التي صاغها فيه دَراكُنْتيوس Dracontius تعطينا فكرة عن خلق

هذا الملك وعن سلوكه بوضوح. فعهده قد مر في التردد، ولم تكن مشكلة ولاية العهد مطروحة عليه، لأنه لم يخلف ولداً، فوريثه في الملك هو أخوه. وهو إن لم يهمل الخطر الذي كان يستفحل يوما عن يوم بسبب القبائل الإفريقية، فإنه لم يرم بنفسه في المغامرة ضدها إذ أن وسائله كانت غير كافية.

ويخلفه على الملك أخوه ثْراسَمونْد Thrasamund من سنة 496-523 الذي، على رأي ابْروكوب، يكون أسمى وأقوى الملوك الونداليين. فقد عقد حلفا مع الأميرة أمَلَفْريدا Amalafrida، كما كان يتمتع بصداقة الإمبراطور أَنَسْتازْ Anastase. ولكنه اندحر أمام الموريين. لقد كان هذا الملك جميلا – على ما قيل – وكان دون شك مثقفا. كان يهوى الفلسفة واللاهوت بالخصوص. فدعا القديس فُلْگانْس St Fulgence أن يأتيه من سرْدانية ليناقشه، ثم إن الأسقف روسْباي Ruspae مدح في ثْراسْمونْد حبّه للمعرفة. على أن تديّنه Pietas جعل منه ملكا أرْيوسياً مقتنعا، فانتعش معه الاضطهاد. ولكن يقال إن تعصبه كان تعصبا معتدلا.

أما عن هيلْدريك Hildric، فإنه كان قد تجاوز الستين حينما دعته لعبة التانسْتري Tanistry إلى الحكم. كان أكثر الملوك شعورا باقترابه من الروم بدمه لأن أمه رومانية، ولأنه أقام مدة طويلة بالقسطنطينية. فكان لذلك يشعر بأنه روماني أكثر مما يشعر بأنه من الباربار، ثم إنه اعتنق الكاتوليكية وتخلى عن الأريوسية، فكان لهذا العمل تأثير كبير على الدولة وعلى الملك وسلوكه. ولكن هيلْدريك كان فاقدا للحزم. لأننا نجده يقسم لسلفه على أن لا يترك للكاتوليكيين حرية للعبادة، ثم يسارع بعد

أن نال الملك إلى إعادة هذه الحرية لهم، مظهرا بهذا أنه يفقد الجرأة فيما يعتقده، وإلى أن يعتقد هو نفسه الكاتوليكية. ولهذا تسارع الكتّاب الكاتوليكيون إلى مدح صفاته، فتحدثوا عنه بعطف، وابْروكوب تحدث عن لطفه، وكتاب حياة القديس فُلْگانْس St Fulgence قد ذكر طيبته. ولكنهم لم يستطيعوا إنكار أنه كان شخصا تافها. وابْروكوب نفسه يعترف بأن هيلْدريك كان فاقدا لكل مزية عسكرية، بل إن الملك كان يكره الحديث بحضوره عن هذا النوع من المواضيع.

ثم يأتي عهد جيلِمير Gelimer الطاغية كما تسميه النصوص. لقد ولد في تاريخ مجهول، وكان في عهد سابقه هيلْدريك أكبر أمراء البيت المالك سنّاً. وإليه كان مآل الحكم، وكان في العهد المتزعزع لسابقه يقوم بدور الوصي حقيقة، لاشك بصفته وارثا للعرش، وكذلك بسبب مزاياه العسكرية.

ومن جرأته البالغة أنه يوم 15 جوان 530 أرسل بهيلْدريك ورجال حزبه إلى السجن، واستولى على العرش الذي كان هو وريثه. فلماذا أسرع جيلْمير بالقيام بهذه المؤامرة ؟ هل يكون الخبر الذي رواه ابْروكوب صحيحا ؟ وهو أنه كان يوجد تواطؤ بين هيلدريك والإمبراطور جستان الأول، بمقتضاه يمكّن الملك الوندالي الإمبراطورية الوندالية للإمبراطور الرومي ؟ إذا صح هذا، فيكون جيلمير قد قام بعملية إنقاذ للدولة. وكانت الطريقة التي استعملها تبرهن على الأقل على الدهاء والحزم. ولقد كان جيلْمير يتمتع بعزة وعلوّ الهمة، على الأقل في أول أمره. والرسالة التي بعث بها جوابا على الملاحظات الإمبراطورية تشهد

بأن الملك لم يكن قليل الهمة، ولم يكن الرجل الذي يسمح بالتنقيص من الكرامة الملكية. لكن جيلْمير كان مع ذلك متقلبا. ولسبب لا ندريه نجد الرجل الذي حبك مناورة آد ديكموم Ad Decimum، يرخي ليلا العنان للفرار من غير أن يترك أي أمر. وفي وطيس المعركة بآد ديكموم عثر في الميدان على جثة أخيه أماطا Ammata، فلم يعد يفكر إلا في نكبته. وعندما ظهر بعد ذلك بقليل أمام بيلزير اهتز بنوبة من الضحك الجنوني الذي شكك في سلامة عقله. إن جيلْمير لم يدّثر أبدا بلباس القائد الحصيف. وهو منذ اندحاراته الأولى لم يشك أن الغضب الرباني هو الذي قضى بالقضاء عليه.

حاولت، بعرض هذه الصور للملوك الونداليين، أن أصور المناحي النفسانية والعملية لهم ولدولتهم. لدولتهم التي كانت هشة. لأنها إن قامت على أسس جغرافية ثابتة، فإن الباربار لم يكن لهم العدد الكافي لمعادلة أعداد سكان إفريقيا آنذاك. كما أن حضارتهم في مظاهرها الأساسية لم تكن من الحضارات التي يمكن أن تفرض نفسها. وفي هذه الأحوال كان واضحا أن الملكية لا قيمة لها إلا بالملك. إنهم ستة ملوك أولهم جيسريك ذو الشخصية الساحقة، وثانيهم هونريك الذي أراد أن يظهر الدولة بمظهر التحضر المستقر. ولكن الملوك الأربعة الأخرين قد طبعهم التناقض بطابعه الواضح. ولذلك لا أحد منهم كان قادرا على أن يقوم بالدور الذي أراده جيسريك لدولته التي أنشأها. حتى إذا حدث الهجوم البيزنطي على إفريقيا – على دولة الوندال – فإنها عجزت عن أن تعطي الدليل على وجودها، فانكشف في نفس الحين ضعف المملكة وضعف الملك، واتضح أن قيام دولة الونداليين الجرمان في غير محيطهم الأوربي الأصيل إنما كان لعبة انتهت بفشل ذريع.

وأين إفريقية الأصيلة ؟

طيلة نحو قرن من الزمان، أي من الهجوم الوندالي الجرماني إلى قدوم بيلزير، يمكن أن نعتبر أن أهم ما جرى من وجهة نظر التاريخ المغاربي هو انتباه العالم الإفريقي المحض بعودة الحياة إلى المجتمعات البربرية كنتيجة حتمية لما جرى.

إن البارابار الونداليين قد اقتطعوا ما صنعوا به دولتهم المصطنعة، ولم يحذروا أو لم يتنبهوا إلى انعزال الموريطانيتين ونوميديا الغربية. وكان عدم تنبههم هذا عملية لا شعورية من جانبهم، أفضت إلى أنهم قربوا بين مناطق مجاورة لدولتهم تشعر بالعداء لهم، أو على الأقل تنحاز بعيدا عنهم. وفي ذلك خطر كانت رومة نفسها تحس به، فأوقعته أحيانا ونحته أخرى قبل ذلك.

هذه المواطن كانت آهلة بمن تطلق النصوص عليهم لفظا عاما هو الموري Mauri. وهم الأهالي غير المترَوْمِنين بكامل الشمال الإفريقي، سواء سكنوا أو لم يسكنوا بالمنطقة الخاضعة للإمبراطورية. وكان هؤلاء الموري يقابلون من سيُسَمّون من بعد باسم الروماني Romani. وهم الذين طبعتهم الحياة الرومانية بطابعها، هم المتَرَوْمِنون Romanisés.

يضاف لهذا أنه كان هناك موريون – أهالي – مسيحيون. واعتناق المسيحية لا يفهم منه الانسلاخ الكلي عن طبيعة الحياة الأهلية. فالكثير ممن اعتنقوا المسيحية قد مكثوا برغم ذلك أشد قربا إلى البربري الأصيل من الروماني المصطنع. وعلى هذا فالروماني هو قبل كل شيء من بقي وفيا للحياة الحضرية، ووفيا في نفس الحين للمناهج الاجتماعية

التي كانت رومة هي من يلقنها، أي اللاتينية والمسيحية. أما الموري فهو، على النقيض، من يبقى في نطاق التقاليد القبلية. فهو الذي لا يستطيع الازدواج اللغوي ولا التنصّرُ أن يغيّراه بما يكفي ليكوّنا منه رومانيا يشبه الحقيقة.

ومن جهة أخرى يبدو فعليا منذ سنة 455 أن السلطة الرومانية قد غابت تماما عن كل من القيصرية وعن السّطيفية وعن نوميديا. وأنها سبق لها أن غابت عن التنْجيتان القارّية كلية منذ 285 أو287م. فنحن أمام عالم متفكك، ليس له من وحدة إلا في ظل الذكريات. وعمليا فإن ما يميز هذه الأرض الإفريقية المتخلى عنها، هو أنها بعد سنة 455 لم تظهر بها أي قوة جامعة تتغلب على الحياة المشتتة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يظهر أن البربر قد عرفوا الملَكِية من قديم. فلَقبُ ريكْس Rex كان معمولا به، وكان لاشك يطلق على رؤساء الاتحادات. وفي أواخر القرن الثالث (285 أو 287) كان إخلاء وَليلي بأمر ديكْليتْيان وكأنه يدشن عودة للماضي. لأن ذهاب الحاكم الروماني ترك بالفعل السلطة للريكْس Rex أي للملك البكواتي.

وفي العهد الوندالي ظهرت بوضوح تجمّعات كوّنت ممالك باتحادات قوية ومستقرة. وكانت منطقتهم هي القوس الكبير الذاهب من ملْوِية إلى الأوْراس.

والمملكة الأولى التي نلقاها في هذا المجال انطلاقا من الغرب، هي مملكة مقاطعة وهْران Royaume d’Oranie.

ونحن نعرف أنها كانت تحت حكم الملك ماسونا Masuna الذي كان يدعو نفسه بلقب Rex gentium Maurorum et Romanorum أي ملك قبائل الموريين والرومانيين. فهل كان يخضع له رومانيون حقيقة أو البربر المتَرومنون (الروماني Romani) ؟ على كل فإن سلطته نالت كلا من ألطافا Altava وصفار Safar وكَسْترا سُويرْيانا Castra seueriana. والمعتقد هو عدم تمديد هذه المملكة إلى الغرب حتى وَليلي، ولا تمديدها نحو الشرق حتى الأوراس.

على أن شخصا يدعى مصوناس .... ابن ميفانْياس Mephanias، كان حليفا لأورْطاياس (وحليفاً للبيزنطيين) ضد يوضاس Iaudas مَلِكَ الأوراس. الأمر الذي يبين لنا أن الأوراس كان لها ملكها الذي هو يوضاس. ويجعلنا نشكّ هل ماسونا هو مَصوناس. ولكن التقريب في صيغة الاسم ليس له بالضبط القيمة الحتمية التي يعطيها له البعض من الباحثين.

وتبقى في هذا الموضوع الجدارات Djedars المقامة على نحو 200 كيلومتر شرقي ألْطافا. فهل هي أضرحة لعائلة مالكة تكون هي التي حكمت هناك ؟ إن الجدارات أضرحة كبيرة مربعة أو تقريبا، وتعلوها أهرامات مدرجة. وهي بنايات عددها ثلاثة عشر، مقسمة إلى مجموعتين بينهما ستة كيلومترات. إحدى المجموعتين مكوّنة من ثلاثة في الجبل الأخضر، والمجموعة الأخرى من عشر جدارات في ترْناتِن Ternaten. والمجموعتان معا تقعان على نحو 35 كيلومتر إلى الجنوب الغربي من تْيارْت Tiaret. وقد وقع التنقيب في ثلاثة منها. اثنان من المجموعة الأولى هما جدار A وB، وواحد من المجموعة الثانية هو جدار C. وتبدو

عليها لحمة القربى الواضحة مع ضريح النصرانية أو المدغَاسِن Medracen. وطابعها البربري لاشك فيه. وهي أيضا مقابر مسيحية، يشهد بذلك وجود طغراء المسيح Chrisme، ورموز مسيحية أخرى هي : الحمامة والقنديل والسمكة، وأخيرا شهادة التعبير (Spes) In Deo على حجرة لواحد منها.

هذه الجدارات يقول عنها المؤرخ العربي ابن الرقيق: إنها تذكارية أقيمت تمجيدا لسليمان السردغوسي، أي (سليمان الستراتيگوس ؟) بعد انتصاره على السكان الثائرين. ولكن الحق هو أننا لا ندري من أقامها. والذي نعلمه هو أن الجدار A متأخر عن سنة 466، وأن الجدار C متأخر عن سنة 480، لأن بهما أحجارا تحمل هذين التاريخين.

فلمن هي، ومن هم بُناتها ؟ إننا لا ندري، ولكن ابْروكوب يذكر شخصا اسمه مِسْتيگاس Mastigas، كان حول سنة 535 يحكم موريطانيا القيصرية كلها باستثناء مدينة قيصرية شَرْشال. كما يذكر في فقرة أخرى شخصا يدعى مَسْتيناس Mastinas ويصفه بأنه رئيس باربار موريطانيا. والغالب على الظن أن مستيگاس هو مَسْتيناس لتشابه الحرفين g و n في نظر الكاتب الذي أخطأ.

وقد قام اتحاد بين مستيناس وبين ملك الأوراس يوضاس Iaudas لهدف هو السيطرة على المناطق التي كانت خاضعة للملك أورْطاياس Ortaias. وهذا الملك نجده في سنة 537 إلى جانب عدوّه القديم يوضاس، وكان في سنة 535 في حلف البيزنطيين.

ومَسْتيس Masties الذي كان سنة 455 يلقِّب نفسه بلقب دوكْس Dux، لم تحل سنة 476 حتى غيّر نظره في نفسه وتلقب بلقب إمبراطور.

ولا يمكن أن نفهم هذا إلا في ضوء غياب كلي لأي سلطة على منطقته التي كانت هي مملكة الحضنة.

ولكن هل كان هناك سوى هؤلاء الملوك ؟ هل كانت هناك دول أخرى تحتل حيّزاً ضيقاً أو متسعا من الأرض ؟ الحق أننا لا ندري، وإن كان الأمر ممكنا، لأننا سندخل باكرين فيما يصحّ أن نسمّيه باسم استعمله العرب بعد ذلك بقرون في الأندلس الإسلامية. أي في عهد ملوك الطوائف. ولِمَ لا أسمّيه بهذا الاسم والبلاد مقسمة إلى متملكين على رأس دويلات في القرنين الخامس والسادس. ولكن يكفي الآن أن نلاحظ وجود ثلاث ممالك في مقاطعة وهْران والونْشَريس والحَضنة، بجانب مملكة وَليلي التي سيسكت عنها التاريخ، ولا نعلم بعد عنها شيئا بالتقريب حتى مجيء العرب. وأهم ما يقال هو أن دنيا الأمازغة قد أخذت تتحرك نحو الالتئام، الذي سيقع طبعا مع العنف الذي كان يفرضه كل تحرك تاريخي. ولكن هذا هو ما سنراه بعد في هجوم الاسترجا ع الذي سيخوضه البيزنطيون طوال قرن من الزمان وينتهي بالتخلي للعرب.

الكتاب الخامس

البيزنطيون في إفريقيا(*)

1

الهجوم على الونداليين

لم يتخلّ الأباطرة عن حلمهم باسترجاع إفريقيا الضائعة. فلقد سبق لرومة وللقسطنطينية أن هيأت عدة حملات ضد الونداليين، وضد أساطيلهم التي كانت تقوم بأعمال التخريب على طول السواحل بالبحر الأبيض المتوسط. فماجورْيان Majorien، وبعده بسنين قليلة، قام الإمبراطور الشرقي ليون الأول Leon I وعمِلاَ على قلب الأحوال في إفريقيا والإطاحة بجيسريك. وإذا كان النجاح لم يحالفهما. فإن الإمبراطور زينون Zénon الذي تولى عرش القسطنطينية اضطر لعقد معاهدة سلام دائم مع جيسريك. ولكن رغم المعاهدة فإن الإمبراطورية لم تتخل عن أحلامها بعودة السيطرة على إفريقيا حين تتاح الفرصة. وتصادف أن تولى الملك في قرطاجة الملك المسالم هيلْدريك الذي كان

(*) بتلخيص عن : إفريقيا البيزنطية، بقلم شارل ديهل بترجمتنا العربية.

منبهرا بحضارة القسطنطينية، وكان يفتخر بأنه الصديق المخلص للإمبراطور يوستنيانوس، وكان يسره أن يتبادل معه الهدايا والسفراء، إلى حد أنه أمر بأن يقع التعويض عن صورته هو على نقوده بصورة صديقه البازيليوس البيزنطي.

فكانت هذه تبعية مغلّفة. ولكنها مع ذلك لم تكن كافية ليوسْتِنْيانوس الذي كان يرى أنه الوارث الحقيقي والشرعي للإمبراطورية الرومانية، وأنه يطمح إلى إحيائها لنفسه، لأنه كأمير كاتوليكي قد كان غير مسرور برؤية الأُرثودُكْس خاضعين للهراطِقة من الأرْيوسيّين الذين «يعذبون الأبدان والأرواح». ولكي يستولي على إفريقيا لم يكن ينتظر سوى أن تسنح له الفرصة ليدخل الحرب ضد المتنطعين الونداليين وضد الهراطقة الأريوسيين.

وبالفعل أتيحت له الفرصة بأخطاء جيلمير Gelimer الذي نحى هيلدريك عن الملك بعد ثورة الأهالي التي جرت سنة 513 في بيزْسينا واندحرت فيها جيوشه. فوجدت بيزنطة الفرصة السانحة التي كانت تنتظرها فتدخلت سياسيا أول الأمر، وطالبت بإعادة تنصيب الملك المخلوع، ثم طالبت على الأقل بتحريره، وتسليمه مع خلصائه.

وبالفعل كانت الأنظار في إفريقيا تتطلع للتدخل البيزنطي. فكان أنصار الملك بالقسطنطينية يتآمرون ويرجون من يوسْتِنْيانوس أن يأخذ الأمر ليديه، كما أن جالية التجار المشرقيين – الذين يبدو أن عددهم كان كثيرا بقرطاجة – كانوا هم أيضا يرجون من يوستنْيانوس

يتدخل تدخلا حاسما، وكذلك الأمر بالنسبة للأرسْتُقراطية الكاتوليكية في إفريقيا - والرومانيون معها - قد كانت تتمنى بحرارة نجدة بيزنطة وتدخل يوستنيانوس.

وفي هذه الأحوال أبدى جيلمير شدة في موقفه، لأنه فهم أن أي تنازل سيكون معناه فحسب تأخير القتال الذي أصبح مفروضا، لذلك عجّل بالمصادرات وبأحكام الإعدام. فضاعف من قسوته أمام خصومه المغلوبين، وبذلك انفتح باب الحرب وقرر يوستِنْيانوس مهاجمة الأراضي الإفريقية. ولاشك أن الهلع أصاب كثيرا من الدوائر البيزنطية الرسمية من خبر قرار الحرب. إلى حد أن جانْ دُكَبَدوس Jean de Cappadoce، رئيس هيأة القيادة للجيوش البيزنطية قد أبدى المخاوف واستعظم أمر هذه الحملة على الشواطئ الإفريقية البعيدة والمجهولة، وضد الونداليين ذوي الأسطول العتيد، الذين لم يقهروا في حرب أبدا منذ عهد جيسريك. ولكن يوستنيانوس بأمنيته الملتهبة في التدخل، قد أمر، وأمرُه لا يُرد. فكانت الحرب.

وعلى العكس مما ظنه خصوم الحرب فإن الظروف كانت مواتية، لأن مملكة الونداليين كانت تمر بحقبة انهيار. فقد كانت تواجه ثورتين في سردانية وفي الولاية الطرابلسية. ولم يكن الجيش يتعدى 30.000 أو 40.000 رجل على أكثر تقدير. وهذا عدد كبير لو أن الونداليين قد حافظوا على صفاتهم الذاتية التي كانت تميزهم من قبل. ولكن هؤلاء البarbar قد تخلوا وأصابهم التفكك المدني والارتخاء الحضاري. يقول بروكوب : «من بين جميع الأمم التي عرفتُها، فأمة الونداليين أكثرها

تأنثا. فمن اليوم الذي استولوا فيه على إفريقيا اتخذوا عادة الاستحمام اليومي، وزودوا موائدهم بكل ما هو بديع مما تهبه الأرض والبحر. وقد دثروا بالحلى الذهبية وبملابس الحرير، وأقبلوا على متع المسرح وميدان سباق الخيل، وغير ذلك من الملذات المماثلة، وخصوصا منها الصيد، ومالوا إلى الراقصين وأهل الإيماء، وللموسيقى والفرجات، ولكل ما يسر الأعين والآذان. وقد سكن أكثرهم دارات Villas بديعة، جميعها محاطة بالأشجار وبالمياه الجارية، وكانوا يقضون أوقاتهم في مأدبات كبيرة، وتشغفهم ملذات الحب». على كل فَبْروكوب صوّر لنا بهذا الكلام أن الباربار قد تحضّروا ولم يعودوا باربارا.

ومن العناصر التي كانت تسبب القلق والإزعاج القبائلُ البربرية، التي تحررت بعد جيسريك، الرجل القوي الذي أوقفها عند حدها. فمن عهد هونريك أعلن الجَبليون بالأوراس استقلالهم، ثم أهل الحضنة، ولم تلبث قبائل الموريين أن نزلوا للسهل وعبروا خط الحصون الرومانية، فعاثوا في البسائط العليا لنوميديا. وفي عهد تراسَموند Trasamond (496-522) ثارت قبائل الولاية الطرابلسة. وفي عهد هيلْدريك ثارت بيزْسينا.

في هذا الوضع كان جيلمير كالحائر لا يدري ما يفعله. لأن جيشه لم يكن قادرا على القيام بالعمل الحاسم الذي يفرضه الوضع. ولعل سبب ذلك هو أن الجيش الأرضي كان متكونا من الخيالة فحسب، وكانت هذه الخيالة ضعيفة. ثم إن قلة عتاده الحربي كانت تزيد من

ضعف جيشه. فالونداليون لم يكونوا يحاربون بالقوس والسهم ولا بالرمح. فكانوا لا يستطيعون إنهاك العدوّ عن بعد، إذ كانوا متعودين فحسب على القتال بالحربة والسيف، ولا يستعملون السهم والرمح إلا قليلا وبصفة سيئة، ويحسنون الصراع البدني إلى حد كبير.

بينما كانت تواجههم الجيوش البيزنطية بخيالة ثقيلة السلاح، تغطيها الدروع والتروس الفولاذية في هجمات عظيمة للخيالة البيزنطية الدارعة Cataphractaire.

ويضاف لهذا انعدام عنصري الطاعة والنظام في الجيش الوندالي. ولا أدلَّ على ذلك مما جرى في المعركتين العظيمتين اللتين خاضهما هذا الجيش ضد البيزنطيين. ففي معركة ديكموم Decimum فضل القائد الارتماء في المعركة بقلة من الجنود، ولم ينضبط بنظام. وكذلك الأمر في معركة تْريكَماروم Tricamarum حيث كانت النتيجة التي نعرفها باندحار الونداليين.

أما البحرية الوندالية التي كانت لها صولة مرعبة، فيظهر أنها لم تلعب في الصراع أي دور. فهي لم تظهر لا لصيانة السواحل الإفريقية، ولا لمنع النزول بها ولا لحماية أحواز قرطاجة. والحقيقة أن الأحداث تكاثرت على جيلمير فلم يدرِ أين يوجه أنظاره ألى قواته، ولا أن يتخذ أي تدبير. وكل ما فعله هو أنه بعث بجيش قوامه 5000 من أحسن جنوده لقمع الثورة في سردانية، وبعث معهم أسطولا من مائة وعشرين سفينة حربية.

2

إبحار الأسطول نحو إفريقيا

كان يوم 22 جوان سنة 533 يوما عظيما في القسطنطينية عندما نشرت السفن قلوعها متجهة إلى الحرب بإفريقيا. فكان الإمبراطور يوسْتِنْيانوس من نوافذ قصره يبارك بيلْزير وجيوشه، وكان بِطريقُ بيزَنْطة وحوله كهنته ورهبانه بالميناء يدعون ويباركون الجيش الذاهب. وكان هذا الجيش قويا في الحقيقة. قوامه 10.000 من المشاة و5000 أو ستة ألاف فارس، وهذه الخيالة التي ستلعب دورا هاما كان بها400 جندي هيرولي. ونحن نعلم أن الهيروليين Herules عشائر جرمانية ظهرت في القرن الثالث للميلاد مع القوطيين على سواحل البحر الأسود، وبعد موت أتيلا Attila كوّنوا في الشمال الشرقي لهُنْغارية دولة على نهر الدانوب، انطلقت منها إلى سويسرا وإلى إيطاليا عدة حملات. وكانت إحداها بقيادة أودُواكر Odoacre. وبها انتهت الإمبراطورية الرومانية سنة 476، كما أن دولتهم قضى عليها ثيودوريك Théodoric سنة 493م. وهؤلاء الهيروليون كانت شجاعتهم في الحروب تساوي إخلاصهم ليوسْتِنْيانوس. وكان بالجيش 600 من الخيالة رماة السهام من الهونيّين Huns، وختاما كان به نحو 2000 من الفرسان الدارعين حرس بيلزير الذي كان يقود الحملة بصفته قائدا لجيوش المشرق Magister Militum per Orientem، ومساعده أو رئيس قيادته الخديم سولُمون Solomon الذي سنلاقي اسمه كثيرا في تاريخ إفريقيا البيزنطية. ومعه 500 سفينة للنقل يسيّرها 20.000 من الجدافين.

كان الإبحار شاقاً وعسيراً، ولكن الوصول إلى صقلية أعطى لبيلزير الوقت لينظر في شؤونه ويعيد تنظيم جيشه، وينتظر وصول الأخبار عن جيلمير وعن أسطوله الذي كان بيلزير يخشاه. ولكن هذه الأخبار لم تلبث أن وصلت منبئة بخلوّ البحر من أي سفينة وندالية. فأسرع بيلزير وأمر بالزحف على الساحل الإفريقي. وهكذا ألقى مراسيه بالساحل الإفريقي في مواجهة المرتفع القاحل واسمه كابوتْ وادا Caput Vada في موسطة شهر سبتمبر سنة 533م.

كان النزول نجاحا باهرا، كان من دون حرب، وكانت المسافة تبعد عن قرطاجة التي هي الهدف المقصود بنحو 200 كيلومتر عن كابوت وادا، الموقع المنعزل القاحل الذي كان الجنرالات به يخشون ظهور جيلمير وأسطوله بغتة. ولكن بيلزير أصرّ على البقاء في الموقع والانطلاق منه للداخل ولقرطاجة على الخصوص.

وفي تصريح لبيلزير، فإنه أعلن أنه إنما جاء محررا، وأن الإمبراطور لم يحمل السلاح إلا لينقذ البلاد وأهلها من الونداليين الطغاة. ثم أصدر أمره للجنود بمنع النهب والسلب، وأوجب أداء ثمن كل ما يريدونه. فأعجب السكان بهذا النظام، وكانوا لا يختفون من الجنود بل يحيّونهم. والطبقات العليا من المجتمع، وعلى الخصوص رجال الكنيسة قد سارعوا فوالوا الفاتحين.

وبهذا فإن الزحف من كابوت وادا إلى قرطاجة كان كأنه سياحة عسكرية. وفي ذلك يقول بروكوب : «كان بيلزير قد جدّ في استرضاء الأفارقة بليونته واستقامته، حتى لكأنه طوال الطريق كان يسير في

أرض الأصـدقـاء. فلم يكن السكان يفـرون عند اقـتـراب الجـيـوش، ولم يكونوا يخفون ما يملكونه، بل على العكس كانوا يقدمون الطعام ويزودون عن دراية الجنود بكل ما يودّونه». وعند اقتراب الجيش البيزنطي... فإن الجماهير عندما رأت الأسطول الإمبراطوري فإنها قد كسرت السلاسل الحـديدية التي كـانت تسـد المـيناء، وذلك برغم أن المـدينة كـان بهـا الونداليون بكثرة.

وعلـى نـحـو ثلاثة أشـهـر مـن ديـكْـمـوم جـرت مـعـركـة تـريـكْـمـاروم Tricamarum التي استولى فيها القائد البيزنطي تقريبا على معسكر الملك الوندالي، وقد فر من غير أن يترك أمرا ومن دون أن يهتم بمصير شعبه عند الموريين أهل جبل بابْوا Pappua الذي هو جبل إيدوغ على ما يحتمل. ولقد حاصرته القوات البيزنطية، وبعد أن قضى ثلاثة أشـهر محاصَراً يعاني البرد والجوع والفقر، فإنه في نهاية الشتاء رضخ لقدره وسلّم نفسه في مارس 534 لأيدي بيلزير، مقابل الوعد بسلامة حياته ومعاملة كريمة. وبهذا كان القبض عليه هو النهاية الفعلية للونداليين ودولتهم بإفريقيا، كما كان مبدأ للسيطرة البيزنطية الفعلية التي ستجري هي أيضا لمقاديرها إلى أن يتسلمها العرب المسلمون.

إفريقيا عند الفتح البيزنطي

أعلن يوسْـتِـنْيانوس بفرح غامر على الشعب «أن جميع ليبيا أي إفريقيا الشمالية قد انضمت إلى الإمبراطورية» وأن «الرب في رأفته قد

أعاد ليديه إفريقيا وجميع ولاياتها». وشكر القدر على اختياره هو «الأشد تواضعا من بين عباده»، ليكون المنتقم للكنيسة والمحرر للشعوب. وكان متيقنا أن أسابيع قليلة ستكون كافية ليخيم السلام والأمن على البلاد تحت حكمه الأكثر مجدا. وأخذ يقوم بالتدابير الضرورية للتنظيم الكامل الإداري والمالي والعسكري.

ولكن قبل كل شيء، فليس صحيحا أن البلاد كلها قد تم الاستيلاء عليها. فلم تخضع سوى البروقنصولية وقسم كبير من بيزسينا. أما الموريطانيات الثلاث السطيفية والقيصرية والطنْجية فكانت بالتأكيد لا توجد إلا على الورق تنتظر عمليات إخضاعها ـ التي لن تقع أبدا.

على أن أوضاع الونداليين كان لابد أن ينظر فيها لتسلم عملية الاستيلاء. فعموم الشعب الوندالي كان بيلزير قد عاملهم بتلطف أثناء الحرب. واليومَ والحربُ قد انتهت فإنه عاد فجمع بعضهم في الجيوش الإمبراطورية، أما الآخرون وهم الأكثرية فتكونت منهم خمس فِرق دُعيت باسم الونداليين اليوسْتِنْيانوسِيّين Vandali Justiniani. وقد جُعلت إقامتهم على حدود فارس. أما أكثرية الشعب الوندالي الذي مكث بإفريقيا فقد صاروا عبيدا لسادتهم الجدد، فأعطيت النساء والبنات للغالب. وأعيد للملاّك القدماء ما كان قد ضاع منهم بالاستيلاء الوندالي. وأعيد للكنيسة الإفريقية الكاتوليكية جميع ما سبق أن ضاع منها. فأعيدت لها أبنية العبادة، والأوعية والحليات المقدسة التي سبق أن جردت منها.

بحيث كان الإمبراطور الورع التقي يجتهد في إرضاء الضغائن القديمة والأحقاد التي كان رجال الكنيسة يحملونها. وهكذا عومل بأشد القسوة جميع المنشقّين القدامى، ومعهم الأريوسيون واليهود والدوناتيون والوثنيون. وأغلقت في وجوههم أبواب الإدارة العامة، حتى ولو تنصّروا.

ولقد آن الأوان لوضع السؤال المهم، وهو كيف كان سلوك القبائل الإفريقية في هذه المعمعة ؟ لاشك أن أكثرية هذه القبائل قد أعطت طاعة ظاهرية. ولكن برغم هذه الطاعة كان التململ باديا على سلوكهم. لقد كانوا يكونون أربع مجموعات مهمة، هي أولاً القبائل الطرابلسية التي كان أهمها وأشدها قبائل اللوفاث Levathes أو لَواتة. وهناك تجمّع كبير لقبائل الفريكْسِس Frexes الذين يعترفون بالسلطة العليا لأنْطَلاس Antalas ابنِ كَنْفان Guenfan. وهناك تجمّع قبلي آخر يخضع لإيسْدِلاسا Esdilasa ومدسنيسا Medisinissa، ومجمّع قبلي آخر خاضع لأشدهم جميعا وهو كُتْسينا Coutsina الذي سيذكر اسمه كثيرا في مجال هذا التاريخ. ثم من بين الرؤساء الأهالي، كان أشدهم سطوة على ما يبدو هو إيابْداس Iabdas الذي قال عنه ابْروكوبْ إنه كان يستطيع أن يجند 30.000 فارس. وبجانبه كان أورثاياسOrthaias الذي ربما كان هو أمير جميع الحضنة. وأخيرا فإن موريطانيا من قابس إلى ما وراء قيصرية كانت لبعض الأمراء الأهالي الكبار، وكان بها أكبر أمرائها مَسْتيگاس Mastigas. كما كان هناك ماسونا الذي سبق لنا الحديث عنه. إن هؤلاء جميعا كانوا قادرين على أن يواجهوا البيزنطيين في حروب مرعبة لو أنهم اتفقوا فيما بينهم وأسكتوا

شَحْناءهم وانطلقوا كقوة وطنية فعالة، ولكن هذا ما لم يحدث إلا في القليل النادر ولهجمات عابرة.

من ذلك مثلا ثورة سنة 534 التي حدثت كالمعتاد بغارات جريئة، استولت على بعض مراكز الحدود، أُسِر فيها سكان البوادي واتخذوا عبيدا. وسرعان ما تطورت الأحداث بهجوم بربري شديد قوامه 50.000 محارب بقيادة أربعة قادة أو ملوك، هم كوتْسينا Coutsina وإسْديلاسا Esdillasa، ويوفْروت Ioufrout وميدْسِيليسا Midsilissa. وكان لهذه الثورة صدى شديد في الأوساط البيزنطية، خصوصا وأن هذه الأخبار قد تعززت بأن نوميديا قد وقع الهجوم عليها، وأن 30.000 رجل محارب هاجموها بقيادة إيابْداس ملك الأوراس.

وكان القائد البيزنطي هو سولُمون Solomon، ومعه جيش لابأس به، وكان ينتظر وصول قوات بيزنطية جديدة بعثها الإمبراطور يوستِنْيانوس لتقوية جيش إفريقيا التي كان بيلزير قد غادرها إلى القسطنطينية ومعه قسم كبير من جيش الاستيلاء. فكان على سولُمون أن يحمي قرطاجة، وأن يتخلى عن بعض جيشه ليترك منه حاميات للمدن المهددة. فكان موقفه صعبا. ولكنه قرر مواجهة البربر، فأخذ القرار وسار للمواجهة في حرب غير متعادلة في القوات. وجرت معركة سَهْل ماما Mamma التي انتصر فيها سولمون. وعقبتها معركة أحواز جبل بورگاوون Bourgaon، وفيها اندحر الثائرون اندحارا كبيرا وقع فيه أسر القائد أو الملك إيسْديلاسا Esdillasa الذي أعطى خضوعه وسجن في قرطاجة.

ورأى سولُمون أن الوقت قد حان ليبدأ العمل في نوميديا. وكانت الظروف مناسبة للقيام بالعمل فيها، لأن عدة من رؤساء الأهالي الكبار مثل أورْطاياس الذي كان مسيطرا على الحضنة، ومَصوناس Massonas الذي كان مسيطرا على قسم من موريطانيا قد استنجدوا بسولُمون ضد جارهم يبداس صاحب الأوراس. وأعطوا الوعد بضم جيوشهم إلى سولمون.

ويطول الحديث إذا أردنا استعراض جميع الأحوال والمعارك، ولكن يكفي أن نذكر أن سولمون بعد انتصاره قد رقي إلى رتبة بطريق Patrice، وأنه في نشوة انتصاره صرح فوق أسوار ثوڤيست Theveste باعتزاز قائلا : «إن الأمة المورية جميعها قد حطمت بساعد سولمون». وفي أبريل سنة 536 كان الإمبراطور يشكر السماء التي مكّنت من «إخضاع الونداليين والآلانيين Alains والموريين، وأن يسترجع إفريقيا جميعها». وكان يضيف قائلا : «أملنا جميل في أن الربّ سيجعلنا كذلك نفتح الأراضي الأخرى التي كان يملكها الرومانيون القدماء حتى حدود البحرين المحيطين، والتي تركوها تضيع من بعد. وبعون السماء سنجتهد في تحسين أحوالها».

وكان سولمون برغم مزاياه الحميدة غير محبوب في صفوف جيشه على العموم، لأنه كان بالغ الاستقامة، كثير الإخلاص للدولة ولسيّدها الإمبراطور يوسْتنْيانُوس. وكان يكلف الجيش بأعاظم الأعمال، ويفرض عليه الطاعة بدون هوادة. لذلك شاع روح التمرد والتشكي في صفوف الجنود. وحتى بعض كبار القادة – على ما يقال – كانوا يتشكّون من

شدة سولُمون ومن كبريائه. فتولدت فكرة مؤامرة ضخمة ضد سولمون، وحُدِّد لها أعياد الفصح لاغتيال الجنرال في إحدى كنائس قرطاجة. ولكن المتآمرين تراجعوا عن مقرراتهم. ثم إنهم تركوا المدينة وخرجوا للأرياف يعيثون ويفسدون. أما بقية الجنود في المدينة فقد اهتاجوا وأعلنوا العصيان وهاجموا القصر، فعمّت الفوضى والتقتيل. وكل من يلقونه، بيزنطياً كان أو إفريقياً، إذا عُلم أنه كان صديقا للبطريق أو أنه غني، فإنه يسقط بضربات الجنود. ولم يفلت سولمون إلا بمعجزة، إذ اختفى في كنيسة القصر، ومنها خرج ليلاً، فركب البحر على عجل وقصد مدينة ميسْوا Missua. ولا داعي لمتابعة الأحداث التي انتهت لصالح البيزنطيين في الأخير.

تنظيم إفريقيا البيزنطية

– الإدارة المدنية

يتلخص التنظيم الذي سارع يوسْتنْيانوس فزود به إفريقيا في تعيين والٍ قانوني لها Préfet du Prétoire، الذي كان، نظرا لمنصبه شخصاً عظيماً تنتهي إليه جميع القضايا الكبرى (كالأنهر التي تصب في المحيط). وكان يلقب بصاحب السيادة Excellence، وصاحب العظمة Magnificence، وصاحب الرفعة Sublimité. وكانت جرايته تدل على قيمة مسؤوليته. فكان يتقاضى مائة لبرة ذهبية. أما اختصاصاته فكانت تمتد على جميع الإدارة المدنية. وكانت حسب العادة تشمل أربعة أقسام هي : التشريع، والإدارة، والعدلية، والمالية.

وكان للوالي عدة مستشارين Consiliarii، يعينونه في تسيير العدلية، ويجلسون معه في محكمته. كما كان يساعده أعوان قضائيون Cancellarii في تسيير العدالة أيضا. ثم يأتي الأوفيكْيوم Officium أي الديوان بمعناه الصحيح، وهو متكوّن من 396 شخصا، موزّعين على مجموعة من المكاتب، وعلى مساعدين مجتمعين في طوائف Scholae. وكانت المصالح المختلفة للإدارة المدنية تنقسم إلى عشرة مكاتب. فكانت أربعة منها مكلفة بالإدارة العامة للمالية، وعلى رأسها أمناء المال Numerarius، وتبلغ أجرتهم السنوية 23 فِلْساً Sous ذهبياً. كما كان هناك 50 فرداً لحرسه الشخصي Singularii، كما كان هناك 10 أفراد يحملون الأعلام ويسيرون بها في موكبه، و6 أفراد يسهرون على خيوله ويعنون بها. وختاما نجد في خدمة الوالي خمسة من الأطباء يتقاضون أجرة رفيعة هي 99 فلساً ذهبيا لرئيس المصلحة، و 70فلساً ذهبياً لنائبه، و50 فلساً ذهبياً للثلاثة الباقين. كما نجد اثنين من المدرّسين gramaticé واثنين من الخطباء Sophistae oratores يتقاضى كل منهما 35 فلساً ذهبياً.

وكل هؤلاء الأشخاص من المستشارين إلى أدْون مساعد، كان الوالي هو الذي يعيّنهم بنفسه، ولا يأتمرون إلا بأمره، وهو الذي يراقبهم ويعاقبهم، وكان تعيينهم يتم لمدى الحياة. وجميع ما كان موظفو إدارة الوالي القانوني Préfet du Prétoire يتقاضونه بإدارة إفريقيا هو 6575 فلساً ذهبياً، مفصلة كما يلي :

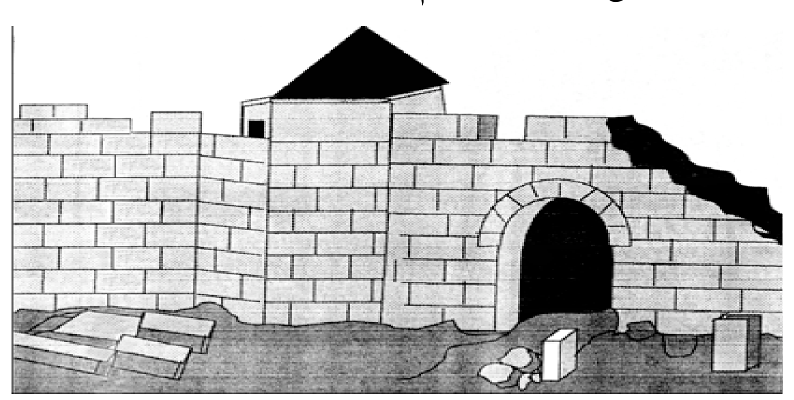
المستشارون	1440
الأعوان القضائيون	504
السكرتاريات	1478 1/2
الطوائف	2693 1/2
الأساتذة وغيرهم	459
المجموع	6575 فلساً ذهبياً

ويضاف لهذا مجموع الراتب الشخصي للوالي وهو 100 لبرة ذهبية، فيكون مجموع النفقات العامة لإفريقيا هو 13775 فلساً ذهبياً.

وفوق الوالي القانوني هناك سبعة حكام قنصليين Consulares أو مديرين Praesides يتقاسمون الإدارة المدنية بولايات الأقاليم. فالولايات التي أنشأها يوسْتِنْيانوس على هذا يكون عددها سبعا، أي أربع حكومات هي : التنْجيتان، والبروقُنْصلُية، وبيزْسينا وتْريبوليتانْيا. وثلاث حكومات يسيرها مديرون، هي نوميديا، وموريطانيا وسَردانية. وإننا لنعجب من ورود التنْجيتان بكونها ولاية. إذ أن احتلال سِبْتِم – إن كان بالفعل قد وقع – لا يكفي لإنشاء ولاية التنجيتان. ونفس التعجب يصح بالنسبة لولاية القيصرية أو السّطيفية. وربما أن يوسْتِنْيانوس كان وهو ينشئ هذه الولايات على الأوراق يملأه الأمل في وصول جيوشه لاحتلال هذه المناطق التي لم تصلها جيوشه فيما بعد ولا جيوش من خلفوه.

النظام الدفاعي

نظر ابْروكوب إلى ما أنشأه يوستنْيانوس من القلاع والحصون، وما أقامه من المنشآت الدفاعية فقال : «إذا كتبنا لائحة بالحصون التي أقامها يوستنيانوس أمام رجال يسكنون أرضاً بعيدة، وغير قادرين على أن يقيموا بأعينهم الحجة على ما نقول، فإن كثرة هذه البناءات بالتأكيد تظهر حكايتنا وكأنها خرافية وغير صادقة» [48] ثم إنه يتساءل : إذا رأت الأجيال المقبلة عدد هذه البناءات هل يمكنها حقيقة أن تسلم «بأنها جميعا من صنع رجل واحد؟» والحق هو أن بكل مكان، بسواحل البحر كما بسفوح الجبال، في الحضنة الموحشة ووسط السهول المجدبة، بالبسائط العليا بنوميدية، وفي براري تونس، فإن بقايا القلاع القوية لَتشهد على النشاط العجيب الذي بذله الإمبراطور العظيم. وبدون شك فإن الحكومة الإغريقية – وهذا ما لا أحاول إخفاءه – قد أعطت في إفريقيا البراهين على ضعفها وعدم كفاءتها»[49].



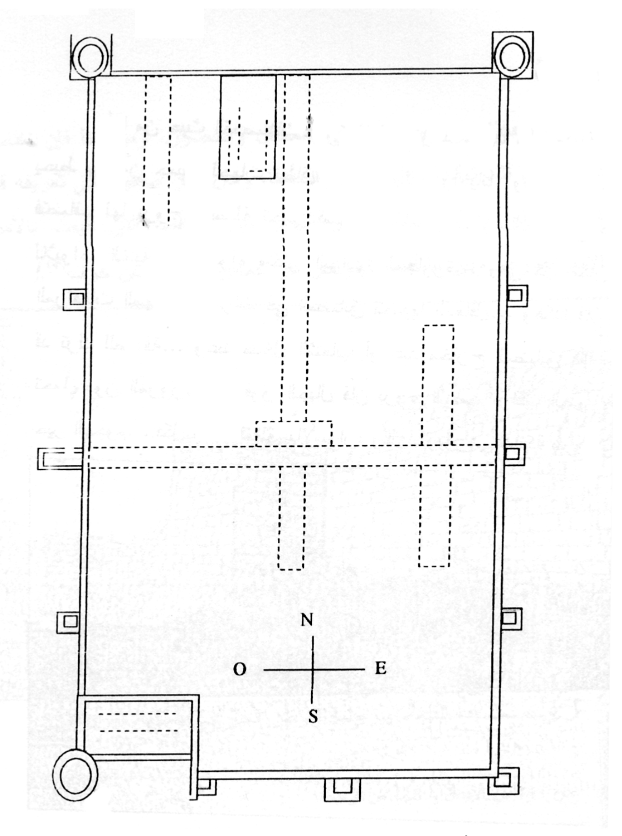
قالمة Guelma الباب الصغير لحوزة البيزنطية، الباب والبرج

(48) صفحة 138 من الأصل، و112 من ترجمتنا.

(49) ص 139 من الأصل، و113 من ترجمتنا.

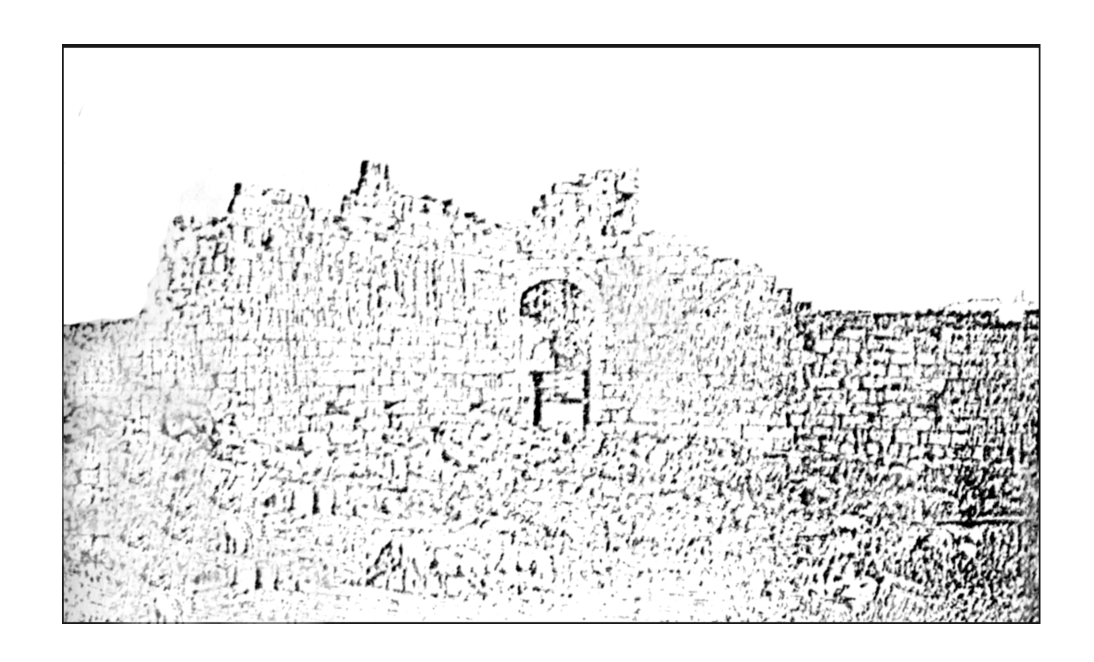


طَبْسة، قسم من الحوزة البيزنطية، الوجه الداخلي



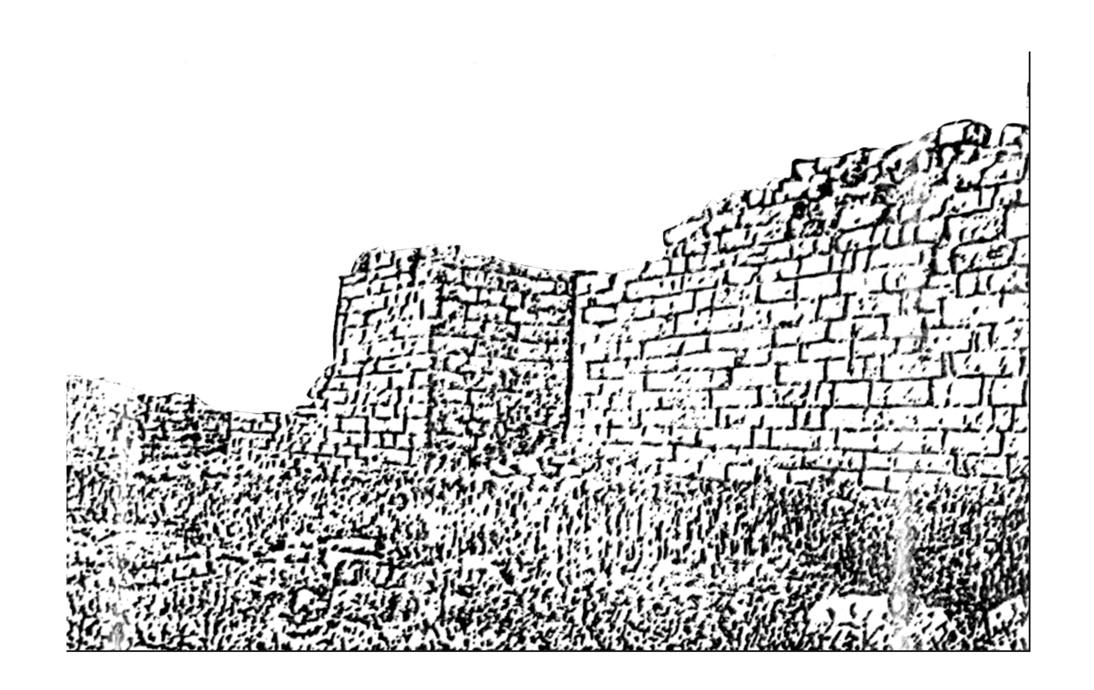
ثلْبت، حوزة المدينة البيزنطية

«أما من حيث التحصينات فقد تعددت وتنوعت. فهنا مثلا مدينة كبيرة يحيط بها من جميع الجهات نطاق من الأسوار. وأحيانا، ولو أنها محمية، فتضاف لها بروج منفصلة تحمي قسما من السور... وهناك مواقع فسيحة للإيواء، الغاية منها إيواء سكان البوادي المجاورة... وفي كل مكان فإن المرتفعات المهمة والممرات في المضايق تحميها المعاقل... وهكذا فلا شيء قد ترك للصدفة... وعند مدخل الشعاب أو عند مخارج المضايق فالحصون تحول دون المرور. ومن فوق الجبال فإن بروج الرصد تراقب العدوّ لإبلاغ خبر الهجوم... فكل مدينة تنغلق بالأسوار، وكل طريق هي شائكة ببروجها.



حيدرة، القلعة البيزنطية (نظرة داخلية للباب على النهر)

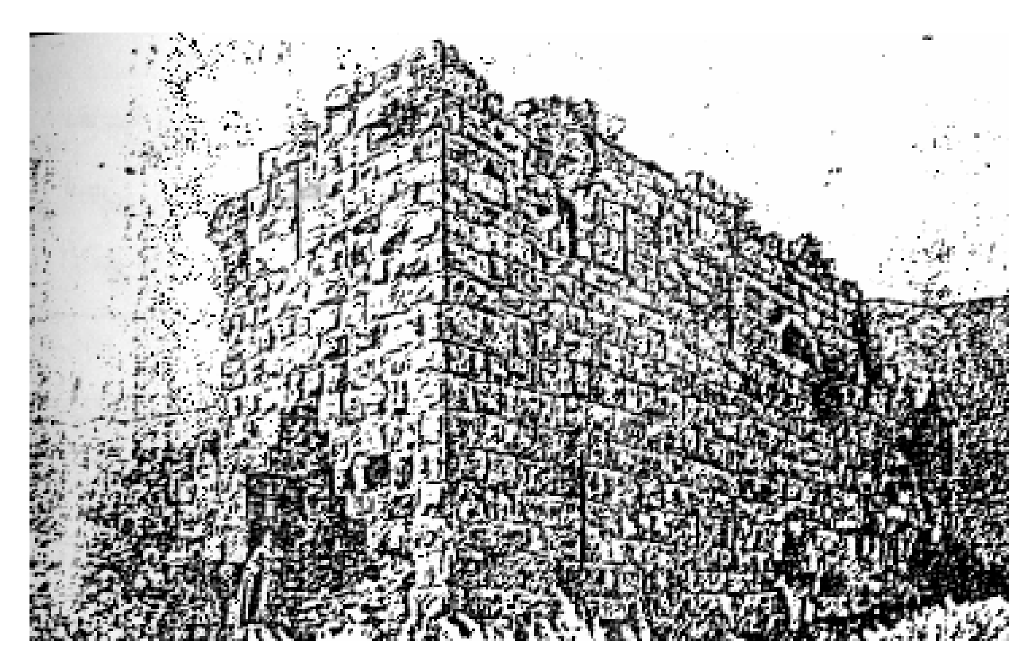
«وهكذا فالولاية كلها تكسى بالمعاقل والحصون. ومن هنا فإن نظاما دفاعيا كان أشد تعقيداً وأقل تناسقاً وانتظاماً، وكان أكثر صعوبة في تعريفه قد أنجز... إلى حد أنه أحيانا يتعذر التمييز بين النباءات التي أقيمت بالأمر الإمبراطوري، وبين ما أقامه الخواص عن حماسة منهم أو من خوف»[50].



تمكاد، القلعة البيزنطية

المنظر الخارجي للجبهة الغربية

(50) ص 145 من الأصل و118 من ترجمتنا.



عين زاكا، محرس بيزنطي

الحكومة البيزنطية والسكان الأهالي

كان العديد من القبائل الأهلية تعيش من حول أراضي البيزنطيين وبداخل هذه الأراضي أيضا. وكانت ثوراتها المتتابعة قد شكلت شغلا شاغلا للإدارة البيزنطية. وليس هذا فحسب، إذ تكونت بكل جهة دول أهلية كبيرة في استقلال كامل. وبحلول السلام، مهما كان قصير المدى، فإن الدبلوماسية البيزنطية كان لابد لها أن تجتهد لجعل هذه القبائل تقبل السيادة الإمبراطورية.

وسنبدأ بتعريف سريع لتوزيع الشعوب أو القبائل التي كان التعامل يجري، أو سيجري، معها.

على تخوم تْريبوليتانْيا كانت تقيم عدة قبائل خطيرة، وهي البَرْقيون Barcéens [51] الذين يذكّرنا اسمهم باسم بَرْقة Barca.

وقريبًا من لِبْتيسْ مَگْنا Leptis Magna (لبدة) كان يعيش الگدابيطانيون Gadabitani.

كما أن بجبال جنوبي طرابلس القاحلة كان يقيم المكْتونِيانيون Muctuniani.

وبين لِبْتيس مَگْنا وحدود بيزْسينا كانت ثلاث مجموعات قبلية خطيرة هي : النّصامونيون Nasamons والإيفوراسيون Ifuraces والأسْتوريون Astures.

ثم يأتي الإلْگواسِيون الذين يسميهم ابْروكوب باسم Levathes أي لَواتة Louata. وهذه كانت أكثر القبائل عددا وأشدها إثارة للحرب. وقد قال عنهم كوريبوس : «شعب خطير، ومرعب بالمحاربين، وصار جريئا بانتصاراته العديدة».

وخلف هؤلاء يأتي من جهة الشرق النصمونيون (؟) ثم الگَرامَنْطيون Garamante الذين كانوا يسكنون الفَزّان الحالي.

وعلى ساحل سدْرة الصغرى بين بُحَيرة تْريتون والبحر، نَجِدُ الميكاليّين Mecales أو إيمَكْلاس.

وقريبا منهم كان الأسْتريكِيون Astrices. كما أن كوريبوس جعل في نفس الجهة السليانيين والأنكوتاسوريين Anacutasurs والأرسلانيين Urceliani.

---

(51) يرجع في هذا الموضوع إلى صفحة 301 وما بعدها من الأصل الفرنسي، وص 263 من ترجمتنا العربية.

وأبعد من ذلك شمالي الشطوط بداخل أرض البيزنطيين، كانت قبائل أخرى تحتل جنوب بيزاسينا. وغير هذه كانت تقيم في البراري وفي السهول العليا التي تكون جنوب تونس. ومنها قبيلة الفريكْسِس Frexes التي كانت من أشد القبائل عنفا. إذ في عهد قائدها أو ملكها الكبير أنْطَلاس Antalas كانت تزاول على القبائل المجاورة سلطة لاشك فيها.

وكذلك قبائل السيْلفاكاي Silvacae والسيلكادِنيت Silcadenit، ثم يأتي النّفوريون Noffur.

والجهات الجبلية كانت تأوي قبائل مهتاجة غير تامة الخضوع حيث نجد السيلْفايزانيين Silvaizan والمكاريين Macares وغير هؤلاء كثير.

أما في نوميديا، فهضبة الأوراس الجبلية، كانت مركزا لدولة شديدة، هي دولة إيابْداسْ Iabdas الذي كان يجتهد ليتسع بدولته في كل الاتجاهات حتى كانت انتصارات القائد البيزنطي سولمون الذي أوقفه عند حدّه.

ويظهر أن نفوذ إيابْداس امتد إلى قبائل وعشائر السكان بتخوم الصحراء، التي كونت مَدداً لا ينتهي، وملجأ لاقتبال جميع الثائرين.

وفي أحواز ثوڤيسْت Theveste كان سولمون قد نقل سنة544 قيادته العامة ليضم فصائل كوتْسينا الحليفة. ولنفس الجهة جاء جان تروليتا Jean Troglita وأقام سنة 547 لاستدعاء جيوش الأمراء النوميديين إليه. وكلها قبائل بالغة القوة، تستطيع تقديم 30.000 فارس. وبالقرب من هؤلاء كانت عشائر أخرى خاضعة لإمرة الملك إيفِسْداياس

Ifisdaias. وكل هؤلاء، سـواء كـانوا خـاضـعـين أو نافـرين، وسـواء كـانوا يقـيـمـون بداخل الأراضي البـيـزنطيـة أو خـارجـهـا، فإنـهم جـمـيـعـا كـانوا يتربصون وينتظرون فرصة الانقضاض على ما حولهم للسلب والنهب. لذلك كان لابد أن يحسب لهم حسابهم، وأن يجتهد في تأمين خضوعهم[52].

أما الموريطانيات فعلمنا قليل بمواقع القبائل التي كانت تسكنها، والتي ذكرها كوريبـوس. ولكننا نعلم أن أكبر قـسـم من القـيـصـريـة كان يملكه الملك مستيـگـاس. ويطرح عنه سؤال : هل ممتلكاته أو هل أراضيه تكون قد اتصلت بأراضي الملك أورطاياس ؟ على كل كانت هذه العشـائر والقبائل كلها متجمعة في اتحاد قبلي كبير عرف باسم قبائل الأخمـاس Quinquegentiani. وبالجنوب الوهْراني كـانت تمـتـد المـملكة التي برغم بَداوتها كان يحكمها في القرن السادس ملك هو ماسونة الذي يعرّف نفسه بأنه (ملك الموريين والرومـانيين (Rex Maururum et Romanorum، وعنه أيضـا يطرح السـؤال الذي أضـحـى لا يفـارقنا، وهو: هل اتصلت مـملكتـه بمملكة إيابْداسْ الأوراسية ؟

إن جميع هذه الأقوام بعشـائرها وقبـائلها وملوكها من التنْجيتـان حـتى تْريبـوليـتـانيـا، هـي في الأغلب وعلى كـثـيـر من الظن ترجع لأصل سـلالي وجنسي واحـد، ولهم نفـس اللغـة التي هي اللغة الليبـيـة ومـعـهـا البونيقـيـة التي كانت حسب شـهادة القديس أغَسْطين لا تزال مسـتـعملة ومنتـشـرة في القـرن الخـامس. كـمـا أن هذه الأقـوام كـانت لهـا عـادات

---

(52) حول هذا الفصل ارجع للأصل الفرنسي بصفحة 303 وما بعدها، وارجع لترجمتنا العربية في ص 264 وما بعدها.

وأمزجة متشابهة. وأكيدا فإن طبيعة أرضهم، وحسب الاتصال الذي قد كان لهم مع الحضارتين البونيقية والرومانية، قد تكونت بينهم اختلافات تتم ملاحظتها في الكثير من أحوالهم الاجتماعية. فبينما بالمناطق الجبلية وفي السهول الخصبة كان الأقوام يحيون في الغالب حياة الاستقرار، يزرعون الأرض ويرعون المواشي، فبحدود الصحراء أو في البراري الشاسعة الصالحة للرعي استمرت حياة الرُّحل. فكان الأهالي لا يفترون عن التنقل. فيسوقون أمامهم قطعانهم من الكباش والماعز، ويجرون خلفهم نساءهم وأطفالهم وثرواتهم، ويحيون كما وصفهم سالوسْت قديما، إذ قال : «يتيهون، وليس من مسكن لهم غير المكان الذي يرغمهم الليل على أن يقفوا فيه». ولحمل أنفسهم وأمتعتهم كان لهم الفرس والبغل والجمل في تريبوليتانيا.

وزيادة على البيت الذي كان في المدينة مبنياً بالطين وبالآجر أحيانا، كان هناك مسكن آخر هو الكوخ أي المباليا Mapalia المغطّى بأوراق الشجر.

فحياة الأهالي برغم ما يقال عن حسنات العهدين الروماني والبيزنطي، كانت حياة شديدة وقاسية وبالغة الصعوبة. وكانت المهام تقسّم في الأسرة بين الذكور والإنات. ففي الأسرة المورية كان الأب ومعه الأبناء الذكور القادرون على العمل ينكبون على الأعمال العنيفة، ويتعودون منذ طفولتهم على حرفة الأسلحة، فهو دائما فارس لا يشكو تعباً، مستعد دائما للذهاب لغزوة أو لحرب. أما المرأة فتقوم بالخدمات المنزلية، تطحن الحبوب في الرحى الحجرية الثقيلة، وتطبخ وتقيم الكوخ،

وتعنى بتربية الأطفال، وبالخصوص بتربية البنات. وكان تعدد الزوجات شائعا في المجتمع الموري سواء بين عموم أفراد الشعب أو بين الكبراء والأمراء والملوك.

وسلوك الأمراء والملوك فيه أبلغ الشهادات على عقليتهم. فهذا أنطلاس ابن گنفان Guenfan هو كبير قبيلة الفريكْسِس Frexes. في السابعة عشرة من عمره غامر في غزوة ساق فيها ماشية طالتها يده. وهكذا كوّن لنفسه جماعة إن لم نقل عصابة كان بها يزرع الرعب. وقد بعثت عليه الحكومة تجريدة تعاقبه. فلم يَخْشها بل وقف لها وانتظرها وحاربها وانتصر عليها. فزادت شهرته وعظمت هيبته، فأصبح رئيسا للفريكْسس، وحاول السيطرة على الأرياف بصفته ثائراً لا نهاباً. فزاد نفوذ الشاب لما قدمت عليه قبيلة النفوريين تنضم إلى صفّه للاشتراك في عملياته الحربية. وبهذا ابتدأت ولادة دولة أهلية كبرى في الجنوب. وقد ساعده ضعف الملك الوندالي هيلْدريك، فانتصر على جيوشه انتصارا زاد في نفوذ وشهرة الملك الموري الشاب. وكذلك حدث في بيزسينا حيث إن رجال أنطلاس كانوا ينطلقون ولا يردّهم رادّ ولا يصدّهم صادّ عن التخريب والتهديم حتى بلغوا الساحل.

هكذا فأمير الفريكْسس الشاب المغمور، لم يكد يصل الثلاثين من عمره حتى أصبح مَلِكاً قويا شديد المراس، لكنه كان يمتاز بدقة النظر وبأعمال الحسابات المفيدة له. من ذلك أنه عندما نزل بيلزير بأفريقيا وانتصر على الونداليين، فإن أنطلاس أبدى الخضوع بدون تردد، لكي يجعل بيلزير يعترف بمملكته. وفي سنة 534 عندما ثارت القبائل، فإنه

تجنب موالاة الثوار، وبعد الانتصار استفاد، بأن وقع تقليده في بيزسينا بسلطة عليا على جميع الموريين. وبهذا فقد مكث طوال عشر سنين يسارع في الاستجابة لطلبات - إن لم نقل لأوامر - الأدواق الحاكمين ولرؤساء القيادات العسكرية البيزنطيين. وهو يطمح للتمجيد والتعظيم ويشعر بكرامة نفسه أمام الجميع. ويوم تجرّأ أحد الحكام وعامله كتابع وأوقع به إحدى العقوبات، سرعان ما عاد فظهر الزعيم الأهلي المختفي تحت الأمير المتَرَوْمِن بشممه وأنفته، فأوقد الفتنة، وقاد حربا لا هوادة فيها ضد من أهانه. والحقيقة أنه كان قليل الاهتمام بطرد البيزنطيين، إذ أن ضمان سيادته على بيزسينا هو كل ما كان يعنيه.

وهذا كوتْسينا، وهو نصف بربري، لأنه ابن لزعيم أهلي من امرأة رومانية، أو على الأصح من امرأة متَرَوْمِنة. ولقد قام في أول الأمر ضد السلطة البيزنطية، فوقع طرده عن ممتلكاته، وأرغم على أن يبحث عن أراض أخرى في نوميديا، ولكن سرعان ما أصبح صديقا - أو يدّعي أنه صديق - للقائد سولمون. ولقد كان كوتْسينا يكره أنطلاس بقدر ما كان أنطلاس يكرهه هو أيضا. وثورة أنطلاس تؤدي حتما إلى خضوع كوتسينا الذي كان يسره أن يذكر بميلاده الذي كاد «يجعله رومانيا بالدم، وكلية بالقلب»، وأنه «بأخلاق متحضرة وبوقار كله لاتاني» كان يكثر من الافتخار في آن واحد بجيشه الذي يبلغ 30.000 فارس، ويفتخر أشد الفخر بلقب قائد الجيش Magister Militum الذي أنعم به عليه الإمبراطور، ويفتخر أشد الفخر - هو الأهلي - إذ يقود فصيلة من الجنود النظاميين. وعلى غرار أنطلاس فإنه كان قليل الاهتمام بالاستقلال الوطني، لأنه رغما عن بعض الارتداد فسيبقى إلى موته واحدا من أفضل مساندي السلطة البيزنطية في إفريقيا.

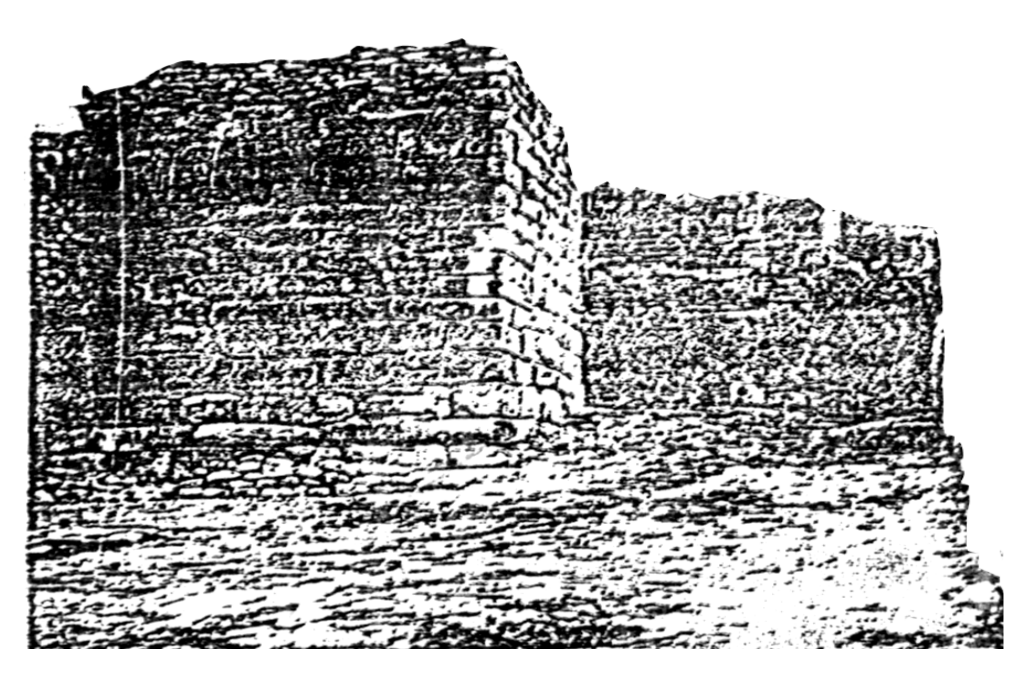
ونعود لذكر إيابْداس. إنه ذو مطامح واسعة وعريضة، يستهين بكل أحد في سبيل الوصول إليها. فقد أمر باغتيال صهره ميفانْياس Mephanias واتفق مع أحد جيرانه لسلب جار آخر كان يطمع في أرضه. ففي سنة 537 رفض المشاركة في الثورة للقضاء على الجيش البيزنطي. وفي سنة 546 ظهر كالمنتصر أمام قرطاجة، ولكنه فضل التخلي عن حلفائه، وبعث بفصائله لتضخيم القوات الإمبراطورية. وهكذا يساهم في القضاء على الثورة سنة 548. لأنه سهل الانفعال، كثير التقلب مع مصلحته وحسب هواه. وبهذا فإنه هو أيضا سينتهي إلى أن يتنازل كغيره، وسيقبل سيادة الإمبراطور في الأخير(53).

وفي هذه الأوضاع النفسية والعقلية للزعماء والملوك، كيف كانت حالة الجماهير الشعبية ؟ كيف كان عموم الأمازغة يعيشون ؟ لعلّي لا أبالغ إذا قلت إنهم كانوا يقضون الحياة في العذاب والنكد. كانوا بين الملك الزعيم عليهم، وبين الوالي أو الدوق الحاكم عليهم عبارة عن أفواج تذهب للحرب، أو عن مواكب تؤدي الضرائب وتبتز أموالها الهزيلة ابتزازا. لقد كانت نفقات الدولة عالية، وكان الإمبراطور يحتاج إلى أموال طائلة يؤديها تسديدا لتلك النفقات، كما أن الولاة النهِمين والموظفين المبتزّين، كانوا جميعا في حاجة لأموال يشبعون بها نهمهم. وأين سيجدونها إلا في مجموع المحكومين، سواء في المدن أو في البوادي، عند مجموع الشعب المثقل بالغرامات الفادحة التي يوقعها ويفرضها عليه الحاكمون ؟

(53) ارجع لصفحة 314 وما بعدها من الأصل الفرنسي، وإلى ص 274 من ترجمتنا العربية.

إن البلاد نفسها قد أصيبت من جراء الحروب والثورات بأشد الشرور. وإليك ما يذكره ابْروكوب في هذا الموضوع. يقول : «إن إفريقيا التي تمتد على مناطق واسعة جدا، كان قد أصابها الخراب كلّية إلى حدّ أن المسافر على مسافات طويلة يتعجب حين يلقى أحد الناس... والأفارقة الذين كانوا يسكنون المدن فإنهم كما رأيتُ ذلك بأعيني... يصعب تقدير عددهم. وأكثر منهم عددا هم الموريون. وكلهم قد قُضي عليهم مع نسائهم وأطفالهم». ويتحدث نفس المؤرخ عن عمل يوسْتِنْيانوس بإفريقيا فيقول : «... وذلك لأن يوستنيانوس... أخذ هو نفسه يدير إفريقيا عن بُعد، فأنهكها ونهبها كما أراد. فبعث رجالا يخرصون الأراضي، ووضع ضرائب فادحة جدا لم تكن موجودة فيما قبل، وأعطى لنفسه أحسن أقسام التربة... وفي كل الظروف كان قاسيا مع الجنود. ومن هذا تولدت الاضطرابات التي انتهت بكوارث عظيمة...». وفي هذا المضمار، يصعب تقدير الثقل الحقيقي للتحملات المفروضة على الولاية، ولكن الإدارة المدنية كانت تتطلب مجموع 17423 فلْساً ذهبياً، وأن الإدارة العسكرية كانت تتطلب 9026 فلسا ذهبيا. أي إن إفريقيا وحدها بدون سرْدانية كانت إدارتها تتطلب 26449 فلسا ذهبيا. ويضاف لهذا القدر جرايات الجيش ومرتّب القائد العسكري رئيس الجيش، ومصاريف بناء القلاع التي لا تحصى المنتشرة على كل المنطقة.

وبالطبع كان الأمازغة هم أول من يؤدّي أكبر قسم – إن لم نقل كل الأقسام – من هذه الواجبات. لذلك فإن تاريخ إفريقيا في القرن السادس ملئ بالوقائع والحروب. ولكن يصعب أن نفهم كيف استطاعت السلطة



باجة، برج الحوزة البيزنطية

الإمبراطورية أن تقاوم كل ذلك، لو لم يكن مزاج البربر أنفسهم يمكّن من وسائل الانتصار. إن البربر كانوا غير متفقين – ولا يتفقون – فيما بينهم. وبفضل الأحقاد التي لا تعرف السماح، والتي منعت الزعماء دائما وفي الوقت المناسب من الاتفاق ضد العدوّ المشترك. لذلك استطاع سولمون أن يضع بالتتابع كل الدول الكبيرة البربرية في التبعية الحقيقية. وفي سنة 540 فالقبائل الكبرى في تريبوليتانيا من اللواتيّين Levathes والإيفوراسيين والميكالين Mecales قد قبلت الإمبراطورية. وفي بيزسينا كان أنطلاس مسؤولا عن وفاء السكان البربر، وفي نوميديا كان كوتسينا حليفا صديقا.

وليس هذا فحسب، بل إن الأحداث الخارجية السيئة التي عرفتها الإمبراطورية، قد شحذت الهمم في إفريقيا، فعاد الموريون بعد حقبة قصيرة من الهدوء، وظهروا في ميدان المعركة أشد عنفا. ذلك أن الأفاريين Avarres وهم شعب طوراني من أسيا، حاربهم الصينيون وانتصروا عليهم سنة 552، فهاجمت بقيتهم أوربا أثناء القرون السادس والسابع والثامن، وكان شَرْلُمانْي هو الذي قضى عليهم في 799، وكذلك اللَّمْبَرْديون Lomberds الذين هم شعب جِرماني هاجم إيطاليا وأنشأ في شمالها مملكة عاشت إلى أن دمرها شرلماني. كما أن عودة الحروب الفارسية، كل ذلك قد أحال إفريقيا إلى الإهمال، فاستطال الموظفون من جديد، ومن جديد كان يجري ابتزاز الأموال لفائدة هؤلاء الموظفين النهمين. وأكثر من ذلك لفائدة الإمبراطورية نفسها التي كانت في حاجة ماسة إلى الأموال لمواجهة الأوضاع العصيبة الجديدة خارج حدود إفريقيا.

ومع الابتزاز والتجنيد بالإكراه غضب الموريون الذين خاضوا المعارك الدامية سنة 569، وانتهت بانتصارهم وقتل ثيودور Theodore والي إفريقيا، كما أن سنة 570 وفي عمليات مستمرة قتلوا فيها ثيوكْتِسْتوس Théoctistos قائد الجيوش بولاية إفريقيا، واستمر عملهم لا يعرف وهَناً في ثورتهم حتى قَتلوا سنة 571 أمابيليس Amabilis قائد الجيوش بإفريقيا أيضا. وظهر اسم قائد أهلي كبير هو گَرمول Garmol الذي عقب هذه الأحداث الجسيمة أنشأ دولة يظهر أنها كانت قوية.

إحداث الإكْسَرْخُسِيّة[54]

عند نهاية القرن السادس ظهرت للوجود شخصية أخرى بجانب الوالي القاضي Préfet du Prétoire الذي كان شخصية هامة في التراتب Hiérarchie الإداري البيزنطي بإفريقيا. فقد كان هو الرئيس المسلّم به للإدارة المدنية، وكانت رقابته واقعة بإمعان على أعمال حكام الولايات، وإليه تعود العناية بإدارة المالية. ولكن منصبا جديدا قد أحدث هو منصب الإِكْسَرْخُس Exarque الذي يتولى الإكْسَرْخُسِيّة Exqrchat.

ولقد جعل في الترتيب الرسمي فوق الوالي. لكن هذا الإكْسَرْخُس ما هي وظيفته ؟ وما هي الاختصاصات التي له في الولاية ؟

لقد كان الطابع العسكري هو المميز - دون المدني - في أول الأمر للإكْسَرْخُس. غير أنه بمكانته التراتبية العليا، وبالأهمية المرتبطة باختصاصاته، فإنه سرعان ما وصل إلى أن يُعتبر الوالي (ليس كزميل له بل كتابع له). وأياً ما كان الأمر فإن الإكْسَرْخس - وهو دائما قائد عسكري - قد أصبح هو الممثل الأسمى للسلطة الإمبراطورية، هو الحاكم العام للولاية، هو نائب الإمبراطور Vice-empereur حقيقة، هو وحده من بين جميع موظفي الولاية يكتسي باللقب العالي للبطريق. والإدارة الرسمية تحيّيه باسم صاحب السعادة وصاحب الرفعة. وفي التراتب الإداري له الأسبقية على جميع الشخصيات الإدارية الأخرى.

---

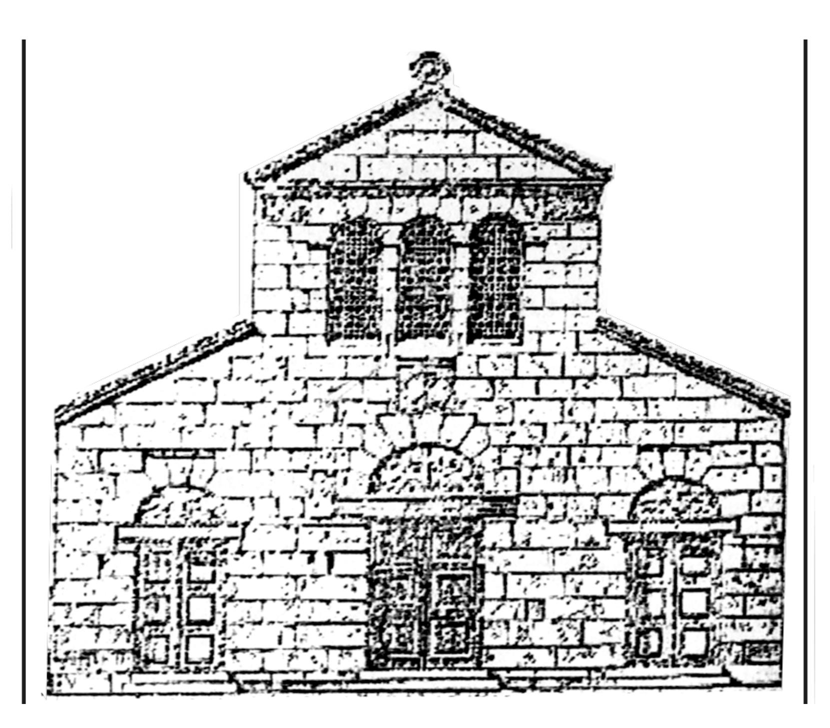
(54) الإكسرخسية Exarchat ولاية يحكمها إكسرخس Exarque أي حاكم عسكري من ضباط جيش إمبراطور بيزنطة. وكلمتا إكسرخسية وإكسرخس أستعملهما أنا كما ترجمهما بهاتين الصيغتين معجم المنهل (قاموس عربي فرنسي) في طبعته الثالثة، بيروت 1973.

وبقرطاجة كان يسكن القصر القديم للملوك الونداليين. وهو القائد الأعلى للقوات العسكرية المقيمة بالولاية سواء كانت هي الجيش المتحرك بالحملات الكبرى للحرب، أو جيوش الحدود Limitanei المكلفة بحراسة الحدود، ومن اختصاصاته العجيبة أنه كان يتدخل باستمرار في الشؤون الدينية، في نزاعات الأحبار، ويجري على القساوسة رقابة السلطات العامة.

في سنة 602 اندلعت ثورة أصبح بها فوكاس Phocas إمبراطورا. وكانت حالة الإمبراطورية بالمشرق ميؤوساً منها أو تكاد. فالفرس استولوا بالتتابع على سورية وعلى فلسطين ومصر. وجنود كِسْرى يخيّمون مرة أخرى أمام القسطنطينية، تحت أسوار خَلْقِدونية Chalcé-doine، وفقدت بيزنطة قمح مصر، فانتشرت المجاعة في العاصمة، ثم سرى الطاعون يحصد الأرواح.

ومع هذا كان فوكاس يحكم البلاد حكماً دموياً قاسياً. فاتجهت الأنظار إلى إكْسَرْخُس إفريقيا هيرَكْلِيوس Heraclius البطريق الشيخ العاقل الحازم الذي خاض الحروب وانتصر فيها، وكان له مساعد هو گْريگْوار البطريق أخو هيرَكْلِيوس هذا. ولم ينضم هيركليوس لصف فوكاس الثائر، ولكن هذا الأخير مع ذلك أثبته في منصب الإكْسَرْخُسية بإفريقيا، لكيلا يجعل منه عدّواً صريحا. غير أن الحكم الجنوني لفوكاس ألّف القلوب ضده سواء في العاصمة أو في الولايات. وكانت الأنظار خصوصا في إفريقيا تتجه إلى هيرَكْليوس وتطلب منه أن ينقذ الناس والبلاد من حكم فوكاس الدموي. والحق أنه كان يحس أنه شيخ، ولكن

كان بجانبه هيركليوس ابنه، ونيكْتاس ابن أخيه، وكانا شابّيْن يريدان إنجاد وإنقاذ الإمبراطورية من وهدتها التي أوقعها فيها فوكاس الدموي. وحدث أن إبيفانيا Epiphania زوجة البطريق الإكسرخس هيرَكْلِيوس، كانت آنذاك في بيزنطة صحبة أودوكيا Eudocia خطيبة ابنه. فرأى فوكاس الفرصة سانحة، إذ سيضمن رهينتَيْن ثمينتَيْن، ورأى أن يوقف المرأتين وأن يحبسهما في دير. وكان هذا العمل كافيا ليدفع بالإكسرخس هيركليوس ليتخذ القرار بالعمل السافر ضد فوكاس.

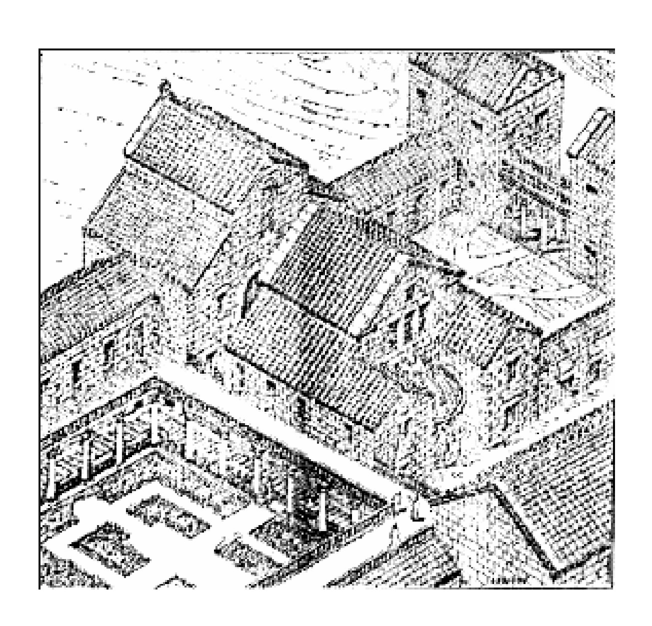


الواجهة المستعادة لكنيسة دار القرس

وقد كان تحت يده أسطول حربي حسن وجيش مخلص في ولاية مستبعدة لتزوده بالرجال. وفي نفس الحين ثارت الإكسرخسية، وتبعتها

مصر كلها، ووقع الهَيَجان في تريبوليتانيا وفي البِنْتابول Pantapole، أي في المدن الليبية الخمس Pentapole libyque الذي كان يشمل قورينة Cyrène وأبولونْيا Apollonie، وبْطوليمايس Ptolémaïs وبرنيقي بَرْقة Bérénice de Cyrénaïque. وأعلن البربر أنهم مع هيرَكْليوس، وكذلك الحكام الإمبراطوريون أنفسهم كانوا لا ينتظرون سوى إشارة من الإكسرخس البطريق.

وفعلا توجهت مقدمة عسكرية قوية فاحتلت البنتابول، وفي نفس الحين توجه نيكتاس ابن گريگْوار على رأس جيش شديد فاقتحم مصر ومكث بها، وعندما كان نيكتاس يسير مع الطريق الأرضية خلال سورية وآسيا الصغرى قاصدا القسطنطينية، كان هيرَكْليوس ابن الإكسرخس يركب البحر ببقية الجيوش على الأسطول الحربي المتجمع في قرطاجة.



استعادة لإحدى كنائس حيدرة

ونحن نعلم بقيـة الأحـداث، إذ أن فـوكـاس توفق فـي تألّيف القلوب ضـده. فـوقع تركـه لغـضب الشـعب الذي عـذبه ومـثل به. فـبـقي العـرش شـاغرا إلى أن اضطر هيرَكْليوس ابن البطريق الإكْسرخس هيركليوس لقبول تاج الإمبراطورية بإلحاح من مجلس شيوخ القسطنطينية. وفي يوم 5 أكـتوبر سنة 610، قـبل بكنيـسـة القـديسـة إتيـان Ste.Etienne تاج الإمبـراطورية من يد البطريرك سَرْجيوس Sergius.

فقام الشاب هيركليوس بأمر الدولة خير قيام في أول الأمر واجتهد في إصلاح دواليبها، ولكن الانهيار كان قد بدأ يأكل الدولة من كل جانب. خـصـوصـا وأن مـوظفي الإدارة كـانوا يجـعلون أنفـسـهم كل يوم أكـثـر استقلالا عن السلطة المركزية. وفي نهاية عـهد هيركليوس بدأنا نرى في الولاية ظهور دولة قوية أهلية لها قوانـينها ودينها وملوكها المستـقلون. فلُواتَة Louata يسـيطرون على السـاحل في تريبوليـتـانـيـا إلى مـا حـول قـابس Gabes، ومـعـهم الهُـواريون Houara والنفّـوسـِيـون Nefouça، وفـي الجـريد الحـالي وسـهـول الجنوب الغـربي لبـيـزْسـيـنـا أصـبـحت نَفْزاوة Nefzaua تحـتـل المناطق التي كان من قبل يجوبها رجال أنطلاس، وفي نوميـديا بهضـبة الأوراس كـانت جراوة Djraoua واليفْرَنِيون ومَغْراوة الذين يمتدون حتى الحضنَة والزّاب في موريطانيا، وفي نفس الجهة فإن أوْربة كانت تبدي قوتها وسيطرتها على الأرض. وبعيدا إلى الغرب كانت زَناتـة تسيطر على البسـائط العليا لمـوريطانيا القـيصـرية، كما كـانت بَرْغُـواطة فـي الصف الأول بالمـغـرب الأقـصـى. وإن كـانت أوْرَبة وزَنـاتة وبرغـواطة لم تكن لها عـلاقـة مع بيـزنـطة وخـصـوصـا مع قـرطاجـة التي

كانت هذه القبائل قد قطعت علاقاتها معها منذ عهد بعيد، وكانت تعيش في استقلال تام تغيب عنا ظروف الحياة به كما نجهل كل شيء عن إدارته وأنظمتها.

وفي هذه الظروف السيئة حدثت بإفريقيا المعارك الاعتقادية حول الأكْثِسيس Ecthesis أي حول العريضة الإيمانية التي حررها البطريرك سِرْجيوس، وبها أراد الإمبراطور هيرَكْليوس تهدئة الأزمة الحادة التي أثارتها الدعوة لتوحيد الإله سنة 638م. وهي دعوة اعتبرت هرطقة وحاربتها البابوية المؤمنة بالثالوث الذي هو الأب والابن والروح القدس. وكانت البابوية تعتقد أن توحيد كل هذا في واحد كُفر. وقد قامت إفريقيا قومة جادة ضد التوحيد، وأعلن أساقفتها باحتقار أن «كل هذه التجديدات قد تولدت من حُبّ فاجر للمجد، وأن أصحابها إنما تخيلوها فحسب ليظهروا أشدّ ذكاء وأشدّ حصافة وأكثر حكمة من باقي إخوانهم».

وحدث في سنة 640 أن تقدم الفتح العربي الذي كانت له نتيجة غير منتظرة، دفع نحو إفريقيا بكتلة من الأقوام المسيحيين الهاربين من مصر من الفتح الإسلامي، وكان فيهم عدد كبير من الرهبان والقساوسة والراهبات الذين أتوا إلى قرطاجة ملتجئين. وكان العديد من هؤلاء القساوسة الملتجئين معتنقين للهرطقة المنوفيزية القائلين بالطبيعة الناسوتية الوحيدة للسيد المسيح. فتعاطوا للدعاية لمذهبهم بإفريقيا، وبذلك كثر الهياج واشتد الأمر بين البابويين وبين هؤلاء، خصوصا وأن هذا المذهب قد صار هو المذهب الرسمي بالقسطنطينية في عهد

هيرَكْلِيوناس Heracleonas، وذلك بتأثير من الإمبراطورة العجوز مَرْتين Martine. فكثر غضب الجماهير الشعبية في إفريقيا ضد هذا المذهب والقائلين به، بل حتى ضد الإمبراطور نفسه. وفي إفريقيا تجابه الراهبان الخصمان، وهما الأب مَكْسيم Maxime المدافع الكبير عن الأرثودكسية الكاتوليكية، والأب بيرْهوس Pyrhus الذي وصل لإفريقيا سنة 645، وهو من أشد أنصار المذهب المِنوفيزي، وبوجودهما حمي وطيس المعركة الدينية. على أن معركة دينية أخرى شبت مع الإمبراطور الشاب كونسْطان الثاني Constant II، حول نظرية أو فكرة أو مذهب المثال Type. ومؤدّاها في التاريخ الديني المسيحي يعني «أن حدَثاً أو شخصاً من العهد القديم (التوراة) يُنظر إليه على أنه الوجه أي المثال للأحداث أو الأشخاص في العهد الجديد (الإنجيل) وأن خروف الفحص هو مثال Type السيد المسيح». وقد أحدثت هذه النظرية أو هذا المذهب رجة شديدة في إفريقيا، التي كان أساقفتها يسارعون للمشاركة في المجهودات المبذولة في الدفاع عن الكاتوليكية. فحضروا مجمع لطْران Latran، ووقعوا على اللعنة العظيمة الملقاة على المذنبين أصحاب الإكْتيسيس Ecthesis وعلى أصحاب المِنوفيزية Monophysisme وضد مذهب المثال Type الذي قال به كونسْطان الثاني.

نهاية إفريقيا البيزنطية

كانت إفريقيا في سنة 646 خاضعة للإكْسَرْخُس البطريق گريگوار Grégoire. وقد خضعت له منذ سنين قبل ذلك.

وكانت الإمبراطورية في يد كونسْطان الثاني الشاب، وقد هوجمت من كل جانب من الخارج، وفي الداخل كانت علامات التفكك بادية على أجهزة الدولة، بحيث في سنة 642 انفجرت ثورة في رومة ضد السلطة الإمبراطورية. وكان المسلِمون قد استولوا على سورية ومصر وفلسطين وعلى ولاية بَرْقة وطرابلس، وكان في هذه الظروف الإغراء عظيما بالاستقلال والانفصال عن الدولة الإمبراطورية. وكان الإكْسرْخُس البطريق گريگْوار يرى في الأمر سهولة عظيمة، لأنه كان يعلم أنه محبوب لدى محكوميه وحتى البربر منهم. فكان يرى بسهولة أن السكان كانوا مستعدين لمناصرته وللعمل تحت لوائه، لأن الصرا ع الديني قد أغضب السكان ضد البازيليوس. وكان يحكى أن بابا رومة أكد للإكْسرْخُس أن الرب يناصره في ثورته، بل هناك حكاية الحلم الذي رآه الأب مَكْسيم الورع التقي الذي تصدقه الأوساط الشعبية. والحلم هو أن الأب الورع التقي رأى جماعة من الملائكة وهم يطوفون في السماء من جهتَي المشرق والمغرب، وكان الأولون يصيحون : «المجد لقُسْطَنْطين المجيد»، فيجيبهم الآخرون : «المجد لگْريگوار المجيد». ثم انقطعت أصوات ملائكة المشرق، ولم يعد يسمع إلا أصوات ملائكة المغرب وهم يرددون (المجد لگريگوار المجيد). وبمثل هذه الخرافات كانت تسير السياسة في أذهان الشعب الذي كان يصدقها لأنها مروية عن الأب مَكْسيم الورع التقي.

وقد أعلن گريگوار نفسَه إمبراطوراً وقطع الصلة بينه وبين القسطنطينية، وبعث إليه البابا يهنئه على ما قيل. وحدث ما كان منتظرا

إذ تصادم جيش گريگوار مع الجيش الإسلامي الفاتح في معركة سفيتولا (سبيطلة)، فحلت الكارثة على البيزنطيين أي على گريگوار. وتحت الضغط العنيف للقوات الإسلامية تولت جيوش البطريق وفرّت. وهو نفسه كان يقاتل قتال اليائس فمات في المعركة وشُتّت جيشه.

وهكذا فإن معركة سبيطلة، بها وقع القضاء الفعلي على دولة البيزنطيين في شمال إفريقيا.

الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا

رأيت من المستحسن أن أعرض في توطئة سريعة قصة الفتح الإسلامي لديار المغرب تتميما للفائدة.

إن الطريق من غرب النيل إلى بَرْقة وطرابلس وسواها مفتوحة مشرعة أمام أنظار الفاتح. تغريه بل تدعوه إلى أن يجوس خلالها وأن يتقدم فيها.

ولا عجب أن يفكر عمرو ابن العاص بمجرد ما أتم فتح الأسكندرية في التقدم لفتح هذه البلاد. خصوصا وأن البيزنطيين (الروم) لم يهدأوا ولن يهدأوا بعد فتح مصر، ولابد أن تسوّل لهم أنفسهم الرجوع ذات يوم بحملة لاسترجاعها. ثم إنهم مقيمون على سواحل تريبوليتانيا التي تتصل بمصر. ولاشك أن عَمْراً كان يعلم أخبارهم وأخبار البربر معهم، ثم إن أهل طرابلس وبرقة كانوا على اتصال بمصر. وكانت قبائل البربر

المتساكنة في الصحراء بين برقة ومصر هي قبيلة لواتة التي قال عنها بن خلدون : «وهو بطن عظيم من بطون البربر... وكان لُواتة هؤلاء ظواعن في موطنهم بنواحي برقة كما ذكر المسعودي» [55]. كما أن ابن عذاري يقول : «وجه عُقْبة بن نافع الفهري إلى زويلة وبرقة فافتتحها، ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها»[56]. وهذا القول من ابن عذاري لا تستقيم به الأحداث. والأصح هو أن يكون عمرو قد بعث عُقْبة ان نافع على رأس تجريدة صغيرة للتعرف على البلاد وأهلها وعلى مواقع الروم بها أو بساحلها قبل ما يفرغ هو من أمر مصر والإسكندرية. ثم إن عمراً لما اطمأن إلى الأخبار التي جاءته من عقبة، وكان هو قد أنهى أمر مصر، اتجه بعد ذلك للفتح بنفسه.

على أن هناك رواية – يغلب عليها الطابع الخرافي – تقول إن البربر من هذا العهد المبكر بعثوا إلى عمرو بن العاص يعرضون عليه إسلامهم، فسُرّ بالوافدين عليه وبعثهم إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذي سُرّ بهم أيضا وأكرمهم وأعادهم بوصية منه.

على كل تقدم عمرو للاستيلاء على برقة فتم له ما أراد، وبدأ يستعد للسير قدماً. وقد سار في آن معا بنفسه للاستيلاء على طرابلس وسِرْتة وصبْرة، وفي نفس الحين كان يبعث بفرق من جيشه للاستيلاء على المواقع الداخلية بالواحات. لأنه – ربما كان يرى أن الأفيد والأضمن هو إخضاع بربر الداخل في نفس الحين الذي يستولي فيه على الساحل حتى

(55) ابن خلدون، ج 6، ص 117.
(56) ابن عذاري، البيان المعرب ج 1، ص 2.

تخضع له البلاد من ساحلها لداخلها. وبذلك تترسخ أقدام الفاتحين العرب المسلمين في البلاد.

وهنا يأتي ذكر طرابلس التي يقول العرب عنها إنها كانت تحت سلطة جرْجير (گْريگْوار) أو گريگوريوس، وهو البطريق الإكسْرْخُس الذي سبق أن ذكرنا أنه خلع طاعة الإمبراطور وأعلن نفسه أميرا على إفريقيا، وسكّ النقود باسمه وعليها صورته هو. وفي هذا الموضوع يقول ابن عبد الحكَم : «وكان عليها أي على إفريقيا ملك يقال له جرجير، كان هِرَقْل قد استخلفه، فخلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه، وكان سلطانه ما بين طرابلس إلى طنجة [57]» ومثل ذلك نجده عند النُّوَيْري[58]، وعند البَلاذُري[59]. وخطأُهم جميعاً في قولهم إن سلطانه كان يمتد من طرابلس إلى طنجة، لأن المعلوم والثابت تاريخيا هو أن البيزنطيين (ومعهم گريگوار) كان حكمهم مقصورا على إفريقيا والقسم الشرقي من نوميديا فحسب. ولم تكن سلطتهم تمتد لا إلى بوماريا (تلِمْسان) ولا إلى ما بعدها من مَلْوية إلى المحيط الأطلسي. وكلها أراضٍ كانت متحررة من كل سلطة أجنبية، باستثناء سِبْتم (سبتة) ربما، التي تكون قد خضعت للفيزْيقوطيين أصحاب أسبانيا.

وعلى كل فإن عَمراً استولى على طرابلس بعد حصار دام شهرا على قول، وسارع إلى فتح صبرة فاستولى عليها وعلى غيرها من

(57) ابن عبد الحكم، الفتوح 183.

(58) النويري: نهارية الأرب ص 163.

(59) البلاذري: فتوح البلدان، ص 226.

المواقع. وهنا تتحدث المصادر العربية بأن عمرو ابن العاص أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في فتح إفريقيا. فلماذا بعث يستأذنه في فتحها، وهو لم يستأذنه في فتح ما سواها ؟ هل لأن الأراضي إلى صبرة كانت حصينة ؟ هل كان عمرو يستأذن لتصله النجدات التي ربما قد كان في حاجة إليها ؟ هل كان گريگوار (گريگوريوس) في هذه الجهة مطمئنا إلى جيوشه وإلى أنصاره من البربر ؟ وكان عمرو يودّ اقتحام الجيوش والأرض، ومع ذلك كان يخشى أن تدور عليه الدوائر ؟ على كل فالواضح أن گريگوار استعد استعدادا فائقا في قابس، غير أن العرب تحاشوا قابس، وقصدوا سبيطلة رأسا.

وعلى ذكر سبيطلة فنحن نعلم أن گريگوار قد تخلى عن قرطاجة وانتقل إلى سبيطلة التي جعلها – ولو مؤقتا – دار إقامته وعاصمته في حماية حصونها العديدة، وفي حماية الأفارقة الموريين الموالين له بإخلاص.

ونعود إلى قصة الاستئذان الذي رفضه الخليفة عُمَر وقال كلمته المشهورة عن إفريقيا : «إنها ليست بإفريقية، ولكنها المفرقة الغادرة، مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت[60]». فلماذا اتخذ الخليفة عمر هذا الموقف من إفريقيا؟ إنه بالطبع كان يخشى على عمرو وجيشه، لأن بلاد العرب كانت بعيدة عن إفريقيا. والعرب في جاهليتهم – بطولها – لم تكن

---

(60) ابن عبد الحكم : فتوح ص 172.

لهم بإفريقيا علاقات من أي نوع. كان العرب يعرفون مصر ويعرفون الروم (البيزنطيين) والفرس. أما إفريقيا والأفارقة فلم يكن لهم بها أي اتصال. ولذلك كان الخليفة عمر لا يعلم شيئا عن الأحوال السياسية أو الاجتماعية للبلاد، وكان لذلك يرى أن فتحها غير ميسور، وأنها ليست مأمونة الأحوال، ويرى أن سكانها مجهولون لديه جهلا يجعلهم أهلاً للخشية. وبذلك عدل عن مشروع عمرو ابن العاص في الفتح خصوصا وأنه توفي أثناء ذلك.

عيّن الخليفة عبد الله بن أبي سرح، واعتبرت إفريقيا جزءا من مصر يحكمها والي مصر، الذي هو قائد جيشها وإليه أمر جباية أموالها. فبدأ يستعد للغزو «وشرع يبعث المسلمين في جرائد الخيل... فيصيبون من أطراف إفريقيا ويغنمون[61]»، بعد أن أذن له عثمان الذي استشار الصحابة في الغزو، إذ كتب عثمان إلى عبد الله يأذن له في الفتح سنة 27 أو 28 أو29[62]. وقد اهتم الخليفة بهذا الجيش وكذلك الصحابة الذين نجد منهم العبادلة على الأخص يقدمون للمشاركة فيه. وهكذا نجد من العبادلة زيادةً على عبد الله ابن سعد ابن أبي سرح القائد الذي كان آنفا والياً على مصر، عبدَ الله بن الزبير، وعبد الله ابن أبي بكر وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن زيد بن الخطاب، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وغير هؤلاء كثير.

(61) ابن عبد الحكم: فتوح ص 183.
(62) البلاذُري، فتوح، ص 226.

وقد خرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح من مصر وجيشه على ما قيل يبلغ عشرين ألف جندي، فيهم عرب الجزيرة والجند، والبربر من أهل إفريقيا. وكان يقصد الإسراع لمواجهة گريگوار(گريگواريوس أو جرجير لمن أراد)، وعند طرابلس وجد أهلها الذين كانوا قد عادوا للكفر، وجدهم متحصنين بأسوارها، فحاصرها بعض الوقت ثم أقلع عنها وسار فوجد مدينة قابس كذلك قد تحصن أهلها داخل أسوارهم، فأقلع عنها هي أيضا، لأن الصحابة أشاروا عليه أن يتقدم ولا يشغل نفسه عن جرجير بشيء حتى وصل إلى عقوبة [63] وهو فحص متسع بينه وبين دار ملك الروم مسيرة يوم وليلية، وبدون شك فقد كان به الحصون والمحارس العديدة التي كانت تحيط بسبيطلة[64].

واتصل الجيشان فجرت المفاوضات بين الرجلين، عبد الله بن سعد ابن أبي سرح وگريگوار. وفي ذلك يقول ابن الأثير: «... وراسله عبد الله ابن سعد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية فامتنع منهما، وتكبّر عن قبول أحدهما...[65]» لأنه كان عازما على لقاء العرب بجيشه العظيم الذي قيل عنه – وبكثير من المبالغة – إنه يبلغ مائة وعشرين ألف رجل.

وعلى كل فإن الخليفة انبهمت عليه أخبار الجيش في إفريقيا فقلق من ذلك، وبعث عبد الله ابن الزبير الذي وجد القوم يتحاربون ويتقاتلون

(63) البلاذُري، فتوح، ص 226.
(64) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 86.
(65) ابن الأثير، ج 3 ص 34.
(66) النويري : نهاية الأرب، ص 65.

كل يوم إلى الظهر. فإذا حل الظهر رجعت كل طائفة – من الروم ومن العرب – إلى معسكرها، فتضع الحرب أوزارها إلى الغد صباحا حتى الظهر وهكذا دواليك.

وهنا يقال إن العرب عمدوا إلى إحدى حيلهم الحربية التي اعتادوها[66]، وهي أنهم يحاربون العدوّ ويطيلون مدة حربه ويجهدونه ببعض الجيش، حتى إذا تعب العدوّ وأنهكه القتال، فإنهم يتولون عنه، فيدخل هو إلى معسكره ويتخلى الجنود عن لبس أسلحتهم، ويضعونها ويزيلون لأمات سلاحهم، وإذ ذاك يفاجئهم المسلمون بجيش جديد كان مرتاحا داخل معسكره ومتهيئا للانقضاض على العدو. وبالفعل فإن ذلك هو ما حدث، ففوجئ العدو، وكثر فيه اللغط وظهر الخوف على الجيش ففر منهزما، وكثر فيهم القتل، ولم يجد گريگوار سبيلا إلى النجاة بنفسه فوقع قتيلا وانتهت المعركة بانتصار الجيش العربي على يد عبد الله ابن أبي سرح، لا على يد عبد الله ابن الزبير كما تروي بعض المراجع العربية.

وتقدم العرب مسرعين بعد ذلك إلى سفيتولا (سبيطلة) التي كانت قريبة من عقوبة موقع المعركة، وبالفعل تم حصار المدينة حصارا قويا انتهى بالسيطرة عليها. وبذلك انتهى العهد البيزنطي نهائيا في إفريقيا. لأن البلاد بقيت بدون حاكم لهم. بسبب القطيعة التي كانت واقعة بين گريگوار وإمبراطور بيزنطة أولاً ولأن موت الإكْسُرخُس البطريق الذي سمّى نفسه إمبراطورا عليها قد مات أثناء المعركة.

ولم يلبث عبد الله بن أبي سرح أن تراجع بجيشه وغنائمه بعد أن صالح أهل البلاد، وحتى الروم معهم على ترك البلاد والتخلي عنها مقابل أموال طائلة لا يعقل مقدارها، إذ قدرت بألفين وخمسمائة ألف دينار (2500.000) وقيل مقابل ثلاثمئة قنطار من الذهب[67].

دامت هذه الغزوة خمسة عشر شهرا. وقد وُفّق عبد الله بن سعد بن أبي سرح في القضاء على السلطة البيزنطية في البلاد. ولكن هل وفّق في ربط البلاد ربطا نهائيا على غرار ما جرى بمصر بعجلة الدولة الإسلامية ؟ الأمر مشكوك فيه، ولعل الصحيح هو أن إفريقيا قد عادت بعد ذهاب ابن سعد عنها لتحيى حياتها الخاصة بعيدة عن الإسلام والمسلمين، لانشغال هؤلاء عنها بالأحداث التي جرت عقب وفاة عثمان. وبذلك تأخر الفتح إلى أن تولى الخلافة معاوية ابن أبي سفيان.

وهنا يحسن الرجوع لذكر بعض ما سبق لي قوله عن الدولة البيزنطية، وعمل إمبراطورها قُسْطَنطين الثاني، بتدخله في الشؤون الدينية، وفي قهر رعيته بالمذهب الذي أخذ يفرضه على الناس وذلك بإعناتهم على الأخذ بمذهب المثال Type، الأمر الذي أثار موجة من الاضطراب في إفريقيا بين سكانها من روم وبربر، حتى أدى الأمر إلى الانقطاع عن القسطنطينية، فظهر تشجيع بابا رومة على هذا الانقطاع عنها. وظهر أن گريگوار كان اعتمد على تشجيع البابوية فأعلن نفسه إمبراطورا. وفي أثناء ذلك بلغ بقسطنطين نزول اللُّمْبَرْدِيّين الجرمانيين

(67) ابن الأثير: ج 3، ص 35. والنويري نهاية الأرب ص 66.

بشمال إيطاليا، فتقدم لملاقاتهم سنة 667 أو 668، ثم عاد بعد ذلك إلى قصره في سرَقوسة Syracuse حيث ظل مدة أكثر من خمس سنوات، استطاع فيها أن يسترد كَلَبْرِية Calabre وجزيرة سردانية وقسما صغيرا من إفريقيا.

ومن حاجته للأموال عاد إلى فرض الضرائب العاتية واشتد في جبايتها، كما اشتد معه الجُباة في ابتزاز الناس. ومع ذلك عجز عن تسديد ما عليه من جراية واجبة للجند فثاروا به وقتله جندي في سنة 668، بأن أحمى عليه الحمّام فاختنق بحمّامه. وانتهى الأمر بالمناداة بقسنطين الثالث إمبراطورا.

وهنا تكثر الأقوال ويتحدث المؤرخون أحاديث كثيرة، لا يُدرى صحيحها من زائفها.

من ذلك مثالا أن إفريقيا بعد گريگوار قد تصدى للقيام بأمرها رجل من الروم (لا ندري اسمه ولا أصله)، وأنه سار إلى الشام بعد أن تم طرده من إفريقيا. وكان بالشام معاوية ابن أبي سفيان قد استقرت ليده الخلافة بعد موت علي ابن أبي طالب، فتحدث الرومي مع معاوية ووصف له أحوال إفريقيا، وطلب منه تنصيبه عليها، وأن يرسل معه جيشا لإخضاعها للمسلمين. فأصدر معاوية أمره لمعاوية بن حديج السكوني أن يسير مع الرومي، ولما وصلوا إلى الإسكندرية هلك الرومي، ومضى ابن حديج فوصل إلى إفريقيا التي كانت تضطرم بالخلاف[68].

(68) ابن ابن الأثير، ج 3، ص 35.

إني صراحةً لا أصدق أن يميل معاوية ابن أبي سفيان إلى مُطْلق روميٍّ يعقد له على جيش، ويأمر أحد كبار القواد المسلمين أن يكون تَبعاً، أو على الأقل أن يأتمر بأمر هذا الرومي الغريب الذي لم تتحدث عنه المراجع حتى باعتناقه الإسلام. ولستُ أدري كيف رضي أو اقتنع بترديد هذا الخبر كل من ابن الأثير والنّويري مثلا.

وتتميما للكلام على معاوية ابن حديج، أشير إلى أنه قد غزا غزوته الكبيرة سنة 43 لا سنة 34 التي ذُكرت خطأ. وأن معاوية كان في10.000 رجل يقصد إفريقيا، وأنه خرج من مصر يسير في الطريق المعتادة بين مصر وليبيا، وأنه لم يركب البحر، وأنه تقدم حتى وصل لسهل تونس، ومن هنا بعث بعبد الله ابن الزبير يتتبع الروم، حيث كان يناوشهم حتى ركبوا البحر فارين من وجهه.

أما معاوية ابن حديج فكان عليه إما أن يسير شمالا متتبعا الساحل ليحتل مواقعه، ويقطع بذلك السبل على الروم فلا يتصلون من بعده بالداخل ولا يحطون بالسواحل، وإما أن يسير مع الداخل يحتل المواقع والحصون ويوقف تحركات البربر.

وقد فضل ابن حديج الاتجاه مع السواحل في اتجاه الغرب فاستولى على جلولاء كما سار إلى بنْزَرت Hippone فاستولى عليها، ولم يوجه عنايته للاستيلاء على قرطاجة، ولا ندري لذلك سببا سوى أن يقال إنه خشي الاصطدام بها مع قوة تكون أشد من قوته وأكثر عددا، أو إنه لخطة ستراتيجية كان يؤخرها لما بعد سيطرته على المدن الساحلية

الأخرى. وفي نفس الحين تم فتح جزيرة جَرْبة على يد روَيْفع ابن ثابت الأنصاري، الذي كان ابن حديج هو الذي عينه.

بهذا العرض السريع أُنْهي هذه التوطئة عن وصول الإسلام إلى إفريقيا. وإلى هنا أكتفي بما ذكرته لأقف عند تعيين معاوية ابن أبي سفيان لعقبة ابن نافع والياً على إفريقيا. إذ أن الحديث عن عقبة وعن أعماله وعمن تولوا البلاد بعده حديث يطول تناوله وشرحه، وليس ذلك من غرضنا في هذا الكتاب.

الخاتمة

امتدت هذه الخلاصة على أكثر من ثلاثمائة صفحة حاولت فيها عرض تاريخ شمال إفريقيا عرضا سريعا ومركزا. فماذا استفدناه من هذا العرض ؟

من المسلّم به أن تاريخ هذه البلاد لم يكتبه أبناؤها على غرار العراقيين والمصريين والإغريق والرومانيين والبيزنطيين. وتبعا لهذا، نجد أنفسنا مضطرين للإصغاء إلى ما يقوله عنا الغرباء بجهلهم، وبسوء أو بحسن نيتهم.

إن تاريخنا القديم نجمعه كلمة كلمة، ونصغي فيه لما كتبه عنا القدماء من كتّاب الإغريق والرومانيين. ولذلك أعود، وأطرح نفس السؤال: ما استفدناه من هذا العرض ؟

إننا استفدنا أن قرطاجة لم تحسن سلوكها مع محكوميها الأفارقة، ولم تحسن حربها ضد الرومانيين، فانتحرت بسبب سلوكها مع هؤلاء وأولئك. واستفدنا أن رومة كانت تتفتح شهيتها مع الأكل، فما استولت على مقاطعة أفريكا حتى امتدت أنظارها في ظروف وملابسات مناسبة إلى نوميديا، إلى مملكة يوبا الأول فاستولت عليها. ثم أنشأت من بعد مملكة التنجيتان ليوبا الثاني وابنه بطلمي، ثم غيّرت رأيها فقضت على الملك بطلمي واستولت على المملكة، في ظل جملة من المستوطنات التي سبق أن أنشأتها لتكون مأوى لأبنائها العاطلين، وللمسرَّحين من جنود فيالقها لكي يكونوا أعْيناً على الحكام المحليين، ولكي يكونوا عند الحاجة يدا مساعدة في تنحية هذا المساعد أو الزعيم أو هذا القائد.

وكانت الثورات تتلوا الثورات حتى جاء ديكْلِتْيان Diocletianus الذي فهم الوضع على حقيقته فأمر بإخلاء موريطانيا، بعد أن قسّمها إلى قسمين، أحدهما ربطه بأسبانيا والآخر تركه لمقاديره الحياتية والسياسية والاقتصادية.

وجاءت الدولة الوندالية التي كانت غلطة شائنة. لأنها كانت عبارة عن زرع جسم أجنبي في غير موطنه الطبيعي، ولكن بيزنطة – بالتعاون مع أهل البلاد – تكفلت بإزاحتها والقضاء عليها.

وهذه أيضا أي بيزنطة كانت بتجنيدها للجنود بالإكراه، ولفداحة ضرائبها، ولابتزازات موظفيها، وللحاجة الأكيدة والملحّة التي كانت فيها للمال قد هيأت هي الأخرى السبيل للقضاء على نفسها بنفسها.

ومن أعظم ما استفدناه من هذا العرض أن موريطانيا الطنْجية لم تعرف السيطرة الوندالية، ولا البيزنطية مطلقا. ولكنها انقادت للإسلام الذي توافق مع عقليتها وتناسق مع شخصيتها، فعظم شأنها مع المرابطين والموحدين والمرينيين.

وأرى أن أكتفي في الخاتمة بهذا الذي قلته، حتى لا يقال إني ألخص الخلاصة.

وإنني في الأخير لأحمد الله الذي هداني لما خططته وسدّد قلمي فيما عرضته. والسلام.



الفهرس

تقديم 3

الكتاب الأول

– الحجري القديم 8

– الشظايا 13

– الحجري القديم الأعلى 15

– الحجري الجديد 16

– بدء التاريخ 19

– السكان الأولون 22

– البربر 25

– تصنيف طوائف البربر 27

الكتاب الثاني

– بداية التاريخ الإفريقي 33

– تأسيس القرطاجة 36

– قرطاجة في مركز القيادة 40
– رحلة حـنّون 44
– مدينة قرطاجة وأنظمتها 49
– سياسة قرطاجة في مستعمراتها 57
– الأهالي خارج المنطقة البونيقية 58
– التجـارة والعُملـة 59
– قرطاجة والمستعمرات 60
– قرطاجة بصقلية : الإمبراطورية القرطاجية 62
– الحروب البونيقية الإغريقية 65
– أگـاتكليس 68
– أگـاتكليس يهاجم قرطاجة نفسها 69
– الحرب البونيقية الرومانية 72
– الحرب البونيقية الثانية أو حرب حنيبعل 79
– الحرب البونيقية الثالثة: نهاية قرطاجة 93
– الحـرب المـدمـرة 97
– قرطاجة في مستعمراتها علاقات غير ودية 110
– حـرب المرتـزقة 115

الكتاب الثالث

– الرومانيون بإفريقيا 117

– النظام الإداري الروماني لإفريقيا 151

الكتاب الرابع

– الونداليون بإفريقيا 165

– الهجوم على غاليا 166

– الهجوم على أسبانيا 168

– جيسريك 170

– العبور إلى إفريقيا وتأسيس الدولة الوندالية 172

– البيئة بدولة الونداليين 180

– الحروب الدينية 182

– النظام الملكي 184

– طرائق الحكم ووسائله 186

– معرض الملوك 191

– وأين إفريقيا الأصلية 196

الكتاب الخامس

- البيزنطيون في إفريقيا : الهجوم على الونداليين 201
- إبحار الأسطول نحو إفريقيا 206
- إفريقيا عند الفتح البيزنطي 208
- تنظيم إفريقيا البيزنطية: الإدارة المدنية 213
- النظام الدفاعي 216
- الحكومة البيزنطية والسكان الأهالي 220
- إحداث الإكسرخسية 231
- نهاية إفريقيا البيزنطية 237
- الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا 239

الخاتمة 249